أحمد محمد حسنين باشا

فى صحراء ليبيا



في صحراء ليبيا

أحمد محمد حسنين

هذا الكتابُ روايةٌ عن رحلةٍ   في التيهِ أو عن نزهةٍ في الغابِ
صحراءُ في طولِ الظنونِ وعرضِها   تُطوى وتنشرُ في فصولِ كتابِ

شوقي



PDF
مكتبة نرجس
HTTP://WWW.NARJES-LIBRARY.COM



حضرة صاحب الجلالة فؤاد الاول ملك مصر

إلى حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول

بنورك اهتديت في مجاهل الصحراء فاقتحمتها يحدوني صوت الأمل
في رضاك وتظلني رعايتك في حرورها اللافح وشمسها المحرقة
وبعطفك وتشجيعك مضيت فذلل لي صعبها وسهل حزنها
وقصر لي مداها البعيد فطويتها كما ينطوي هذا الكتاب الذي
تشرف باسمك على ما يكنه لك عبدك الخاضع من إخلاص وولاء
وإني لأتقدم به إليك كما يتقدم قاطف الزهرة إلى غارسها
وساقيها ومجتني الثمرة إلى متعهدها وراعيها ولا زلت يا مولاي

عبدك الخاضع المطيع
أحمد محمد حسنين

مقدمة

حسن جميل أن يقوم المرء بسياحة شاقة ليحصل رضى النفس من جراء الوجدانات المتنافرة التى يجدها . يلقى بنفسه فى المفازات يحصل الاحساس بالوحشة فاذا سنح له غزال أو بدا له سرب من القطا فى النهار أو طلع فى الليل نجم ألفه من قبل حصل نوعاً خاصاً من الاحساس بالأنس . يعروه كذلك إحساس القوة القـادرة ويدخل الى نفسه شيء من الاعجاب بذاته كلما ذكر تفرده بالحال التى هو فيها وتفوقه فى اقتحام الاخطار على نظرائه و بيئته . يتناوبه الخوف والطمأنينة كلما قل ماؤه ثم ورد بئراً أو ظن الهلاك ينتظره في بعض الطريق ثم نجا منه . كل هذه الاحاسيس تجعل للنفس رضى لا يعرفه الا أهل الأسفار الشاقة اذا ذاقوه مرة قل أن يقنعوا بما نالوا منه . بل يطلبون المزيد من هذا الرضى فيصير لهم السفر لذة مقصودة لذاتها يباشرونها كلما استطاعوا كما يباشر غيرهم لذات الاقامة سواء بسواء

وحسن جميل أيضاً أن يحمل المرء نفسه على مشاق السياحة الخطرة وأهوالها لا لأن به هذا الميل الذى ذكرنا . ولـكنه يقتحم صنوف هذا العذاب ليصل الى تقرير حقيقة اتنولوجيـة أو تعيين

مواقع جغرافية أو ضبط معلومات جوّية أو ارصاد فلكية .. الخ الخ . فاذا ظفر بطلبته حصل على رضى للنفس لا نظنه من النوع الأول ولكنه رضى لا يقل عنه فى أثره السعيد بل يزيد عليه كثيراً فى قيمته وفى بقائه

وأحسن من ذينكم وأجمل أن يقع الوفاق بين رغبة النفس ومطلب العقل ، أو بعبارة اخرى بين اللذة وبين الواجب . فيعرض السائح نفسه لأخطار القفار لأن اقتحام الخطر فى ذاته يلذ لنفسه ولأجل أن يحقق النفع العام بما يحاول من الاستكشاف وتنمية العلم الانسانى أو تجديده . كذلك كان صديقنا احمد حسنين بك حين اقتحم صحراء ليبيا وحين وضع بما وجد فيها من اللذة الشخصية وما وُفق اليه من الاستكشافات العلمية هذا الكتاب الذى نقدمه لقراء العربية

أقرأوا كتابه تروا حبه لآفاق الصحراء وغرامه بكل ما فى الصحراء يتجلى فى كل موطن بارزاً يُغَشّى كل ما دونه من الاحساسات الأخرى . وليس فى الصحراء إلا الوحشة والتفرد بنوع ما وانقطاع النظر عن المرئيات المألوفة والسمع عن الأحاديث المعتادة والنفس عما فى المدينة من دواعى الرجاء و بواعث الخوف على السواء . يقص علينا هذا الرحالة النابه أنباء ما استشعره من

تلك الأحاسيس المتباينة جد التباين يبسط لنا وصف ما لقيه من الضيق يوماً ومن الفرج يوماً آخر . يتحدث الينا بكل ذلك فى نوع من الحنين الى الصحراء والشوق الى استشعار تلك الاحساسات كأنه لم يفارق الصحراء ومشاق الصحراء الا كارهاً ولم يرجع الينا إلا بعد أن خلَّف هناك فى تلك المفاوز موضوع حب ما زالت تساوره ذكراه ومنازل نعيم ما زالت معقد حنينه وموضع مناه .

هذه النزعة البدوية من ناحية وهذا الاخلاص للعلم والتضحية له بالمال وبالراحة من ناحية أخرى ليسا موهبة عادية ولكنهما من خصال الطبع الاستثنائى أو قد يكونان أثراً نامياً من آثار الانتقال الوراثى القريب . فما كل امرىء رحالة ولا كل نفس تطيق ما أحبته نفس الرحالة احمد حسنين ابن أستاذنا المرحوم الشيخ محمد حسنين ابن المرحوم احمد حسنين باشا . لقد امتزج فى نفسه حب السياحة بحب العلم والاخلاص له فاتخذ من لذته الشخصية وسيلة للاستكشاف وأداء الواجب العلمى . وما أحسن أن يكون القيام بالواجب طوعاً لا إكراه فيه ولذة لا يشوبها ألم .

نعلم شيئاً غير قليل من الصفات العامة المميزة للشعوب العربية من غيرها ومن بعضها والبعض الآخر . وأكثر ما نعلمه من ذلك قديم لأنه يرجع فى جملته إلى كتب السير القديمة ودواوين الشعر

القديمة وبقية كتب الآداب . وقل ما نجد الآن من الثقات من يخالطون البدو عن يمين مصر وعن شمالها ليحققوا تلك المميزات الاتنولوجية التي لا شك في أن يد الدهر قد تناولتها بالتغيير والتبديل والحذف والمسخ والتحسين . حتى كانت هذه الرحلة المباركة فكشفت عن مواطن جيراننا في الصحراء الغربيــة وشيء غير قليل من عاداتهم ومواطن تفاؤلهم وتطيرهم في وصف لذيذ وعناية تامــة بالتفاصيل والدقائق .

قد يظن الحضريّ أن من السهل أن يركب الجمل في قافلة تسير في الأرض أسابيع أو أشهراً في رفقة كيفما اتفق . هذا الخاطر أبعد ما يكون عن حقائق الأشياء . فان رحلة مثل رحلة حسنين بك في جوف الصحراء لا سلامة منها إلا بأعجوبة أو بتوفيق من الله عظيم . ان المســافر في مثل هذا الطريق وفي مثـل هذه القافلة التي ليس بينه وبين أحد أفرادها شبه في منازع النفس ولا في التربية ولا في فهم الحياة ولا في مقومات الأخلاق معرّض كل ساعة للهلاك من خيانة من معه ومن خطا الدليل ومن خور الرواحل ومن عاديات الطبيعة التي لا ترحم عادياتهــا متى أثارت رياحها رمال الصحراء فتدفن أحياء أولئك الاشباح الانسانية التي تتمايل على ظهرها كانها تعاقبها على ترك مواطنها الطبيعية وغشيان ما شاءت الطبيعــة أن

يـكون قفراً من كل ساكن وعلى الخصوص من بنى آدم . وعلى هذا النحو ينبغى أن تقدر شجاعة رحالتنا المصرى ومقدار اخلاصه للاستكشاف . الواقع أنها رحلة شاقة . قال الدكتور هيوم :

« ان رحلة احمد بك حسنين قد فتحت أمامنا منطقة عظيمة كانت حتى الآن من مجاهل الارض »

لو أن الطريق معبداً والشقّة محتملة لما كان هناك مايمنع من أن يجوب تلك الناحية من خلال الصحراء كل سائح . ولـكنى لا أذكر عالماً قام بمثل هذه الرحلة منذ نبلاء « فيلى » فى القرن الخامس والثلاثين قبل الميلاد

ومع ذلك فان بعض القطع القليلة التى وجدت من رحلاتهم لا تدل على أنهم سلـكوا تلك السبيل الوعرة التى سلـكها احمـد حسنين بك . بل على العـكس من ذلك ربما كانت كل القرائن متضافرة على أن سبلهم كانت قريبـة من نهر النيل وان كانت فى صحراء ليبيا عينها

لا نظن أن الجمع بين احمد بك حسنين وبين النبيلين «ميخو» و « هيركوف » فى هـذا المعنى يؤذن بالتلازم فى مصر بين النبل وبين الرحلات الخطرة وإن كان النبلاء أقدر عليها من غيرهم فى العادة لا من حيث أنهم أطمح الى المجـد فحسب ولـكن لأن الرحلات

من هذا القبيل قد تستتبع استعداداً خُلقياً وأداة غالية بوجه ما .

لئن كان هيركوف موفداً من قبل فرعون مصر « ميتيزوفيس الأول » فلقد لقى حسنين بك بعد عودته من رعاية ملك مصر صاحب الجلالة فؤاد الأول وعطفه ما يشجع فى الواقع على مثل هذه الرحلات الخطرة .

عاد هيركوف فى رحلته الثالثة بأنواع من الجلب أهمها قزمة فرح به الملك الشاب « بيوبى الثانى » خليفة « ميتيزوفيس الأول » واتخذه ضحكة له وأغدق من أجل ذلك على هيركوف نعماً وتشاريف كانت تضرب بها الأمثال .

لم يعد رحالتنا احمد حسنين بقزمة ضحكة ولكنه عاد بأرصاد فلكية وتعيينات جغرافية قضى فى تحليل نتائجها الدكتور بول مدير قسم مساحة الصحارى مدة شهرين وفى خلاصة هذه التحاليل يقول الدكتور بول : « ربما يسمح لى أن ألفت النظر إلى أن رحلة احمد بك حسنين، كما يظهر لى ، هى فوز يكاد يكون فريداً فى تاريخ الاستكشاف الجغرافى . » وجاءنا أيضا بنماذج جيولوجية قال فيها الدكتور هيوم مدير قسم الجيولوجية المصرية « ان احمد حسنين بك قد حصل برحلته على مجموعة ثمينة من النماذج الجيولوجية والصور الفوتوغرافية تجعل من السهل على من خبروا جيولوجية الصحارى

المصرية خبرة عملية أن يصلوا الى نتائج صحيحة عن التركيب الجيولوجى للمنطقة التى اخترقها . »

كتاب رحالتنا حسنين بك على ما فيه من الحقائق العلمية ملحة أدبية. لم يكن رحالتنا مشهوراً قبل الآن بالتفوق فى الكتابة كما اشتهر بالتفوق فى العلم وفى وسائل الشجاعة والرياضات . ولكنه لما تهيأ له ظرف الكتابة والوصف سما فى ألطف الى المعانى وترتيبها وحسن الذوق فى ايراد الحوادث والتبسط فى عرضها الى حد يصح اعتباره نموذجاً كتابياً . أتراه ، كما يظهر لى ، قد ترك التعمل ناحية ولم يزد على أن رسم بقلمه صورة ساذجة للمعانى التى أثرت فى نفسه أثراً عميقاً ؟ يظهر لى أن لطف الحس فى هذا المقام له أثره العظيم فى رشاقة التعابير وجذابية القصص .

مباركة هـذه الرحلة التى اكسبت الوطن نوعاً جديداً من المجد واكسبت علوماً عدة زيادة فى موضوعاتها وضبطاً فى تعييناتها وأجدت على النابغة احمد بك حسنين مجداً يبقى بقاء المعلومات التى أضافها الى العلم . لا شك فى أن بقاء الكتب رهن بما حوت من حق وبما أعطت لقارئها من لذة . وكل ذلك بين دفتى هذا الكتاب الذى يسرنى السرور كله أن أقدمه الى قراء العربية .

احمد لطفى السيد

مدير الجامعة المصرية

الفصل الأول

الصحراء

كنت فى رحلتى الأولى وسط الصحراء قد نذرت نذراً
ضللنا الطريق وأضعنا معه الأمل . فلا أثر للواحة التى
التمسناها . ولا سبيل الى بئر قريبة منا . هدّ التعب أجسامنا .
وتسرّب اليأس الى نفوسنا . وكانت الصحراء قاسية عاتية .
فنذرت إن خرجنا منها أحياء أن لا أعود اليها ثانية

***

مضى عامان على ذلك النذر فاذا بى فى نفس الصحراء .
وفى عين البقعة التى ضللنا عندهـا الطريق . ثم اذا بى عند ذات
البئر التى أنقذت حياتنا فى الرحلة السالفة

***

أجل قد يكون للصحراء متاعبها ولها أيضاً ملاذها وهى
التى تستهوى عشاقها وتجذبهم اليها . افتتن بها كل من جاب
فيافيها . افتتن بعظمتها المتمثلة فى فضائها الواسع وسكونها العميق

وحياة التنقل المحفوفة بالمخاطر . بل هى تلك المخاطر نفسها التى تفتنه بل يفتنه الموت المنتشر فى كل بقعة من بقاعها

تبسم فما أحلى ابتسامها . وتعبس فما أقسى عبوستها تضحك نجومها فتستهوى عابر سبيلها ويحتكم فضاؤها فى القلب فتوقعه فى أسرها فيسير مغتبط النفس هانيها سير المؤتدس بها المولع بجمالها المفتون بعشقها ولكنها كالغانيات شيمتها الغدر فلقد تريك بعد تمام الرضا غاية الغضب ونهاية القساوة .

***

الصحراء ساحرة جذابة . إذا عرفتها تعلقت بها نفسك أبد الدهر . ولكن ليس من السهل أن تدرك سر سحرها ولا سبب خلابتها . بل كل ما تعرفه أنها تناديك فينفذ نداؤها الى صميم قلبك . وتدعوك فلا تلبث أن تشد الرحال اليها صاغراً . . . . يسوقك الحنين . وتدفعك الذكرى

وأية ذكرى !! ......

تكون قد سرت عامة يومك على أقدام مقروحة .... حتى السير أهون عليك من ركوب الإبل !.

تلازم القافلة ساجى العينين تجرز قدميك على وقع خطى الإبل وقد جف ريقك وتشقق حلقك ولا أثر لبئر تروى منها

يسير رفقاؤك فى هدوء وسكون وقد خفتت أصواتهم وانعدمت فيهم رغبة التغنى . قلّص وجوههم الجهد . وحالت الى لون الدم عيونهم تبعث نظرة شاردة حائرة ملؤها اليأس، تستطلع الأفق وتستبين ذلك الخط الذى تلتقى عنده زرقة السماء بصفرة الرمال فاذا به دائما باهت بعيد.

السكون شامل لا تصدعه إلا خضخضة النزر اليسير الباقى من الماء فى القرب المتهدلة على جوانب الإبل

إننا فى الصحراء لا نتحدث كثيراً . فالصحراء تعلم السكوت . وإذا أحدق بنا الخطر تحاشينا النظر بعضنا الى بعض وغنينا عن الحديث

وماذا يجدى الكلام ؟؟

كل منا يعرف ما هو واقع . وكل منا يحتمله بصبر وجلد إذ التضجر ضرب من اللوم على الله القدير . وهذه معصية لا يقدم عليها بدوىّ قط . ففى عقيدته ان الله كتب عليه هذه الحيـاة . وقدر عليه سـلوك هذه الطريق . وقد تقوده الى الموت الذى اختاره له . فلا بد له من الرضاء به . والبدوىّ يقول لا مفر مما كتبه الله و« أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة »

فى مثل هذه الساعات تقطع على نفسك المواثيق والعهود أن لا تعود الى الصحراء قاطبة اذا خرجت منها حياً

ثم ينتهى عمل اليوم وتحط الرحال ولا تنصب الخيام لان الرجال مجهودون غافلون عن التفكير فى أجسامهم

وكأنما الشمس قد نالها ما نالنا من تعب . وكأنما النهار الذى قطعته وايانا فى نضال الصحراء قد أسفر عن انهزامها كما أسفر عن انهزامنا . وكأنما صراع الصحراء قد أدمى وجهها فاذا قرصها المهزول يرسل أشعة حمراء ضعيفة كأنها خيوط الدم . وكأنما الشمس قد عمدت مثلنا الى الانزواء تضمد ثخين جروحها وتجدد منهوك قواها حتى اذا تم لها ذلك عادت وعدنا فى نورها الى مصارعة الصحراء . ولكن الصحراء لا تلبث أن تصرعها وتصرعنا ... قصة كل يوم

ثم يهبط الظلام شيئاً فشيئاً تطارد طلائعه فلول النور . ويسجو الليل زاهر النجوم أو وضاح البدر . وربما كان ليل الصحراء أعجب نواحى الحياة فيها

يغشاك السكون ثم نحن الى الحديث بعد سكوت يوم طويل . وتبدأ الملح فاترة فيجرؤ صغير القافلة أن يقذف بنكتة طريفة عالى نبرات الصوت عن رفقائه وان لم يكن طرب الفؤاد



الأمير السيد محمد ادريس السنوسي

ثم تتوافق أصوات البدو غير شاعرين وترتفع وتتزن فى ذلك المقام... فيدور الحديث

هكذا الصحراء تبدأ سحرها

يسرى نسيم الليل عليلا فينعش أرواح القافلة ولا تمضى دقائق قليلة حتى يبدأ النقر على « الفناطيس » الخالية . ويدور الرقص والغناء . والرجال يتعهدون الإبل أو يرتبون الحوائج ويصلحون السروج فما يكاد يقع فى آذانهم أول صوت من أصوات النقر أو الغناء حتى يتجمع شملهم حول رماد النار الخابية فيتوسم كل منهم وجوه رفقائه ليطمئن عليهم ويتيقن سلامتهم . ويحاول كل منهم أن يكون أشد بهجة من جاره ليقوى عزيمته ويجدد فى نفسه الثقة والأمل والطمأنينة

ونعمد الى مغالطة أنفسنا . وهى مهمة تبدأ ثقيلة شاقة . نحاول أن نطرب وأن نبعث فى ظلام حيرتنا ومتاعبنا نوراً . فيقول أحدنا : « ان جمال القافلة على ما يرام ، لقد تعهدت ذلك الجرح فاذا به أخف مما كنت أظن » . ويقول آخر : « أخبرنا بو حسن أنه رأى شارة البئر على مقربة الى اليمين » . وهكذا نستدرج أنفسنا لنقنعها بان كل شىء على ما نود ونرغب . وربما كان هذا كله تغريراً منا بانفسنا ولكنها الصحراء قد

خلبت ألبابنا وتغلب سحرها على عقولنا .

شأننا فى ذلك شأن رجل شديد الوله بغادة فاتنة ساحرة ولكنها قاسية جافية . تعرض عنه فتظلم الدنيا فى وجهه . حتى اذا جن الليل وبسمت له استحالت الدنيا بأسرها الى جنة ضاحكة . كذلك الصحراء تبسم لك فتنسى كل شيء . تنسى متاعبك وآلامك . تنسى الصعاب التى لاقتك والمشقات التى تنتظرك . تنسى كرب الحر والعطش . تنسى انك أشرفت اليوم على الموت وانه يرقبك غداً وانه كامن لك عند كل خطوة . تبسم الصحراء فلا يبقى بعدها مكان جدير بان تعيش فيه ولا تطيب لك الحياة فى غيرها من بقاع الارض

تبسم الصحراء فيماودك حبها وتقبل عذرها . وتغفر ذنبها وتنقض عهد هجرانها

ويسطو الرقص والغناء على ما بقى فى نفوس القوم من قوة وجلد بعد جهد النهار . فتفتر العزائم . ويغلب النعاس على الاجفان فيرقدون تحت قبة السماء الصافية الجميلة وقد رصعتها النجوم

قليلون من أهل المدن يعرفون لذة الجلوس فى حلكة الظلام ورعى النجوم . ولا عجب اذا كان العرب أساتذة علم الفلك . فالاعرابى اذا انتهى من عمل يومه خلا الى نفسه وانقطع الى ترسم

حركات النجوم وامتاع روحه بما تبعثه فيها من الراحة والشعور بالسمو الى ما فوق العالم الارضى

وتقع النجوم من نفسه موقع الاصدقاء الاقربين الذين يلقاهم كل يوم حتى اذا دارت بها قبة الفلك لم تغب فجأة كما يختفى المسافر عند الرحيل ولكنها تحتجب تدريجاً كما يذوب الراحل فى عين مودعه على أمل اللقاء القريب

وينصل الليل فينبعث من فم أول مستيقظ من رجال القافلة « حىّ على الصلاة . الصلاة خير من النوم » وما زال فى السماء قليل من النجوم المتناثرة فيستيقظ القوم وكأنهم يجمعون عظامهم فكل عضو من أجسامهم متألم وكل حلق جاف ومع هذا فما أعظم التغيير الذى طرأ عليهم ... سرى فيهم الأمل وتولدت الثقة بل قد يعتقدون فى ضمائرهم أن سيجرى كل شىء على ما تهوى النفوس

والدنيا بعد فضاء مكفهر رطب . ونيران وقود الصباح وحدها تمزق برودة نسيم الشمال . فاذا كان الجو صحواً لا سحاب فيه انتشر فى السماء نور ضئيل يرمى خلف الرجال والإبل ظلالا مستطيلة رواغة دقت حتى ما تكاد تسميها ظلالا . ثم يتخضب الفضاء بحمرة تبعث الدفء . وانما تبين ألوان الصحراء بين الفجر

وبزوغ الشمس . حتى إذا طلعت ذكاء لم يبق فى الصحراء إلا ذلك المنبسط السحيق من زرقة وصفرة . ثم تنصل الزرقة شيئاً فشيئاً حتى اذا انتصف النهار امحت الألوان من السماء

ويخلق الصباح قوة جديدة كما يبعث الليل السلام والسكينة

تلك هى الساعات التى يتجلى فيها للانسان سحر الصحراء وجمالها . فى سكون هـذا الفضاء المتسع يدق الاحساس حتى إنه ليشعر قاطع الصحراء أحيـاناً بقرب واحة عامرة . وتغلب غريزته أيضاً فيحس بمئات الاميال التى تبعده عن كل كائن حى

وفى تلك اللانهاية السـاكنة يصفو الجسم والعقل وتنقى الروح فيشعر الانسان بانه أقرب الى الله عز وجل ويحس وجود قوة قاهرة ليس لقوة أخرى أن تحول قلبه عنها . ويتسرب الى نفسه الايمان بالقدر الغالب والاعتقاد بحكمة ما كتب الله . فيصبح شديد الاستسلام حتى يهون عليه بذل حياته للصحراء دون تبرم . وهناك حقاً أوقات يشعر فيها بان الحياة قليلة الوزن هينة

وتكشف الصحراء من نفس الانسان عن جوانبها الشريفة . فانك اذا واجهت أهل المدن بالخطر ناضل كل منهم عن سلامة نفسه أما فى الصحراء فتعظم نفس الانسان وتنعدم الأنانية ويفرغ كلّ قصارى جهده فى خدمة زملائه ومساعدتهم . فاذا

هدد الخطر قافلة من القوافل وعنّ لأحد أفرادها سبيل النجاة تنكب عنه ولم يترك رفقاءه لينجو بنفسه

وأشد ما يهولك فى الصحراء أن ينزُر الماء وربما دار بخلدك فى مثل هذه الحال أن تستبقى لنفسك ما لديك منه . ولكنك بدلا من هذا لا تلبث أن تجدك حاملا زجاجة الماء . وهى إذ ذاك أثمن ما تملك . تدور على الرجال تسأل كلا منهم هل يريد جرعة . تسألهم غير مكترث كأنما أفرخ فى روعك ان الماء غزير فائض عن حاجتك . تسألهم دون أن تفكر فى سلامتك الشخصية .

وهكذا تنعدم فى الصحراء الأثرة والأنانية . فتقول لنفسك مهما يكن مما قدر الله أن يقع فليقع لرجال القافلة جميعاً إذ أنك لا تريد النجاة وحدك . ذلك هو الشعور الذى يستولى عليك

***

لا أزال أزداد اعجابا بالبدوىّ كلما فكرت فى ثباته وسكينته وشجاعته التى لا يزعزعها شىء

يدخل البدوىّ الصحراء وعماده ثلاثة : الجمال . والماء . والدليل .

أما الجمال فقد تخور أقواها وينفق لغير سبب ظاهر كما وقع

لى حين تركت الكفرة ونفق جمل من خيرة جمالى فى الليلة التالية بينما قام أضعفها من الكفرة يتمايل تحت حمله ثم قطع نحو ١٢٠٠ كيلو متر ودخل الفاشر يقارب فى خطواته

وكنت قد أخذت على صاحبه احضار تلك الدابة الضعيفة فقال « الله يحفظه » وقد حفظه الله حقاً وحفظنا كذلك لان موت جمل من جمال القافلة كارثة عظيمة معناها القاء جل أحماله ان لم نقل كلها

أما الماء فيحمل اكثره فى قرب ولكنها قد تنشغر فجأة رغم تعهدها أياماً وأسابيع أو يتبخر الماء منها . وربما اصطدم جملان فى حلكة الليل فتنفجر قربة أو قربتان

بقى الدليل

قد يقول الدليل — والاسباب كثيرة — إن الارض تدور برأسه ومعنى هذا ان رأسه طاح . وقد يضل الطريق اذا غامت الشمس بضع ساعات أو أخطأ فى ترسم علم من أعلام الطريق

عماد البدوىّ فى اجتياز الصحراء كما قلت ، ثلاثة : الجمال والماء والدليل ولكنها . جميعها لا تغنى عن شىء آخر هو الايمان . الايمان الثابت الذى لا يتزعزع . الايمان الراسخ الوطيد

ولطالما كنت أغمض عينى وأستعرض ما مر بى فى مدى

سبعة شهور طويلة فاشعر بانني لافضل لى فيما قمت به وانني لا أستطيع أن أفخر بنجاح رحلتي واذا رجع كل رحالة الى ضميره لما استطاع ان يقول فعلت وكل ما يقوله وفّقت وما التوفيق الا من عند الله

قد تتجمل الصحراء ويلين مهادها . وقد يكون رجال القافلة نضر الوجوه مرحى الخواطر . ولكنها قد تكون أيضا قاسية فتاكة . يضرب فيها على غير هدى أولئك التعساء الذين كتب عليهم سوء الطالع أن يهيموا فى نواحيها مستيئسين . فاذا تهدلت رؤوس الأبل من العطش والإعياء . ونزر الماء وما من أثر لبئر قريبة. ووجم رجالك وتطرق اليأس الى نفوسهم . ونظرت فى الخريطة فلم تجد أثراً يهديك لان الطريق الذى تسلكه لم يكشفه أحد بعد . وسألت دليلك عن الطريق فهز كتفيه وقال الله اعلم . وذرعت بنظرك الأفق فاذا هو ذلك الخط الغائم المضطرب الممتد بين زرقة السماء الباهتة وصفرة الرمال . وأمعنت النظر فى كل ما يحيط بك فما رأيت شارة أو علامة تبعث على بصيص من الأمل . وضاقت دائرة الأفق البعيد الشاسع حتى أصبحت طوقاً يضيق حول عنقك ويغل حلقك الجاف. فهنا يشعر البدوى بافتقاره الى قوة كبرى ، اكبر من قوة تلك الصحراء

الفتاكة القاسية . وهنا يجأر باستدرار رحمة الله ولطفه . حتى اذا ضلت دعواته الطريق ضم « جرده » الى جسده وتهالك على الرمال ينتظر الموت المحتوم فى سكينة واستسلام

هذا هو الايمان الذى لا بد منه لمجتاز الصحراء



الرحالة بملابسه البدوية

الفصل الثاني

وضع خطة الرحلة

هذه قصة رحلة قمت بها سنة ١٩٢٣ من السلوم على شاطىء البحر الابيض المتوسط الى الابيض عاصمة مديرية كردفان بالسودان . وهى مسافة قدرها نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة كيلو متر قطعت على ظهور الإبل وقد وفقت فيها إلى العثور على واحتين مجهولتين هما (اركنو) و (العوينات) وكانتا غير معروفتين قبل ذلك للجغرافيين

وقد كانت الغاية الأولية من رحلتى هذه علمية ولكنى حاولت فى هذا الكتاب أن أتجنب إرهاق القارىء بذكر المصطلحات الفنية وأن أقدم إليه حكاية أرجو أن تكون شائقة حتى لمن يجهل مصر والسودان وصحراء ليبيا

كان اكبر همى طول أيام حياتى أن أجوب صحراء ليبيا وأصل إلى (الكفرة) . وهى مجموعة من الواحات فى صحراء ليبيا لم يزرها قبلى الا مستكشف واحد فقد نجح المستكشف

الالمانى المقدام (رولفس) سنة ١٨٧٩ فى القيام بهذه الرحلة ولكنه لم يخرج منها إلا بحياته بعد أن خسر جل مدوّناته ونتائج ملاحظاته العلمية

وقد أسعدنى الحظ سنة ١٩١٥ بلقاء السيد إدريس السنوسى فى القاهرة عند عودته من الحج . والسيد إدريس هو شيخ الطائفة السنوسية التى مقر ملكها واحة الكفرة . وفى سنة ١٩١٧ أوفدت فى بعثة الى السيد إدريس المذكور مع اللواء تالبوت باشا أحد مشاهير الضباط البريطانيين المنتدبين للخدمة فى الجيش المصرى . كان قد ترك الخدمة العسكرية وعاد اليها عند نشوب الحرب العظمى

وكان أهم مقاصد هذه البعثة الاتفاق مع السيد إدريس على منع العرب من الاعتداء على حدود مصر الغربية ومنع القلاقل التى قد تحدثها الحرب

وقد انتهزت هذه الفرصة فجددت علاقاتى مع السيد إدريس فى (الزويتينة) وهى ثغر صغير بالقرب من (جدابيه) فى برقة وكاشفته بغايتى . وقد عطف علىّ السيد إدريس وسألنى أن أحيطه علماً بموعد سفرى متى شرعت فى القيام بهذه الرحلة

حتى يقدم لى المساعدة والرعاية اللتين لا بد منهما لكل مسافر يقصد (الكفرة)

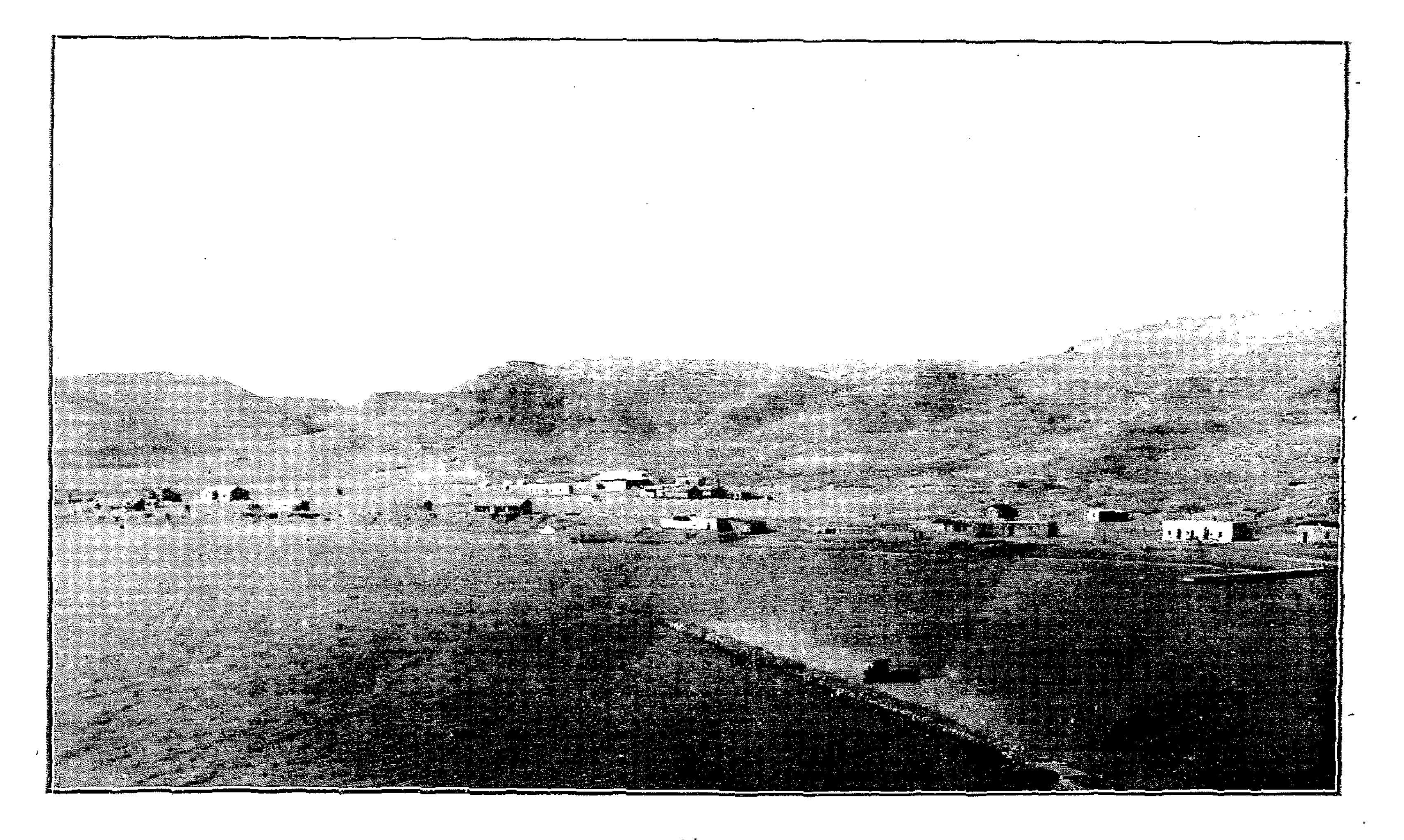
وقابلته بعد ذلك فى « عكرمة » بالقرب من « طبرق » وأخبرته بعزمى على القيام بالرحلة بعد انتهاء الحرب الأوروبية وكان معى إذ ذاك فى « طبرق » المستر فرنسيس رود وهو صديق لى قديم ترجع صلتنا إلى عهد الدراسة فى كلية (باليول) بجامعة اكسفورد فاتفقنا أن نترافق فى هذه الرحلة

وانتهت الحرب فجاءتني مسز روزيتا فوربس (وهى الآن مسز مجراث) وتقدمت الىّ بخطاب من صديقى رود راجية أن ترافقنا كذلك . فبدأت برسم خطة لرحلة يرافقانى فيها ولكن الموانع حالت دون مصاحبة المستر رود لنا وقد أوشكنا أن ننتهى من كل ترتيب وانتهى الأمر بسفر مسز فوربس معى سنة ١٩٢٠ مزودين بمساعدة السيد إدريس الذى قدم لنا ما يلزم للقافلة فوصلنا الكفرة فى يناير من سنة ١٩٢١

ولكن هذه الرحلة الى الكفرة لم تزدنى إلا حباً فى التوغل فى أحشاء تلك الصحراء الممتدة وراءها . وكان هنالك إشاعات عن واحتين مجهولتين لا يعرفهما كثير من أهل الكفرة إلا فى أساطير الأولين وأخبارهم

فلما عدت من الرحلة الأولى الى القاهرة صممت على القيام برحلة ثانية وعزمت على الانحدار الى الجنوب مخترقا تلك الصحراء المجهولة الى واداى والسودان . وزادنى رغبة فى القيام بهذه الرحلة الثانية ان كل ما كان معنا فى الرحلة الأولى من المُعَدات العلمية لم يزد عن بارومتر وبوصلة . ولذلك لم يكن فى وسعى أن أقوم بعمل خريطة دقيقة للجهات التى اخترقناها ولا أن أضبط مواقع الآبار وواحات الكفرة بالدقة . فداخلنى ميل شديد الى التحقق من النتائج العلمية التى وصل اليها « رولفس » والتثبت من مكان الكفرة على الخريطة الجغرافية

وفى سنة ١٩٢٢ تشرفت بعرض خطة رحلتى مخترقا الصحراء من البحر الأبيض المتوسط الى السودان على حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول الذى كان قد تفضل فأبدى اهتماماً برحلتى الأولى ومنحنى نوط الجدارة فأظهر عناية شديدة بفكرتى وسمح بإعطائى اجازة طويلة وتفضل باصدار أمره الى الخزينة المصرية بمنحى جميع النفقات التى تتطلبها هذه الرحلة فلجلالته منى تقدير العبد المخلص الذى يجهر بان كل ما وفق اليه من النجاح فى هذه الرحلة راجع الى معونة جلالته الثمينة



ميناء السلوم

وانتهيت من ترتيباتى وجمعت حوائجى فى ديسمبر سنة ١٩٢٣ فى دار أبى حتى احظى ببركته وصالح دعواته وفقاً لتقاليدنا القديمة قبل بدئى بعمل هذه الرحلة

سدد الله خطاك

« سدد الله خطاك » تجاوبت أركان الغرفة الفسيحة بهذه الدعوة الطيبة التي امتزجت ألفاظها بما انتشر في الجو من ضوء الشموع وسحب البخور المتناثرة

وكانت إلى جانب الحوائط أكداس من حوائج السفر بين صناديق متفاوتة الأحجام من كبير وصغير وقرب الماء « وفناطيس » من الصفيح لحمله أيضاً . وحقائب مفعمة زاداً . ورزم من الخيام وجعب مختلفة من الجلد والمعدن تحوى بعض الأجهزة العلمية وكذلك أمتعتى الخاصة

سكنت جلبتنا من إعداد كل شيء بعد حزمه وترتيبه فوقفنا وسط الغرفة واجمين وليل مصر يسدل ستاره والنسيم يحمل إلينا من ناحية الحديقة تلك الهمهمة الخافتة التي تسرى عند المساء فى أحياء القاهرة

كنا ثلاثة . أنا وعبد الله وأحمد . أما عبد الله فنوبى من اسوان وثقت به الثقة كلها وكان عند حسن ظنى به . وأما أحمد

فنوبى من اسوان أيضاً صحبته فى رحلتى فكان طاهيها البارع
وروحها الهفافة

ووقف أمامنا شيخ طويل القامة ذو لحية بيضاء مسترسلة
يلبس قفطانا من الحرير البرتقالى . وينبعث من وجهه الوسيم
المتغضن نور الصلاح والطمأنينة والتقوى وتتساقط بين أصابعه
الطويلة المنشرحة حبات سبحة من الكهرمان . ووقف الى جانبه
خادم يحمل مبخرة من الفضة يتصاعد منها بخور زكى الرائحة .
ينشر فى فضاء الغرفة حلقات رقيقة

وضع ذلك الشيخ التقى سبحته جانباً ثم رفع يديه نحو السماء
وتمم بصوت خافت من فعل السنين واضح من أثر اليقين .
دعاء يستمطر به رحمة الله بالراحلين . ويضرع إليه تعالى أن يسدد
خطانا ويكلل بالنجاح مسعانا ويعيدنا سالمين غانمين

وجعل ينادى فى أنحاء الغرفة ويراوح بالمبخرة على كل حزمة
من حوائج السفر مرددا دعاء قصيرا

تلك هى حفلة التبرك . حفلة مباركة الأمتعة والحوائج التى
استنتها العرب وجعلتها الأجيال المتعددة واجباً مقدساً قبل
الرحيل .

وقد فرّط فيها الخلف وقلّ استعمالها فى أيامنا الأخيرة . أما

أبي الذي يضيء سبل حياته سنا العرفان ويشع فيها نور الرسول فقد أبي الا أن يؤدى هذا الواجب لابنه الوحيد المقبل على سفر طويل بعيد

وقفت أمام ذلك الشيخ الصالح أتلقى البركة فلم أعد ذلك المصرى المتحضر وإنما كنت بدوياً يعود إلى الصحراء حيث أقام أجداده وأسلافه قوائم خيامهم . ثم درت ويممت أبي

لقد قضيت وإياه خمسة عشر عاماً - منذ أرسلت لتلقي العلم فى أوروبا - تختلف مشاربنا وآراؤنا وتتباعد طرائقنا فى الحياة . على انى طالما تمنيت لو أنى توفرت على درس ما مال اليه من العلوم حتى أقتبس من معارفه الواسعة وأغترف من بحر علمه الغزير

سمعته ذات يوم يقول عنى لأحد زملائى : إنه مخلوق لغير زمانى فدعه يحصل ما يقتضيه زمنه من العلم والتهذيب » وهكذا نشأت فى غير نشأته

وهكذا كان شأن أبي وشأنى أما الآن وقد أقبلت على العودة الى الصحراء التى نشأ فيها أجدادى فقد التقت خواطرنا واجتمعت أفكارنا واتحد شعورنا وعرف كل منا ما يخالج ضمير الآخر فتفاهمنا صامتين وغشينا سكون قصير ثم وضع

يديه على كتفيّ وقال « سر يا بنى رافقتك السلامة وسدد الله خطاك ووهبك القوة وأنجح مسعاك »

بوركت حوائج السفر وخرج عبد الله وأحمد الى السلوم بما ثقل منها وخليا لى الادوات العلمية وآلات التصوير .. وفى اليوم التاسع عشر من شهر ديسمبر أقلعت بى الباخرة من الاسكندرية إلى السلوم

***

ما كدت أنتهي من وضع هذا الكتاب حتى فوجئت بموت أبى ففقدت بفقده خير النصراء النصحاء . فقدت الأب البار الشفيق . كنت إذا اشتدت صروف الحوادث واستحكمت حلقاتها أجد عنده الكلمة التى تفرج الكرب والنصيحة التى تفتح أبواب الفرج . والعظة التى تعيد للنفس المضطربة بأسها وللحواس المضعضعة قواتها . وللعزيمة المزعزعة ثباتها

كان الصديق الصادق إذا ضاقت السبل وانقطعت الأسباب وتعقد الأمر وتكاثفت الظلمات واشتدت الحيرة فلا عجب إذا كان مصابى بفقده جللا وخطبى بموته جسيما وإذا أحسست بعد غيابه بفضاء واسع وفراغ كبير كان يملأه صلاحه وتقواه وسعه الله برحمته واسكنه فسيح الجنة والرضوان

الفصل الثالث

الزاد والمتاع

رست بى الباخرة فى ٢١ ديسمبر سنة ١٩٢٢ فى ميناء السلوم وهى ثغر صغير قريب من حدود مصر الغربيـة . وكان الترتيب أن نأخذ الجمال من السلوم ونذهب عن طريق « الجغبوب » الى « جالو » وهى المركز المهم لتجارة الصحراء حيث يتم تنظيم كل شىء للبدء فى رحلتنا إلى الجنوب

ولمثل رحلتى هذه دائمًا مراحل عدة ينتابك فى كل مرحلة منها شعور خاص وتلقى فيها تجاريب تختلف عما تلقاه فى غيرها فانى ساعة وقفت فى دار أبى فى تلك الغرفة التى يشيع فى أرجائها القاتمة عبق البخور رأيت القيام بهذه الرحلة ضربًا من الأحلام يخلب لبى باحتمال تحقيقه وان اليقين منه كان بعيدًا ـ أما فى السلوم فقد واجهتنى الحقيقة الواقعة التى تستلزم جمع الزاد والمتاع وحزم كل شىء بحيث يصغر حجمه ويسهل تناوله وجرد كل شىء للتحقق من وجوده ثم الاتفاق مع أصحاب الإبل على المرحلة الأولى من الرحلة

وعند « جالو » تبدأ المرحلة الثالثة حيث أتقدم القافلة وأستقبل طريق « الكفرة » التى قطعتها من قبل ثم تنكرت لى معالمها . حتى اذا وصلت الكفرة بدأت مرحلتى الاخيرة ضارباً فى أحشاء تلك الفيافى المجهولة التى لم تطأها قدما مكتشف من قبل

وقد سبقنى الى السلوم عبد الله واحمد ومعهما أمتعتى الضخمة وكانا قد رتبا كل شىء يختص بسفرنا عن طريق الجغبوب فأخذنا جميعاً فى تحضير المتاع والزاد

ولا يفوتنى أن أصف فى هذه المناسبة ذينك المصريين اللذين صحبانى فى هذه الرحلة .

كان عبد الله نوبيا من اسوان متين البناء متناسب الأعضاء . قويا . له عينان صغيرتان غائرتان . . يلوح فيهما الذكاء والشمم . وكان يبلغ من العمر أربعين سنة خرج منها بعلم واف واستظهار للقرآن الكريم .

وكان أول لقائى به سنة ١٩١٤ حين كان فى خدمة الأسرة الأدريسية بالقاهرة . وقد ملت اليه منذ رؤيتى له لما توسمت فيه من مخائل الذكاء والولاء . وكان من الامانة بمكان فاستودعته المؤن والذخائر وكان يعمل للطوارىء حساباً فلا يخلو متاعه مما تحتاج اليه من سيور جلدية وإبر غليظة لرتق الاحذية الى أدوات

أخرى لاقامة المعوج وإصلاح المكسور من أعمدة الخيام وكان دائما على استعداد لمواجهة كل ظرف من الظروف فكان فى وسعه أن يظهرنى بدوياً من عرب مصر الرحّل أو تاجراً أو موظفاً كبيراً فى الحكومة كما حدث حين هبطنا ميدان الحياة الرسمية بالسودان . غير أن عبد الله كان فيه خاصية غريبة هى أن النوم يغشاه بين الغروب وبعده بساعة أو اثنتين فيصعب كثيراً إيقاظه من غفوته وكان يتغلب النعاس عليه أحياناً وهو جالس يتحدث فلا يتمالك نفسه من أن يهوّم . وإنى لأذكر أننا فرغنا من العشاء ذات مساء وحلت ساعة تهويمه فانتهز هذه الفرصة رفيق البدوى الامين « الزروالى » وكان قد انضم الينا فى «جالو» وأراد مداعبته فأخذ جانباً من الزعتر ووضعه فى كوب الشاى الذى كان أمامه وصحا عبد الله فتذوق كوبه وعرف الأمر فلم يقل شيئاً وأعاد كوبه إلى موضعه وبعد قليل من الزمن التفت الى الزروالى وقال « أظن أنك تنتظر زيارة قادم وإنى لأسمعه مقبلا » وما كاد الزروالى يقوم للتحقق مما سمع حتى أبدل عبد الله كوبه بكوب الزروالى وكان نصيب الأخير ان جرع تلك الكوب الحريفة بينما عبد الله يهوم كعادته آمناً مطمئناً

وقد تجلت فى عبد الله غريزة الاتجار فى أجلى مظاهرها حين

وصلنا فى نهاية رحلتنا الى بعض البلاد الآهلة وقد أعوزنا الطعام فقد جمع كل ما فاض عن حاجتنا مما خلا من علب الصفيح وزجاجات الأدوية الى بعض أسلحة الأمواس المستعملة واستبدل بكل ذلك من السكان زبدا ولبناً وتوابل وجلوداً

وكان من الشمم وطيبة القلب على شيء كثير وقد تألم عند عرضي شريط رحلتى أثناء إلقائى محاضرة شرفها جلالة الملك فؤاد فى دار الاوبرا بالقاهرة . فان عبد الله حين رأى نفسه فى كثير من الصور فى ثوب مهلهل آلمه أن يظهر فى تلك الحال الزرية أمام مليكه وسألنى بعد ذلك إن كان فى المقدور أن أغير تلك الصور بحيث يظهر فيها أحسن هنداماً وأسلم ثوباً

أما أحمد فكان كذلك نوبياً من إسوان منسرح القامة صلب القناة وكان خادمى الخاص وطاهىّ . وقد اختار حرفة الطهى على مبلغ تعلمه لأنه أراد أن يكون طليقاً وقد أبى أن ينزل على إرادة أبيه حين اختار له حياة دينية لانه لم يأنس إلى ما فى تلك الحياة من بساطة وزهد وتقشف . وكان طروبا أبدا محبوبا من جميع أفراد القافلة رغم صبه اللعنات والشتائم من وقت لآخر . ولو أن غيره فاه بكلمة واحدة من الفاظ السباب التى يفوه بها

لكانت كافية لاراقة الدماء بين رجال القافلة ولكنهم اعتادوا ذلك منه وكانوا يتفكهون به .

وكان من عادته اذا انتهى من الطهى أن يجلس الى الأعراب ويهزأ من مبلغ معرفتهم بقواعد الدين . ويظهر التفوق عليهم بانشاء مقاطيع من شعر الزهد ويحسن اختيار أشعار الغزل وروايتها وطائفة من أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام

وكان احمد هذا مخلصاً لى متفانياً فى خدمتى لم يكن يفوته أن يقدم لى كوبا من الشاى فى أحرج الظروف وأقلها ملاءمة لذلك. وإنى لأذكر أنّا سرنا ليلة كاملة ثم حططنا الرحال وكان يشكو ألما فى قدمه فقلت له اعتباطاً حين أخذنا فى نصب الخيام إنى لم أكن فى حاجة الى الفطور أو الشاى حتى أصحو من نومى وسمحت له بالنوم فتركنى وما كدت أفرغ من إعداد غطائى حتى جاءنى بكوب من الشاى يتصاعد منه البخار

وكان على سبابه ولعنه رفقاءه البدو لا يتوانى عن الاهتمام بتخفيف آلام ممن يمرض منهم فقد أخذ عني بالتدريج فهم استعمال الأدوية التى معى وكان كلما أشكل عليه معرفة دواء يجيئنى بزجاجته للتحقق مما بها

ان ما يحتاج اليه الانسان فى قطع الصحراء بسيط . والأشياء

التي يحملها مجتازوا الصحراء معروفة تكون متماثلة فى كل حالة فغذاء الصحراء هو الدقيق والأرز والسكر والشاى وسكان الصحراء يحبون اللحم ولكنه لا يمكن حمله بطبيعة الحال فلا بد للانسان من الصيد اذا أراد أو الاستغناء عنه

أما الشاى فهو شراب أهل صحراء ليبيا وهم يفضلونه عن القهوة لسببين أولهما دينى والثانى عملى . فقد حرم السيد ابن على السنوسى على أتباعه عيش الترف وأمره نافذ لأنه مؤسس الطائفة السنوسية المهيمنة على أمور البلاد التى أزمعت اختراقها . وقد تناولت أوامره تحريم الدخان والقهوة ولكنها لم تتناول الشاى لأمر ما . ولهذا تجد كل أتباعه يحبون الشاى اذا صحت المقارنة بين ذلك السائل العكر المر الذى يبعث النشاط فى النفوس . نفوس الأعراب أثناء السير . وينعشها آخر النهار وبين ذلك الشراب الذهبى الشهى ذى الرائحة الزكية الذى يوسّع حافات الموائد فى بلاد الحضارة

والسبب الثانى الذى يجعل أهل الصحراء يؤثرون الشاى على القهوة أنه منشط على العمل وهم يشربونه عقب كل طعام ويختمون به رحلة اليوم

والبلح من أهم الأطعمة فى الصحراء إن لم يكن أهمها جميعا فانه غذاء الرجال والجمال اذا نفد الزاد أو ضاق الوقت عن طهى شىء . وليس بلح الصحراء تلك الفاكهة الحلوة الشهية التى يتلذذ بأكلها أهل الغرب على موائدهم ويحملونها معهم فى سياحاتهم القصيرة . فان البلح الذى يحمله قاطع الصحراء يجب أن يكون قليل مادة السكر لان السكر يسبب العطش ولا بد من الاقتصاد فى الماء اذ الآبار على مسافة أيام من بعضها البعض

وقد أخذت معى بعض الأطعمة المحفوظة فى العلب مثل لحم البقر والخضر والفاكهة . ولكن هذه العلب ثقيلة والإكثار منها يتطلب زيادة فى عدد جمال القافلة . وكان معى بعض البن ولكنى لم أشرب القهوة إلا قليلا وقدمته هدايا الى من صادقنا أثناء الطريق . وكان معى كذلك قليل من زجاجات أقراص اللبن المركز وقد نفعتنا كثيراً عند نقص مقدار الطعام ولكن البدو لم يميلوا الى هذه الأقراص لانها كما كانوا يقولون تشبعهم بدون إمتاعهم بلذة التذوّق

هذا ما كنا نحمله من الأغذية مضافا اليه الملح والتوابل وأخصها الفلفل لعمل (العصيدة) ولا تخلو هذه الأغذية من التنويع القليل. ولكن التنويع فى المأكل شىء يجب الاهتمام به فى

الصحراء حيث تنقل المؤن دواب تعيش فى الغالب على اكثر ما تحمله . ولم يكن معى طعام خاص شهى استعين بلذته على إساغة الارز والخبز والبلح والشاى لأن من يجرب السفر فى الصحراء ويتعلم دروسه يدرك أنه يجب أن لا يختص نفسه بشىء دون رجال القافلة . فلا يحمل من لذائذ المأكولات مالا يكفيهم جميعا إذ فى الصحراء تنمحى الفوارق كلها فلا تمييز بين رفيع ووضيع . غير أن التبغ كان الشىء الوحيد الذى ميزت به نفسى عن بقية الرجال ولكن هذا لم يكن فى الواقع خرقا للقاعدة اذ لم يكن بين رجال القافلة من يدخن الا شخص واحد شاركني لذة التدخين التى نعمت بها أثناء الرحلة لكثرة ما حملت معى من السجاير المصرية والطباق

ويجىء الماء بعد هذا وهو المعضلة الدائمة فى الصحراء فقد رأينا رجالا يمسكون عن الطعام أياماً عديدة ويصومون الى آجال لا يصدقها العقل . إما لحاجة قضت بذلك أو على سبيل التجربة . أما اذا أمسك رجل عن الماء فى الصحراء أربعة أيام فانه يكون قد أتى بمعجزة . والصحراء لم تُسَم صحراء الا لخلوها من الماء . والماء أهم ما يتحتم على مجتازها التفكير فيه والعناية به .

ولقد حملنا الماء على طريقتين فأخذنا حاجتنا منه فى خمس وعشرين قربة من جلد الغنم على أن هذه القرب سهل انفجارها إذا اصطدم جملان ليلا فى طريق صخرية ولذلك أودعنا الماء الذى ربما مست اليه الحاجة فى فناطيس مستطيلة من الصفيح مدلاة على جوانب الجمال . وكان معنا ثمانية فناطيس . يسع الواحد منها ما يملأ ثلاث قرب فكان كل ما معنا من الماء يكفى جميع أفراد القافلة فى أطول المراحل بين بئر وأخرى . وقد قصرنا وضع الماء الاحتياطى على الفناطيس وان كانت أسلم عاقبة من القرب لأن هذه لا تشغل حيزا كبيرا اذا خلت فقد يكفى جمل واحد لحمل الخمسة والعشرين قربة الخالية . بينما لا تزيد حمولة الجمل الواحد عن أربعة فناطيس . سواء أكانت ملأى أم خالية ولم يكن معنا جمال نغنى عنها

وكان معنا كذلك بعض (زمزميات) من القماش ولكننا ألقينا معظمها لانها كانت تضايقنا كثيراً فى حملها وقد نفعنا القليل الباقى فى تبريد الماء بعد ذلك عند اشتداد الحر فى السودان فان تبخر الرطوبة من منافذ قماش الخيش يحفظ للماء درجة حرارة معتدلة

وكان من ضمن متاعنا أربع خيام منها ثلاث ناقوسية الشكل والرابعة مستطيلة وكذلك من أدوات الطبخ أهمها (حلة) كبيرة

من النحاس لطهى الأرز وكان معنا استمدادا للطوارىء صندوق صيدلة يحوى الكينا واليود والقطن والأربطة وساليسلات البزموت لمعالجة الدسنطاريا وأقراص من المورفين وحقنة ومصل ضد لسع العقرب نفعنا كثيراً أثناء الرحلة فى حالات حرجة ودهان من الزنك لأجل الأجزيما وأقراص ملينة وملح فواكه وكان معى بعض الجهازات وبعض أسلحة الجراحة الطبية وأدوات وأدوية لمعالجة أمراض الأسنان

وكانت هذه الأدوية والجهازات تساعدنا كثيرا فى علاج الأمراض البسيطة العادية أما اذا اشتد المرض على عليل وضقت ذرعا بعلاجه فكان لا مناص لى من تفويض أمره لله قائلا كما تقول العامة الشفاء من عند الله

وأخذت معى لقصد الصيد ودفع الطوارىء ثلاثة مسدسات كبيرة وثلاث بنادق و بندقية أخرى لصيد الطيور أهديتها قبل عودتى . بينا زدت أسلحتى ست بنادق أخرى ومسدساً كبيراً

ولما وصلت تلك الأسلحة الى السلوم فى صندوق غريب الشكل تهامس الناس أنى أحمل مدفعا رشاشا لغاية خفية اختلقوها وفقا لأهوائهم ولم تخلُ هذه الاشاعة من الرواج

وحملت معى خمس آلات للتصوير رغبة منى فى أخذ مناظر

الرحلة بحيث تظهر التفصيلات التى أعود بها عنها وافية واضحة ناطقة . وكان ثلاث آلات منها من نوع كوداك . وقد قامت بتأدية وظيفتها على أحسن ما يرام حتى آخر الرحلة وواحدة من نوع آخر وقد أتلفها تسرب الرمال اليها وكانت الآلة السادسة من آلات السينماتوغراف

وقد استعملت فى التصوير بهذه الآلات (فلما) من نوع (ايستمان كوداك) حفظته بعناية شديدة فى علب صفيحية محبوكة القفل ثم وضعت هذه العلب فى صناديق من الصفيح ملأتها بنشارة الخشب ووضعت كل هذا فى صناديق من الخشب . ولم تكن العناية بهذه (الأفلام) زائدة عن الحد نظراً للحرارة الشديدة فى مبدأ الرحلة والأمطار الغزيرة التى هطلت بعد ذلك فى السودان

وكان طول الشريط السينماتوغرافى الذى حملته معى ٩٠٠٠ قدم .

وقد كنت موفقاً فى كل ما أخذته من الصور ولم أحمض الجزء الكبير منها حتى عدت الى مصر بعد ذلك بثمانية أشهر ولكن الذى خسر منها قليل بالنسبة لمجموعها

أما لباسى فكان ثوب البدوى العادى المكون من قميص



الشيخ عبد الله الصادق والاسطى احمد المصريين
من اصوان اللذين رافقا الرحالة فى رحلته

وسروال وصديرى من نسيج قطنى أبيض وجرد عربى (والجرد هذا حرام من الصوف) وكوفية وعقال . وأخذت بعض ملابس حريرية وسراويل من الجوخ للبسها فى مواقف خاصة عند دخول الواحات والخروج منها ومقابلة رؤساء العشائر وكبار أهل الصحراء وحضور مآدبهم وغير ذلك

ولم أرد أن أتزيّا بزى أهل الصحراء حتى انتهى من المرحلة الأولى فتركت السلوم فى (بدلة) من الخاكى وسراويل ركوب نال منها القدم وكنت غريب الهيئة وانا انتعل تلك المراكيب الصفراء التى لا ينفع غيرها للسير فى الصحراء وألبس تلك القلنسوة الصوفية دفعاً للبرد الشديد

والعادة عند السفر فى أراضى مجهولة فى البلاد الشرقية ان يقوم الانسان بتقديم الهدايا الى الرجال المشاهير الذين يلقاهم فكان معى كمية وافرة من الحرير والاوانى النحاسية والمباخر المطعمة بالفضة وزجاجات الروائح العطرية والمناديل الحريرية وأباريق واكواب للشاى من الفضة واجراس فضية يسر البدوى ان يستعملها فى دعوة خدمه بدلا من التصفيق بيديه . وكنت عند قيامى بهذا المقدار العظيم من الهدايا أظن أنى عائد بنصفه . ولكنى لاحظت عند وصولى الكفرة أن الميل الى قبول الهدايا

لم يقتصر على من أدى لى خدمة فى هذه الرحلة . ولكنه تجاوزهم الى كل من أدوا لى أية خدمة فى رحلتى السابقة مهما صغرت تلك الخدمة . ولذلك رأيت ان كل ما حملت لم يكن كافياً لارضاء من توقع الهدية قبل عودتى ومن استحقها فى رحلتى الثانية . ولم تكن هذه الهدايا منى طلباً لخدمة أو توقعاً لنفع وانما كانت بمثابة تحية أو تذكار من بدوىّ من المدن الى أخيه البدوىّ المقيم فى الصحراء.

وكان أهم ما خرجت منه بفائدة عظيمة من هذه الرحلة من حيث الابحاث العلمية والتاريخية تلك الجهازات العلمية والأدوات الفنية التى ذكرها الدكتور بول فى تقريره الطبوغرافى فى ذيل هذا الكتاب .

وقضيت فى السلوم اسبوعين كنت فيهما شديد الاهتمام بتهيئة أسباب الرحلة صارفا عنايتى فى تنسيق كل شىء وترتيبه لان الاشياء التى تنقل على ظهور الإبل ويتحتم حملها كل صباح وانزالها كل مساء وصفّها فوق بعضها ليكون منها حائل يدفع البرد ويرد الاعتداءات المتوقعة لا بد أن يعتنى بحزمها والتأكد من سلامتها فقد يحدث بعد سفر يوم طويل أن يستسهل الجمالون الذين نال منهم التعب أو تغلب عليهم الاهمال أن يتركوا الاحمال تزل عن جوانب الجمال بدلا من أن ينزلوها عنها برفق وعناية

الفصل الرابع

التآمر والتفاؤل

انتهيت من وضع خطتي للانحدار جنوباً الى الجغبوب ولكن حادثة وقعت لى قبل اليوم المحدد للسفر بيومين شغلت بالى وذلك أنى كنت جالسا ذات مساء فى غرفتى بمنزل استراحة الحكومة اشتغل بفحص أجهزتى العلمية فاذا بطارق على الباب . وحرت فى التكهن بمن يريدنى فى تلك الساعة . ولكنى تقدمت الى الباب وفتحته قليلا فرأيت بدوياً لا أعرفه ملتحفا بجرده فاقفلت الباب في وجهه وسألته من أنت ؟ فقال صديق . ولكنى لم أطمئن الى ذلك فسألته عن اسمه وعما يريد فأجابنى من وراء الباب « أنا صديق اريد أن اسرّ اليك شيئاً لا بد من اخبارك به »

ففتحت الباب وسألته الخبر فدخل وقال بلهجة المستفسر : أظنك ستسير الى الجغبوب من الدرب (الطوالى)

فأومأت برأسي أن نعم . فقال وفي لهجته شدة : لا تذهب

فقلت : ولم هذا ؟

فأجاب : ان البك غنى يحمل معه ثروة طائلة والاعراب

أهل شره ونهم والدائر على الألسنة ان معك صناديق مملوءة ذهباً .

قال لى هذا بينا ينطق فى عينيه اعتقاده بصحة هذه الاشاعة وإن ادعى غير ذلك . ثم ثنى قائلا : لقد اتفق الجمالون مع أصدقاء لهم في الطريق على الكمون لك ونهب ما معك وقد تضيع مالك وتفقد حياتك اذا سلكت تلك الطريق

فاجبته : ان فى وسع كل إنسان أن يدافع عن نفسه وعن ماله

فقال : ذلك محتمل ان كان معك العدد الكافي من الرجال

ولم يكن معى ذلك العدد الكافى فتطرقت فى الحديث معه الى الاستفسار عن صحة هذا الخبر فقص علىّ القصة وكان صادقاً وزاد يقينى فى صحة اخباره انه كان قريباً لرجل أديت له خدمة حين أوفدت فى بعثتى الأولى الى السنوسيين

وشكرته على اهتمامه بتحذيرى واختفى الرجل فى ظلام الليل فخلوت بنفسى أعرض عليها التفكير فى الخروج من ذلك المأزق الحرج

وأهل الصحراء سريعون الى التهكن بمقاصدك ان امكنهم ذلك . فان عجزوا ظنوا الظنون فى كل ما تفعل او تريد ان تفعل . وكان اكثر متاعنا فى صناديق والاعراب لا تفهم من الصناديق

إلا انها تحوى كنـوزا وليس عجيباً منهم وقد ظنوا مدفعاً تلك العلبة التى جئت بها وفيها ثلاث بنادق ان يحسبوا آلات التصوير والأجهزة الفنية التى حملتها معى نقوداً ذهبية أو سفاتج من الاوراق المالية . وليس بعيدا ان يكون الرجال الذين أكريت جمالهم قد ظنوا انى مخترق الصحراء بهذه الثروة الطائلة لسبب خاف عنهم ففكروا فى سرقتى

ولست اكتم القارىء انى لم ارتح الى هذا الخبر فان استهلال رحلة بقتال لا يدعو الى التفاؤل أو يشرح النفس مهما اولينا فيـه من فوز وخرجنا منه سالمين ولذلك فضلت اجتناب هذه العقبة عن التعرض لها

وأصبح الصباح فاستغنيت عن أصحاب الجمال الذين انكشف لى سر مؤامرتهم واعتضت عنهم بآخرين يوصلوننى الى واحة سيوة واستبدلت الطريق المستقيمة الى الجغبوب بطريق تضطرنى الى قطع ضلعى المثلث الذى تكوّن مواضع السلوم وسيوة والجغبوب رؤوس زواياه . وقد أطال هذا التغيير مسافة القسم الاول من الرحلة ولـكن الزمن والمسافة هينان فى سبيل سلامة الوصول

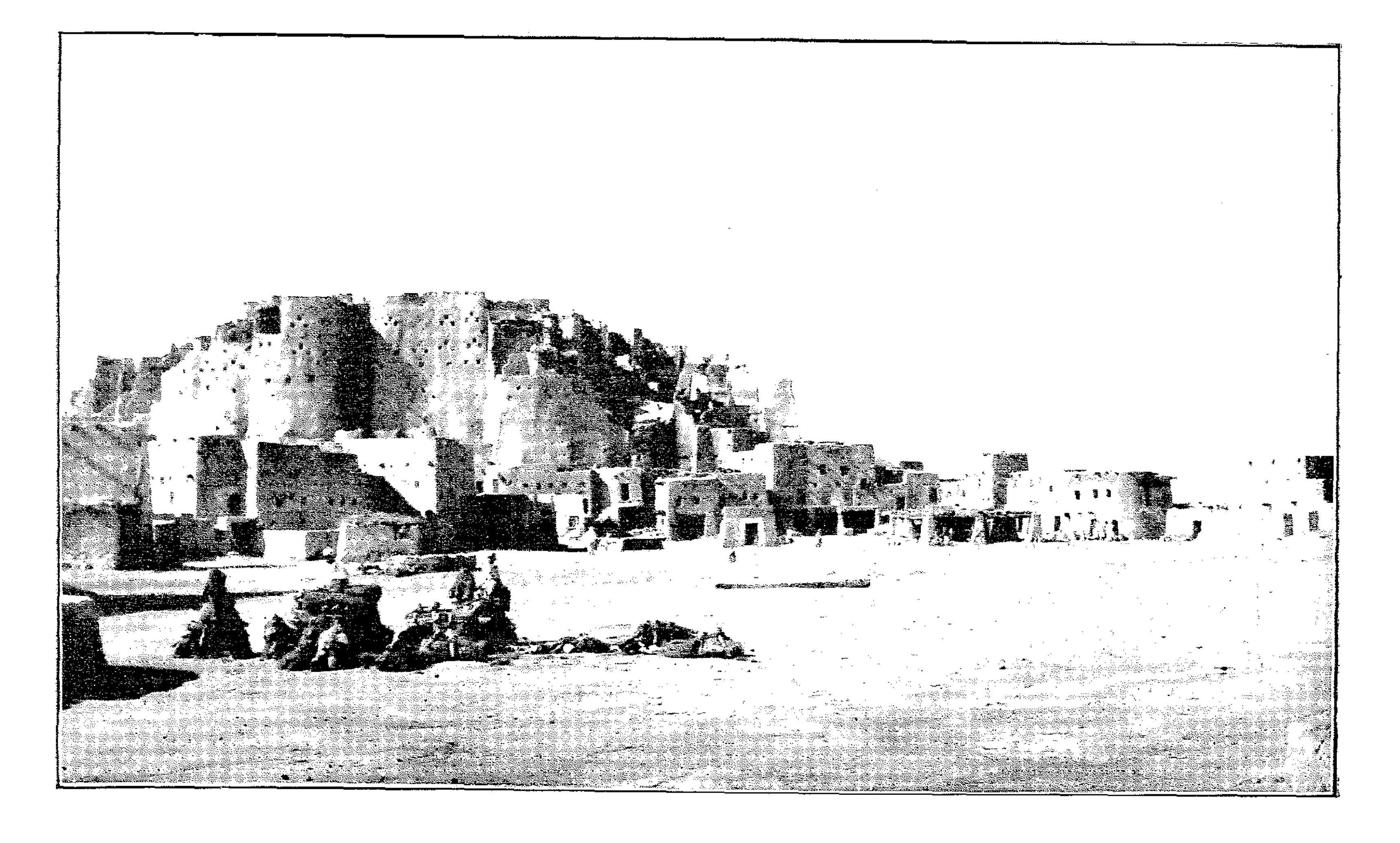
وللسفر بطريق سيوة ميزات كثيرة لان هـذه الطريق

واقعة فى الاملاك المصرية لا فى تلك الاصقاع التى تسكنها القبائل التى ينتمى اليها الجمالون الخونة ولأنها طريق مطروقة لا يجسر قطاع الطرق ان يقدموا على اغتيال المارة فيها بدون التعرض للخطر . وقد حال اسراعنا فى الرحيل بعد تغيير خطة السفر دون تفكير المتآمرين علينا فى إعداد خطة جديدة لنهبنا ان كانوا قد فكروا فى ذلك

وهكذا ظننت السلامة فى هذا التغيير والتبديل ولم أكن مخطئاً فى هذا الظن .

وبدأت القافلة سيرها فى أول يناير وبعد قيامها بثلاثة أيام تفضل الملازم « باتو » فاستصحبنى فى سيارة للحاق بها عند بئر « دجنيش » على بعد نحو ستة وثلاثين ميلا من السلوم . ثم ودعت ذلك الضابط الرقيق وأخذت مكانى بين رجال القافلة وكانت المسافة الى سيوة ستة أيام قضينا وقتاً منها فى إخفاء صناديقنا وعلبنا بين طيات حوائجنا بحيث ظهر مجموعها كأنه أثاث عادى من أثاث البدو

ولم يقع لنا فى بحر هذه الستة الأيام امر ذو بال اللهم الاحادث كان أول ثلاثة بعثت فى نفوسنا الفأل الحسن بنجاح الرحلة وذلك انى رأيت فى عصر اليوم الخامس غزالا يرعى على



سيوه

مقربة من طريقنا فتعقبته يحتثنى الميل الى تذوق اللحم الطرى وما كدت اتقدم له حتى سمعت صراخاً وعويلا خاني قصد بهما رجال القافلة تثبيط همتى فى صيده . ولم أفهم بادىء الامر ما دعاهم الى منعى من صيد ذلك الغزال مع ما أعرفه فى البدوى من حب اللحوم وظننت أنهم خافوا على البعد عنهم وتعطيل سير القافلة فلم أحفل بصراخهم وتقدمت الى الغزال وبعد أن طاردته قليلا أطلقت النار عليه فأصبته فى مقتل

وما كدت ألحق بالقافلة حاملا طريدتى حتى نالتنى الدهشة مرة أخرى فقد تقدم الرجال الىّ يلوحون بايديهم ويرسلون صراخاً يمتزج فيه الفرح بالتهانى ولم ينقص عجبى من وقوفهم دون صيدي الغزال وترحيبهم بى بعد صيده حتى سمعت منهم تفسير ذلك ففهمت ان البدو يعدون أول طلقة من رئيس القافلة على طريدة بعد البدء فى سير القافلة فاصلة فى حظ الرحلة من النجاح أو الخيبة فأن أخطأ الرامى أصاب القافلة مصيبة قبل انتهاء الرحلة وان أصاب بسم الحظ لها وكتب لها النجاح . ولذلك أشفق الاعراب من رؤيتى أقطع فى حظ القافلة بهذه السرعة . ولو كنت أدرى هذه النظرية لأبقيت الطلقة الاولى حتى وصلنا الفاشر بعد ذلك بستة أشهر

واقمنا فى سيوة ثلاثة أيام قضيناها فى تأجير جمال أخرى للمرحلة الى الجغبوب وعمل بعض الترتيبات النهائية

وسيوة آخر مركز يتصل بالعالم المتمدين الذى أخلفه ورائى فعندها تنتهى اعمال البريد والاشارات البرقية ولا يوجد بعد سيوة شىء يباع الا محصولات الصحراء والقليل من الارز والقماش وهذا غالى الثمن ان فرض وجوده

وقد اكرم وفادتى وقام بمساعدتى فى بحر الثلاثة الايام حضرة المأمور أحمد افندى كامل والموظفون والملازم (لولر) قومندان قوة مصلحة أقسام مصلحة الحدود المرابطة هناك

وسيوة اكبر الواحات واجملها تتفجر فيها عيون الماء العذب وتنمو فيها الفاكهة اللذيذة وأخصها أجود أنواع البلح فى العالم . وتقع العين فيها على مناظر بديعة وعادات لاهاليها غريبة ومن هذه العادات ان المرأة إذا فقدت بعلها أمسكت عن الاستحمام أربعين يوماً واحتجبت عن الانظار يقدم لها الطعام من ثغرة فى الباب . فاذا انقضت هذه المدة ذهبت تستحم عند بئر من الآبار فتتنكب كل انسان عن المرور فى طريقها وسماها الناس (غولة) وتجنبوها لأنهم يعتقدون انها تجلب النحس لكل من يقع نظره عليها فى ذلك اليوم

وفى سيوة تتكدس اكوام البلح فى سوقه الخاصة التى يطلق عليها اسم (المسطاح) وهذه الاكوام مقسمة حسب أنواع البلح من جيد ورديء ولا يقوم بحراستها أحد ولكن الايدى الغريبة لا تمتد اليها ولا تخلطها قصد الانتفاع على أن لكل انسان أن يدخل هذه السوق وينال كفايته من أجود أنواع البلح بدون أن يدفع مليما واحدا ولكنه ليس فى حل من أن يحمل معه شيئاً

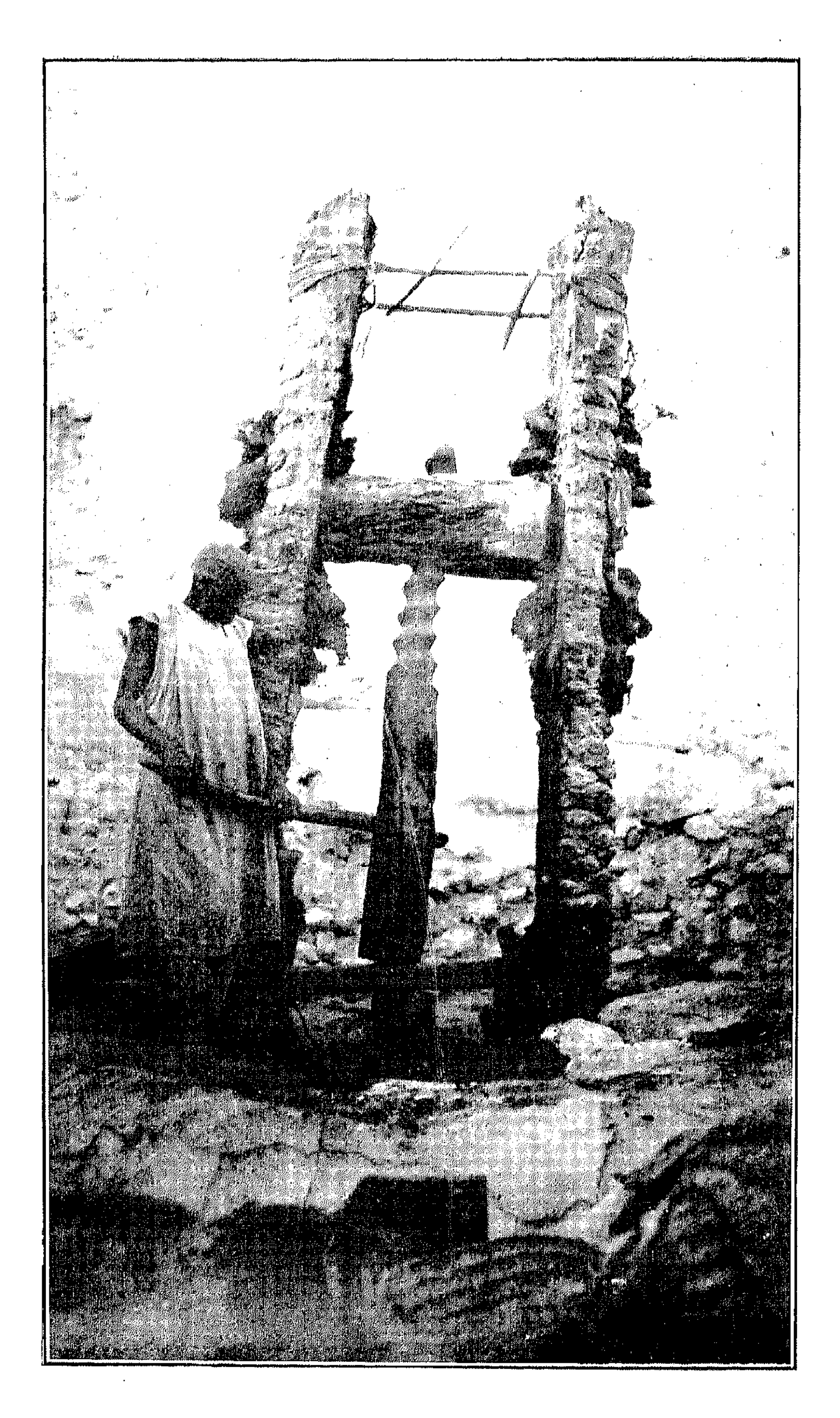
وفى سيوة مقام لأحد الاولياء يودع الناس حوله أشياءهم ليأمنوا عليها فاذا فكر أحد فى السفر أخذ متاعه الثمين وتركه بالقرب من هذا المقام فلا تمتد اليه يد انسان ولا يفكر أحد فى التعدى على الاشياء المودعة عند هذا المقام مهما غلا ثمنها لان الاعتقاد السارى الذى لا يتزعزع هو أن الانسان الذى يمد يده عند هذا المقام الى شيء لا يملكه يبتلى بالنحس وسوء الطالع طول أيام حياته

وعند تأهبي للقيام من سيوة تضاعف عدد رفقائى فقد أضفت من السلوم الى عبد الله واحمد رجلا من قبيلة (المنفَى) اسمه حمد وكان أشد رجال القافلة إقبالا على العمل وأصبرهم

على التعب فلا اذكر أنى رأيتـه مرة متعباً وكان مشغوفا بالجمال خبيراً باحوالها وشئونها فعهدت اليه ببعيرى

وأما رابع الرجال فكان اسماعيل وهو شاب من سيوة يظهر عليه الضعف ولكنه كان آخر من يتعب من السير ويمتطى ناقة وقد عهدت اليه بالجواد الذى حصلت عليه فى «جالو» واختصصته بمرافقتي فى تجوالى للبحث عن بعض عينات من طبقات الارض أو عند الاشتغال ببعض الابحاث الفنية. فان نشأته فى واحة مصرية لها اتصال بحياة المدنية بواسطة البريد والتلغراف لم تخلق فيه تلك الريبة التى اختص بها أهل الصحراء وجعلتهم يؤولون أقل عمل يأتيه الغريب تأويلات غريبة بعيدة عن الحقيقة فان من البدو من كان يظن انى أقتطع الاحجار لانها تحوى ذهباً أو أنى أرتاد تلك الاصقاع لأمهد سبيل غزوها فيما بعد. وقد أحببت اسماعيل لانه لم يكن كذلك ولأنه كان يطيعنى طاعة لا يتسرب اليها سوء الظن بما أفعل

وتركنا سيوة بعـد استبدال جمالنا فى اليـوم الرابع عشر وانقطعت آخر حلقة من حلقات اتصالنا بالعالم الخارجي وما كدنا نقف بعد المرحلة الاولى حتى خلعت ذلك الثوب البالى من الخاكى ولبست ثياب البدو وظنتني رجلا من رجال الصحراء. وكان



عصارة زيتون بسيوه

تأثير هذا التغيير سريعاً فى رجالى فقد تعودت منهم قبل ذلك أن يقربونى مرتبكين حيارى ولكنى ساعة تزييت بزيهم تقدموا الىّ مقبلين علىّ وشدوا على يدى على طريقة البدو وقالوا: الآن صرت منا

ووقعت لنا الحادثة الثانية التى تفاءلنا منها خيرا بعد تركنا سيوة ببضعة أميال فقد وجدنا بلحا فى طريقنا كان قد تناثر من بائع أثناء ذهابه الى السوق . والبلح المنثور فى طريق القافلة فأل حسن بنجاح الرحلة . وقد يحدث أحياناً أن يتعمد أصدقاء البدوى نثر البلح فى طريق قافلة قبل بدئها فى السير حتى يعثر بها فى سبيله . وقد زاد هذا الفأل الأمل فى نجاح الرحلة بعد حادثة الغزال . ولكن الحادثة الاخيرة كانت أبعث الحوادث على حسن التفاؤل . وذلك أنى كنت أرسلت رجلين من رجالى يحملان خطابا الى السيد إدريس فى الجغبوب أعلمه فيه بقرب وصولى فان العادة فى الصحراء ألاّ يفجأ الانسان صديقاً او ذا حيثية بدون سابق إعلان بمجيئه لان هذا الاعلان يمكن كلا منهما من ارتداء الملابس التى يليق فى مثلها لقاء أهل الفضل والوقار

وحدث بعد تركنا سيوة بيومين . وكنت فى مؤخرة القافلة . أن وقف سير الجمال فسألت عن سبب هذا الوقوف غير

العادى فكان الجواب ان رسلا جاءوا يحملون خبر وصول السيد إدريس بعد ساعة . فما كاد رجالي يسمعون هذا الخبر حتى بان فى عيونهم الطرب فان تقدم شيخ السنوسيين نفسه للقائنا فى أول الرحلة يفسّر بفأل حسن . وقال الرسل إنه يرجو البك أن ينصب خيامه حتى يجيء اليه . وهذا يشعر بآداب الصحراء ويدل على السنن والعادات المتبعة فيها . ولم نكد نستقر حتى رأينا طلائع قافلة السيد إدريس التى وصلت بعد قليل ونصبت خيامها على مقربة منا وبعد ذلك بنصف ساعة تقدم السيد إدريس يحف به حشمه الى خيامنا وتقدمت أنا الآخر للقائه فقابلنى مقابلة ودية وجددنا مراسم تلك المعرفة القديمة يظهر فى وجهى أثر السرور ويلوح الابتهاج على محياه ولست اكتم القارئ ان الرحلة الاولى لم تصب ذلك النجاح الا برعاية السيد إدريس لنا وعنايته بنا فما بالك بأثر هذه الرعاية فى رحلتنا هذه وهى أطول من تلك ثلاث مرات وأدعى الي توغلى فى أرض اجهلها كل الجهل

ودعانا لتناول الغداء فى خيمته وكان مكونا من الارز والدجاج المحشو وفطير البدو المسكر يعقبه بعد ذلك أكواب الشاى المعطر بالنعناع وماء الورد وشرحت له خطتى وحدثته بخبر العالم فسره كثيراً علمه بنتيجة معاهدة فرساى وطلب منى بعد ذلك ان أدعو

جميع رجالي الى خيمته ليباركهم فجاءوا ووقفنا جميعانصغى الي تلك الالفاظ تنحدر من بين شفتيه فعادت الى ذاكرتى تلك الساعة التي وقفت فيها أمام أبي فى تلك الغرفة المعطرة بعبق البخور اتلقى مباركته ودعاءه لى بينا يلوح فى خاطرى طيف الصحراء والإبل والحياة البدوية . لقدكان ذلك خيالا تصورته أما الآن فبدت لى الحقيقة ورأيتنى فى لباس البدو أتقدم القافلة واستقبل الطريق المؤدية الى قصدى

وكانت مباركة السيد إدريس لرجالى باعثة فى نفوسهم على الأمل العظيم بنجاح الرحلة وسلامتها من كل خطر . وحل وقت العصر فودع كل منا الآخر ورفعت الخيام وسارت القافلتان فانحدرت قافلة السيد إدريس شرقاً إلى مصر وتقدمنا غربا إلى الجغبوب وما وراءها من صحراء مترامية الاطراف وأراد رجالى أن يستزيدوا من بركة السيد إدريس فصمموا على أن يتبعوا فى سيرهم الطريق الذى سلكته قافلة شيخ السنوسيين وهى قادمة الينا .

الفصل الخامس

السنوسيون

لا يكمل سرد قصة عن صحراء ليبيا بدون ذكر السنوسيين الذين هم أهم عامل من عوامل النفوذ فى تلك الأصقاع وهذا الموضوع كبير أحق به أن يفصّل فى كتاب خاص ولكنى أقدم للقارىء فى هذا الفصل القصير أهم نقط تاريخ السنوسيين

لا يكوّن السنوسيون شعباً أو مملكة أو وحدة سياسية وإن كان فيهم من هذه الأشياء خواص كثيرة على أنهم من البدو الذين يسكن معظمهم صحراء ليبيا ويبسطون نفوذهم على مساحة عظيمة من تلك النواحى وتسلم حكومات النواحى بأنهم قوة حقيقية فى شؤون أفريقيا الشمالية الشرقية . وهم مسلمون . وأحسن وصف لهم أنهم رابطة دينية زعامتها وراثية ونفوذها قوى فى إدارة شؤون سكان صحراء ليبيا

ويمكن تقسيم تاريخ هذه الطائفة الى أربعة عصور اكتسبت الطائفة صبغتها فى كل عصر منها من شخصية الزعيم . والزعماء

الأربعة هم على التوالى السيد ابن على السنوسى مؤسس الطائفة والسيد المهدى ولده والسيد احمد ابن أخ المهدى والسيد إدريس ابن المهدى زعيم الطائفة الحالى .

ولد السيد محمد بن على السنوسى المعروف بالسنوسى الكبير فى الجزائر سنة ١٢٠٢ هجرية وهو من نسل الرسول عليه السلام توافر على دراسة العلوم فى جامعة القيروان وفى فاس وفى مكة حيث أخذ العلم عن الفقيه الشهير سيدى احمد ابن ادريس الفاسى وقد مالت نفسه الى التقشف وتمكن من نفسه اليقين بأن الدين الاسلامي مفتقر للرجوع الى تلك الصورة الخالصة التى وضعتها تعاليم النبي عليه السلام

وقد اضطر أن يترك مكة فى السنة الأولى بعد الخمسين من عمره مدفوعاً بمعارضة المتقدمين فى السن من المتفقهين الذين خالفوه فى بعض آرائه الدينية فعاد عن طريق مصر الى برقة وأخذ يؤسس المعاهد لبث تعاليمه بين أهل البادية وسنتناول فى شرح هذه التعاليم ذكر ثلاثة أشياء لا مندوحة عن تفسيرها وهى الزاوية والاخوان والوكيل

أما الزاوية فبناء مكوّن غالباً من ثلاث غرف ويتوقف حجمها على أهمية المكان الذى تقام فيه واحدى هذه الغرف

خاصة بأعطاء الدروس التى يتلقاها صغار البدو عن الاخوان والثانية مضيفة ينزل فيها المسافرون لتمضية ثلاثة الأيام التى يقضى بها كرم البدو والغرفة الثالثة لسكنى الاخوان وتقام الزاوية عادة بالقرب من بئر يقف عندها المسافرون ويجاور الزاوية فى أغلب الأحيان قطعة من الأرض يزرعها الاخوان

والاخوان هم الأعضاء العاملون فى هذه الطائفة وهم الذين ينشرون تعاليمها وأغراضها والاخوان لفظ يطلق على المفرد والجمع (فى اصطلاحهم) وأما الوكيل فهو ممثل شيخ السنوسيين والقائم عنه بالامر

رأى مؤسس هذه الطائفة مسلمى برقة سادرين فى غيابات الضلال معرضين لخطر الاضمحلال السريع من الوجهتين الدينية والخلقية فأراد أن ينتشلهم من وهدة السقوط وإنا لنسوق بعض الأمثال لتلك الأعراض التى غيرت من معالم الدين الحنيف

أسس بعض أصحاب النفوذ من شيوخ البدو فى الجبل الاخضر شمال برقة ضربا من الكعبة قصدوا به تقليد البيت الحرام الذى قضى الاسلام بحجه على كل من استطاع اليه سبيلا وقد أراد مؤسسو هذه الكعبة الزائفة أن يدخلوا فى أذهان البدو ان زيارتها تقوم مقام حج بيت الله الحرام

مسطاح البلح بسيوه

وأراد أولئك الشيوخ أن يتخلصوا من صوم رمضان والانقطاع فيه الى العبادة فابتدعوا لذلك بدعة هى أن يذهبوا قبل حلول رمضان بايام الى واد اسمه وادى زازا وهو معروف بقوة رجع الصدى الذى تردده جوانبه ثم يصرخون جميعاً سائلين: «أى وادى زازا أنصوم رمضان أم لا ؟» فيجيب الصدى بالكلمة الأخيرة من هذه الجملة وهى « لا لا » ويتصور من سأل ذلك الوادى أنهم أصبحوا فى حل من الإفطار فيفطرون غير مقيدين بأوامر الدين الحنيف قانعين بأن الامر صدر اليهم بعدم الصوم

ومما يذكر أنه فى بداية تعاليمه أقيمت الصلاة فدخل المسجد إعرابى اسمه « مجرم » ووقف فى الصف الأول يصلى لأول مرة فقرأ الامام آية « ألم نهلك الأولين » فتأخر الى الصف الثانى فقرأ الامام « ثم نتبعهم الآخرين » فتأخر مجرم الى الصف الأخير فقرأ الامام « كذلك نفعل بالمجرمين » فخرج مجرم من بين المصلين يعدو مهرولا الى داره . فسألته امرأته وقد رأته مضطربا ما خطبه « فقال « ها دوّة الصلا دوّة وعرة . هلك الاولين توخّرت . هلك الآخرين توخّرت نادى بالاسم ياعجرمين عدّيت »

وكان فى بدو تلك النواحي بقية من العادات البربرية القديمة فكانوا يقتلون البنات خشية ما قد يجلبنه عليهم من العار وهذه العادة المرذولة تحول بين هؤلاء القوم وبين التقدم الى مصاف ناشرى الدعوة للاسلام .

رأى مؤسس الطائفة السنوسية كل ذلك فحاول فى تعاليمه وارشاداته أن يعود بالاسلام الى قواعده فى ذلك العهد الطاهر . وأسس السيد ابن على أول زاوية فى أرض أفريقية فى واحة سيوة وتقدم من تلك الناحية غربا الى برقة فأسس الزوايا فى (جالو) و (اوجله) وتوغل غربا فى طرابلس وتونس ينشر تعاليمه بين البدو . وكان قد تقدمته الى تلك النواحى شهرته الدينية والعامية فطلب وفادته شيوخ البدو وتنازعوا فى سبيل اكرامه . وعاد الى برقة سنة ١٢٥٨ هجرية فأسس زاوية كبيرة فى الجبل الاخضر بالقرب من درنة ودعاها الزاوية البيضاء . ولم يكن له حتى هذا العهد مركز ثابت لانه كان كثير التجوال ينشر تعاليمه فى كل مكان. فأقام فى الزاوية البيضاء واستقبل الزوار من رؤساء قبائل برقة.

وكانت أهم تعاليم شيخ السنوسيين الدعوة الى الدين الاسلامى الحق والتمسك الشديد بأوامر الله سبحانه وتعالى ونبيه الكريم وليس أدل على تعاليمه من ذكر فقرة من كتابه الى أهل (واجنجه)

فى(واداى) وقد رأيت أصله فى الكفرة وفيه يقول :

« أسألكم باسم الاسلام أن تطيعوا الله ورسوله فقد قال سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز « يأيها الذين آمنو أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ويقول « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ويقول « ومن يُطِع اللهَ والرسولَ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسُن أولئك رفيقا »

« أسألكم أن تطيعوا أوامر الله ورسوله فتؤدوا الصلوات الخمس وتصوموا رمضان وتؤاتوا الزكاة وتؤدوا فريضة الحج الى بيت الله الحرام وتجتنبوا ما نهى الله عنه من قول الكذب والغيبة وابتزاز أموال الناس وشرب الخمر وتأدية شهادة الزور وغير ذلك مما أمرنا الله باجتنابه فاذا فعلتم ما أمر الله به ورجعتم عما نهى عنه أسبل عليكم نعمته الأبدية ومنحكم الخير والرزق الدائمين »

وكان أهم ما عنى به مؤسس الطائفة السنوسية الدعوة الى الحياة الدينية الطاهرة فلم يعمل لأن يكون زعيما سياسياً أو صاحب قوة زمنية وكان فى كل أعماله مثالا صالحا للتقوى التى دعا الناس الى التحلى بها . ولم تكن له تعاليم خاصة فى الفقه أو آراء شخصية

فى تفسير قواعد الدين . وكان اكبر همه اتباع رجاله لقواعد الاسلام لا الاكثار من رسوم العقائد ، والشيء الوحيد الذى أضافه الى العبادات الدينية دعاء وضعه وردده السنوسيون بعد ذلك وهو « حزب » على نحو الأحزاب المعروفة بين طوائف الطرق الصوفية وليس فيه ما يناقض تعاليم أئمة الفقه السابقين أو يزيد عما نزل به القرآن وانما هو تعبير موافق لما جاء فى محكم التنزيل .

وقد جاء فى كتابه الى أهل واجنجه الذى سبقت الاشارة اليه فقرة أخرى تبين الفكرة التى أقام عليها دعوته فى سبيل رضاء الله وخدمة الدين وهى :

« تنبيه الغافل . وتعليم الجاهل . وهدى من ضل سواء السبيل »

وقد نهى عن حياة الترف كل من انضم الى طائفته فمنع حيازة الذهب والجواهر الا فى حلى النساء . وحرم تدخين التبغ وشرب القهوة . ولم يأمر بطقوس أو فروض جديدة وانما طلب الى الناس أن يتبعوا قواعد الدين فى أبسط مظاهره كما أنزل الله على رسوله الكريم . وكان فى بدء دعايته لا يجيز اتصال رجاله بالأجانب كي لا يفسدوا عليهم عقائدهم الى أن تتأصل تعاليمه فى

نفوسهم بل كان لا يجيز اتصالهم بأهل البلاد الاسلامية التى يعتقد أنها حادت عن جادّة الدين الحنيف

وفى سنة ١٢٧٠ هجرية أسس السيد ابن على فى الجغبوب الزاوية التى أصبحت بعد ذلك مركز العلوم والعرفان للطائفة السنوسية . ولم يكن اختياره الجغبوب اعتباطا أو اتفاقا وانما نظر فى اختياره هذا بعين الحكمة والروية فقد قصد بانتخابها أن تكون مركزاً للتوفيق بين قبائل الصحراء المختلفة ونشر راية السلام بينهم جميعا وقد جاء فى خطابه المتقدم الى أهل واجنجه وهم من السود « يأهل واجنجه انا نريد أن ننشر السلام بينكم وبين الاعراب الذين يغيرون على بلادكم ويستعبدون أولادكم ويبتزون أموالكم واننا بعملنا هذا نقوم بما أمر الله به فى كتابه العزيز حيث قال سبحانه وتعالى « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما »

ويقول عز وجل: « فاتقوا الله وأصلحوا ذاتَ بينِكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين »

وكانت جغبوب مركزا أحسن اختياره وصالحا لأغراضه فهى وسط قبائل فى الشرق والغرب كان النزاع بينها مستمرا

ومن ثمّ امكن السنوسى الكبير أن يبسط نفوذه على المتنازعين وأن يصلح ذات بينهم كما أمر بذلك الرسول

وليست جغبوب من الوجهة العملية ناحية تصلح أن تكون مركزا علميا أو دينيا كما فكر السنوسى الكبير لانها ليست فى خصب الواحات ان صح أن تسمى واحة فإن النخيل فيها قليل والماء غير عذب والتربة مستعصية على الزراعة . ولكن مركزها السياسى لا نزاع فى صلاحه ولذلك اتخذها مقرا له بدون تردد وقد انقطعت فعلا بعد إقامته هناك تلك الإغارات التى كانت مستمرة بين قبائل الشرق والغرب وكان له الفضل فى إيقافها ولم يقتصر نفوذه على تلك النواحى بل تعداها الى قبائل برقة فقضى على ما كان بينها من عداء قائم من قديم الزمان

وعاش السيد ابن على ست سنين بعد أن اتخذ جغبوب مقامه . ومدّ نفوذه شرقا وغربا حتى دعته الى الكفرة قبيلة (زوىّ) ـ التى اشتهر رجالها بقطاع طريق برقة وكانوا معروفين بين العرب بأنهم لا يخافون الله ولا يخشون الناس — وهى مركزهم المهم وسألته أن يؤسس زاوية له هناك وقد رضوا أن يقفوا الإغارات والنهب ومهاجمة القبائل الأخرى وعرضوا عليه ثلث أملاكهم فى الكفرة اذا رضى بأن يوفد اليهم أحد



بنت فى سيوه

إخوانه ينشىء بينهم زاوية ينشر فيها تعاليمه ويعلم أبناءهم . ولم يتمكن السيد من الذهاب بنفسه فأرسل أحد مشاهير الاخوان وهو سيدى عمر أبو حواء فأسس زاوية فى (جوف) بالكفرة

وبدأ ينشر تعاليم السنوسى الكبير بين أهالى قبيلة (زوىّ) . وأرسل السنوسى إخوانا آخرين الى جهات أخرى من صحراء ليبيا ولم يمت حتى أصبح جميع البدو والمقيمين على حدود مصر الغربية وفى جميع نواحى برقة وطرابلس تلاميذه وأتباعه

وقد مات سنة ١٢٧٦ هجرية فى الرابعة والسبعين من عمره ودفن فى القبر الذى تظله القبة الشهيرة بالجغبوب

وخلف السنوسى الكبير ولده سيدى محمد المهدى وكان فى السادسة عشرة من عمره عند موت أبيه . وقد قوّى مركزه بين السنوسيين على الرغم من حداثة سنه عاملان مهمان أولهما أنه كان فى مجلس أبيه وأراد الانصراف فقام أبوه وأصلح وضع حذاء المهدى بنفسه وكان قد خلعه قبل أن يدخل على أبيه ـ وفى ذلك مافيه من المهابة والتواضع ـ ثم التفت بعد ذلك الى جلسائه وقال « اشهدوا أيها الحضور ان ابن علىّ أصلح بنفسه وضع حذاء ولده المهدى » . وقد فهم الناس ساعتئذ أنه أراد بذلك أن يشعرهم بأن الولد لن يخلف أباه فقط بل يقوم بعده أيضا فى صلاحه وتقواه

أما العامل الآخر فهو انه جاء فى بعض الأنباء القديمة أن المهدى المنتظر الذى يرفع لواء الاسلام فى نهاية العالم يصل سن البلوغ فى غرة محرم سنة ١٣٠٠ هجرية وأن يكون من أب اسمه محمد وأم اسمها فاطمة وقد جمع المهدى فى نفسه كل الصفات التى قيل إنها وردت فى أحد كتبهم ولذلك تم اختياره خلفا لكبير السنوسيين

وانتشرت زوايا السنوسيين حتى صارت عند بلوغ السيد المهدى ثمانيا وثلاثين زاوية فى برقة وثمانى عشرة فى طرابلس وتناثرت غيرها فى بقاع أفريقية الشمالية ولم تخل مصر من نحو عشرين زاوية. وقد قدر المحصون أن عدد من انضم لطائفة السنوسيين وأقر بالزعامة الدينية للمهدى عند ما خلف أباه كان يتراوح بين مليون ونصف مليون وثلاثة ملايين

والمهدى أشهر أفراد أسرة السنوسى فقد رأى من أول الأمر ان نفوذ الطائفة يجد فى جهات الكفرة والبلاد الجنوبية مجالا أوسع مما يجده فى الشمال فنقل مركز إقامته سنة ١٣١٢ هجرية من الجغبوب الى الكفرة وقبل أن يترك مقره القديم أطلق جميع عبيده من الرق ولا يزال بعض هؤلاء العبيد وأولادهم مقيمين فى الجغبوب

وكان انتقاله الى الكفرة فاتحة عصر جديد فى تاريخ السنوسيين فقد تقدمت التجارة فى عهده بين السودان وشاطىء البحر الابيض المتوسط عن طريق الكفرة حتى صارت الطريق الوعرة الخالية من الماء بين بئر (بو الطفل) بالقرب من (جالو) وبين بئر (الظيغن) فى شمال الكفرة طريقاً تختلف اليها القوافل التجارية ويرتادها المسافرون لزيارة الكفرة مركز طائفة السنوسيين . وبلغت الحركة فى تلك الطريق حدا قال لى بدوى عنه أنه كان فى وسع الانسان أن يسير نصف يوم من أول القافلة الى آخرها . وكانت الطريق من الكفرة الى (واداى) وعرة خطرة فى تلك الايام لحفر المهدى بئرى (بشرى) و (ساره) فى الطريق الموصلة من الكفرة الى (تكرو)

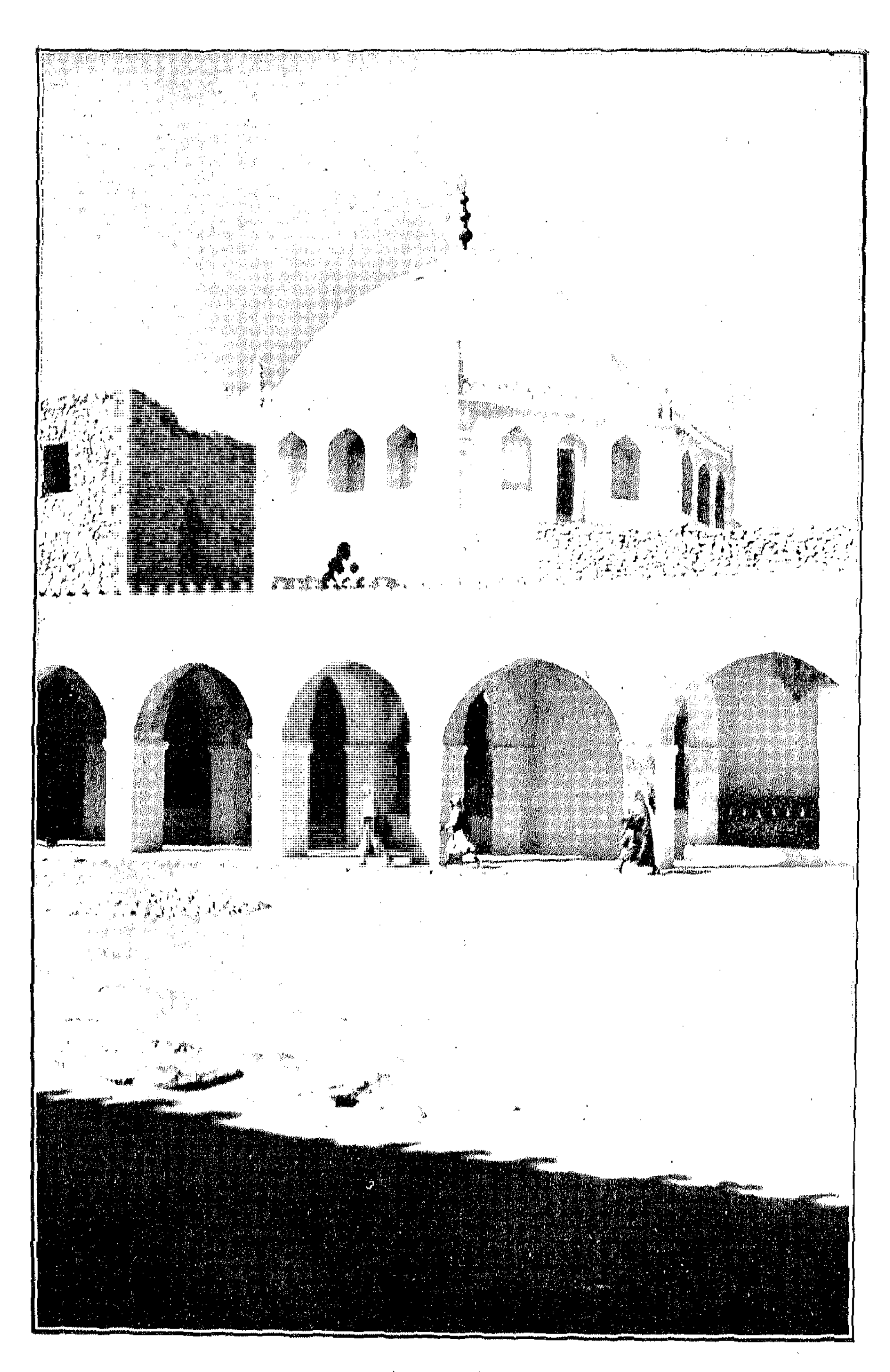
وكانت واحات الكفرة فى أيام قبيلة (زوىّ) البدوية التى انتزعتها من قبيلة (التبو) السود مركزا مهما للسطو والاغتيال فى صحراء ليبيا . وكان أفراد هذه القبيلة المتمردة ميالين للقتال لا يخضعون لقوة أو قانون ولا يرحمون من يخترق أراضيهم فلم تخل قافلة تمر بالكفرة من النهب والسلب أو الاضطرار لدفع جزية . وجاء المهدى فجعلهم ينزلون عن طلب تلك الجزية لأنه أراد

أن يؤمن الطريق الممتدة فى صحراء ليبيا من الشمال الى الجنوب وأن ينمى تجارة تلك الأصقاع وعمل على ذلك حتى قال لى أبو مطارى ـ وهو من شيوخ قبيلة « زوى » فى الكفرة ـ أنه صار فى وسع المرأة أن تسير من برقة الى واداى بدون أن يتعرض لها أحد

وبسط المهدى نفوذ السنوسيين فى جهات كثيرة وأرسل الإخوان يؤسسون الزوايا فى البلاد الواقعة بين مراكش وفارس ولكن أعظم أعماله كانت فى الصحراء بين البدو والقبائل السود القاطنة جنوب الكفرة فقد جعل من السنوسيين قوة روحية فى تلك الأصقاع وعاملا قويا على بث السلام والإخاء بين القبائل بل جعل منهم فوق هذا هيئة تجارية كبرى بفضلهم نمت التجارة وأزهرت وأراد أن يبسط نفوذ الطائفة بنفسه فى أواخر أيامه فانحدر الى الجنوب حتى وصل (جرو) جنوب الكفرة وهناك وافاه القدر المحتوم فجأة سنة ١٩٠٠ ميلادية

مات المهدى ولم يترك بين أولاده بالغا نخلفه فى زعامة السنوسيين ابن أخيه السيد أحمد وصيًّا على السيد إدريس اكبر أبناء المهدى وخليفته الشرعى .

وخرج شيخ السنوسيين الجديد عن مناهج أسلافه فأراد



قبة الجامع بالجغبوب

أن يجمع بين القوتين الزمنية والدينية فانه حين أخذ الايطاليون برقة وطرابلس من الاتراك حاول السيد أحمد أن يضيف الى قوته الروحانية ما تركه الأتراك من القوتين الزمنية والحربية . وقامت الحرب العظمى فأراد أن يهاجم تخوم مصر الغربية تحت تأثير البعثات التركية والألمانية وفشلت مساعيه حتى اضطر الى السفر الى تركيا فى غواصة ألمانية

وهكذا خالف ثالث الزعماء السنوسيين سياسة السنوسى الكبير وابنه المهدى فانهما رأيا ان الزعيم الدينى لا يمكن منازعته فى زعامته أو القضاء على مكانته . أما إذا خرج يتطلب السلطة الزمنية فان بضع هزائم حربية تكفى للقضاء على سلطانه وتدمير شهرته

وقد كانت قوة السيد ابن على والسيد المهدى راجعة الى صفتهما الشخصية وما يشع من تأثيرهما الروحانى فخالفهما السيد أحمد فى ذلك باعتماده على الأسلحة والذخائر والظروف حتى اذا خانته كلها لم يبق فى يده من الأمر شئ . غير أنه مشهور بصلاحه وتقواه وله مكانة عظيمة عند البدو لشدة تمسكه بأمور الدين الحنيف ولما بذله من المساعى فى محاربة الطليان واجتهاده فى تخليص بلاده من ربقة الاحتلال

ولما خرجت الزعامة من يد السيد احمد عادت الى الوارث الشرعى السيد إدريس الذى يستمد بانحداره من صلب السيد المهدى قوة عظيمة ونفوذا كبيرا وهو على تمتعه بهذه الميزة أهل لتمكين نفوذ السنوسيين وإنجاح أغراضهم تحت زعامته بما يتحلى به من الصفات الشريفة من لين فى الاخلاق الى شدة فى الحق ولذلك لا يقر له بالطاعة والولاء الإخوان السنوسيون فقط بل أهالى صحراء ليبيا أيضا

وفى سنة ١٩١٧ حصل اتفاق بين السيد إدريس وبين الحكومة الايطالية أقرت فيه ايطاليا للسيد بحقه فى إدارة شؤون واحات (جالو) و (اوجله) و (جدابيا) و (الكفرة) وقد تجددت المصادقة على هذا الاتفاق بعد ذلك بسنتين فى (رجمه) وحدث لسوء الحظ سنة ١٩٢٣ إن وقع خلاف بين الطرفين المتعاقدين فوقف سير الاتفاق . وانى لأرجو أن يتجدد الاتفاق بين السيد إدريس والحكومة الايطالية فيعود الى تلك الواحات ما كان لها من أمن ورفاهية

ولا نزاع فى أن للنفوذ السنوسى فى حياة سكان تلك النواحى أثرا طيباً فالاخوان السنوسيون لا ينشرون العلم ويقيمون قواعد الدين ويبثون دعوته فقط بل يقضون ويوفقون

أيضاً بين الرجال والقبائل . وليس أدل على روح التوفيق والرغبة في نشر لواء السلام من خطاب السنوسي الكبير الى أهل (واجنجه) الذي ألقى تلك المهمة على عاتق السنوسيين الإخوان ولم يخرج ولده المهدي عن هذا الميل في التوفيق ان لم يكن زاده وقوّاه .

ومهما كان ما قلناه فاننا لم نغال فيما ذكرناه عن أهمية مظاهر الحكم السنوسي في حفظ الأمن وصيانة السلام والسعي لما فيه خير أهل صحراء ليبيا

الفصل السادس

جغبوب الهادئة

فى عصر اليوم التالى لمقابلة السيد إدريس رأينا قبة مسجد الجغبوب البيضاء تنيف على المدينة فاتبعنا عوائد البدو وحططنا رحالنا على مسافة من المدينة وأرسلنا رسولا يحمل خبر وصولنا فعاد بعد ساعتين يخبرنا باستعداد القوم للقائنا . وتقدمت القافلة الى المدينة حتى اذا صارت على مقربة من أسوارها أرسلنا طلقات النار فى الهواء وقابلنا بباب المدينة سيدى حسين الوكيل وهو ممثل السيد ادريس فى تلك المدينة ويرافقه جمع من الإخوان المدرسين فى جامع الجغبوب . واصطف الطلبة على جانبى الطريق ورحبوا بنا مهللين ونحن نخترق صفوفهم فكان لهذا الترحيب صدى سرور يتردد فى قلوبنا

دخلت الجغبوب وكأنى عائد الى وطنى فقد كانت فى رحلتى الأولى منذ سنتين قريبة من غايتى غير أنها الآن النقطة التى تبدأ منها رحلتى الثانية أو فى الواقع نقطة من عدة نقط لكنها على أى حال بداية الرحلة الطويلة النائية التى تنتظرنا

وأحسست عند دخولها برد فصل يعترى كل من انتهى من سفر طويل وكان شعورى خليطا من التشوّف والتأثر لأن الانتهاء من رحلة واستئناف السفر الى أخرى ظرفان متباينان يهيج كل منهما فى النفس عواطف متباينة

وقد كنت قلقاً أود الإسراع فى الرحيل ولكن عدم وجود الجمال اضطرنى الى الاقامة فى الجغبوب نحو خمسة أسابيع . وكنت قد أرسلت قبل قيامى من السلوم رجلا اسمه السيد على السعيطى وكلفته أن يسبقنى الى الجغبوب بالطريق المستقيمة ليؤجر جمالا ويعدّها حتى ألحق به عن طريق سيوه ولكنى لم أجده وسمعت أنه انحدر الى الغرب الى جدابيا غير موفق لأن الأعراب الذين لقيهم بعد سفره من السلوم لم يرضوا أن ينزلوا له عن دوابّهم التى كنت فى حاجة اليها . ولم يوفق علىّ الى إيجاد الجمال فى جدابية كذلك. ولم تصلنى أخباره لمدة أسبوعين. وبعد ذلك عرفت السبب فى عدم توفقه وهو أن الطريق من الجغبوب الى جالو وقف على رجال قبيلتى زوىّ والمجابرة لا يجرؤ على اجتيازها غيرهم من رجال القبائل الاخرى الا باذن منهم .

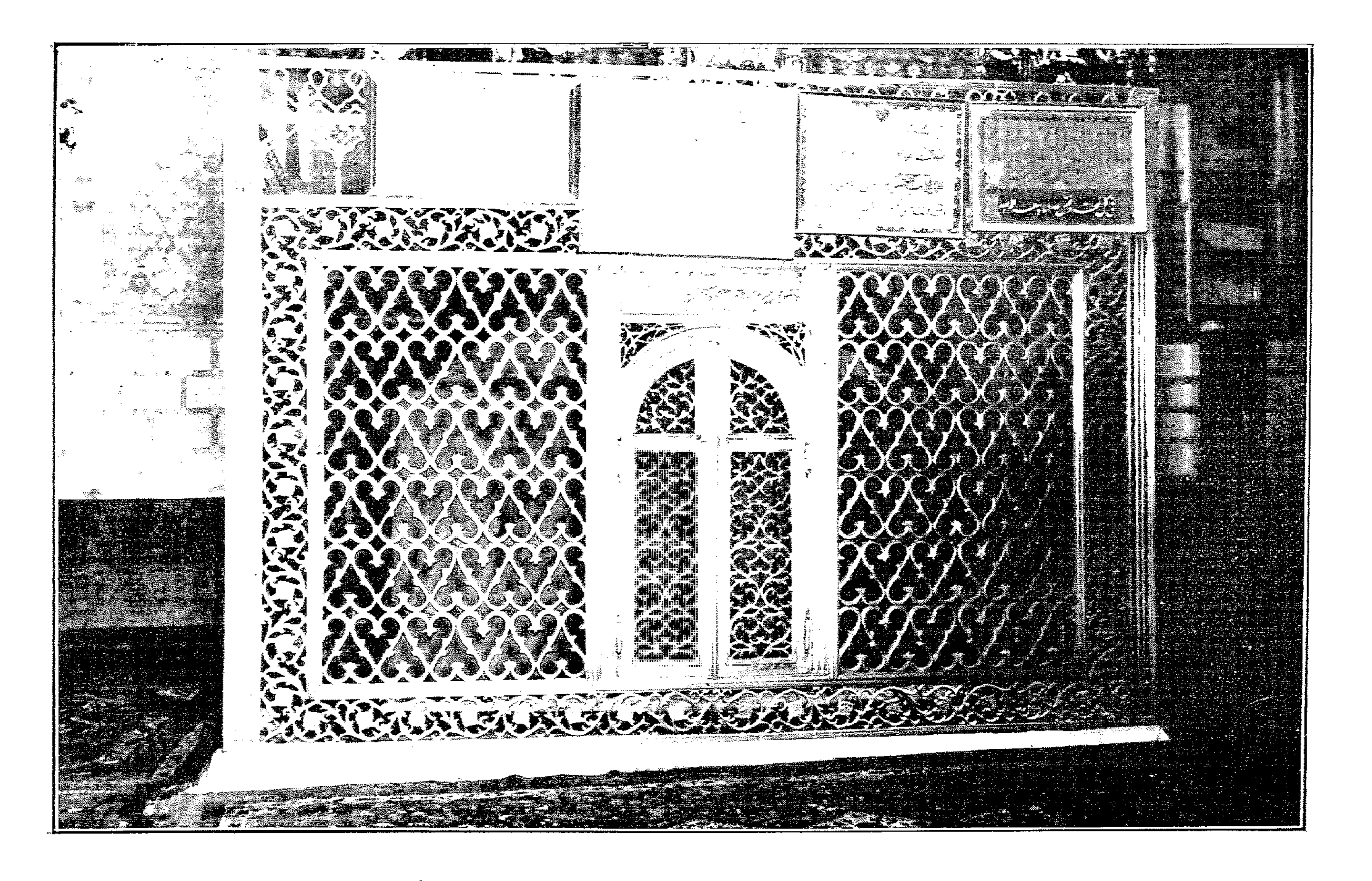
وأنسانى جمال الجغبوب وهدوؤها شوقى الى استئناف السفر فانها بلد عامر بالعلم والدين وان لم تكن مركزا للتجارة أو الزراعة

إذ الصالح للزراعة فيها بقاع متناثرة من الأرض تخرج القليل من الخضر والبلح ويستغلها العبيد الذين أطلقهم السيد المهدى عند انتقاله الى الكفرة

ومركز حياة الجغبوب مسجدها الكبير الذى يسع زهاء السمائة نسمة. ومدرستها وهى مركز التعليم الدينى لطائفة السنوسيين ويحيط بالمسجد بعض منازل يسكنها أفراد الأسرة السنوسية والإخوان . ويتناثر داخل أسوار المدينة وخارجها قليل من المنازل الخاصة ويسكن زهاء الثلثمائة طالب فى منازل صغيرة بالقرب من المسجد

وقد وصلت الجغبوب الى أوج شهرتها فى عهد السيد بن على السنوسى الكبير حين اتخذها قصبة لطائفته . ووليه ابنه المهدى فظلت حافظة شهرتها مدة اثنتى عشرة سنة حتى انتقل الى الكفرة فأصبحت هذه مركز أعمال السنوسيين .

ورجعت الجغبوب الى عهدها الزاهر أيام السيد أحمد الشريف الذى كان وصياً على السيد ادريس قبل بلوغه . وكانت أهميتها تزيد وتقل تبعاً لترك السنوسيين لها أو رجوعهم اليها فان فرض أن جعلها السيد ادريس عاصمة السنوسيين أصبحت مدارسها ومنازلها فى بحر شهرين عامرة باعضاء الطائفة والطلاب يقصدها الاتقياء من كل صوب لزيارة ضريح السنوسى الكبير ولكنى



قبر السيد ابن على السنوسى مؤسس الطريقة السنوسية في الجغبوب

عند زيارتى لها لم أجد بها الا ثمانين طالبا بدويا تتراوح سنهم بين الثامنة والخامسة عشرة يأخذون العلم عن الاخوان . وانما قل عدد الطلاب لقلة عدد المدرسين فان السيد ادريس الذى تفضل بمقابلتنا فى طريقه الى مصر كان يقيم فى ذلك الوقت ببلدة جدابيا الواقعة على مسافة بعيدة من غرب الجغبوب

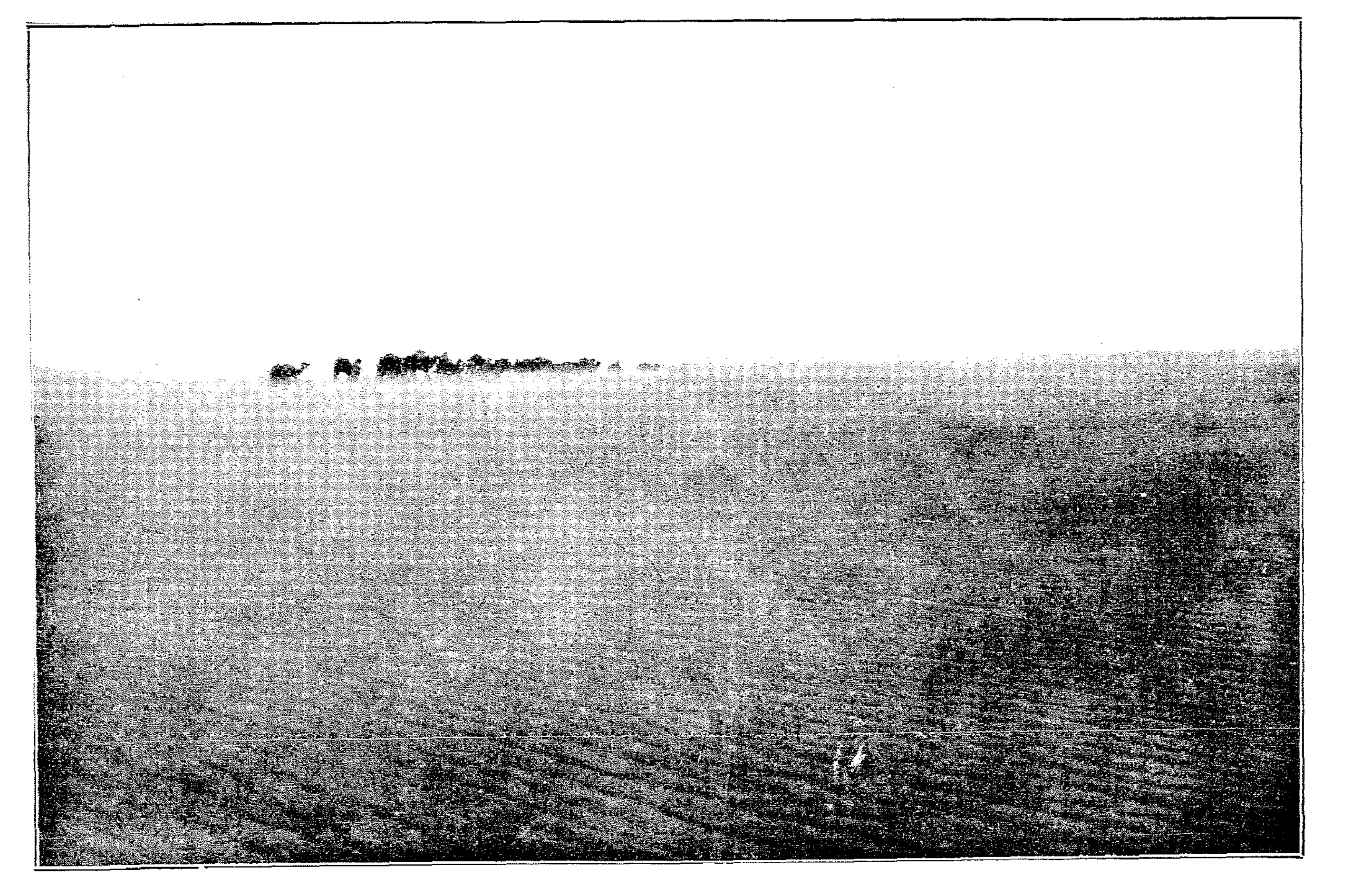
ومسجد « الجغبوب » به غرفة داخلية تحوى مقصورة من النحاس فيها ضريح ذلك الرجل الكبير الذى طلب لقومه مظهر الاسلام الطاهر المتين فى بساطته والذى لا تشوبه شائبة من الحياة المادية. ويزور هذا الضريح كل من قدر على السفر ممن اتصل بالطائفة وأراد أن يجدد المواثيق على اتباعه تعاليم السيد السنوسى الكبير . وانما يقصد الطلاب الجغبوب لامرين فاما أن يتهيأوا ليصبحوا اخوانا للطائفة أو ليعودوا الى ديارهم فى الواحات المختلفة وقد تزودوا من العلم ما يجعلهم يهيمنون هيمنة دينية على رجال قبائلهم .

ولم يكن يشغلنى شاغل فى هذه المدينة الهادئة الا اهتمامى باستحضار الإبل التى توصلنى الى جالو الواقعة على مسافة ٣٥٠ كيلو متر تقريباً الى الغرب . وفيما عدا هذا قضيت أيامى فى الجغبوب فى التبصر والتأمل واعداد ما يلزم للرحلة .

وللصحراء فى العقل والروح تأثير يغاير تأثير حياة المدن الصاخبة فانى أيام جست خلال هذه المدينة الصغيرة أو خرجت الى الواحة التى تحيط بها أو وقفت تحت ظلال المسجد الندية أو جلست فى برجه أساجل علماء البدو مختلف الحديث وأرى الليل يمد رواقه على القبة البيضاء وما تشرف عليه من تلك الأبنية المتلاصقة خلصت من توافه المشاغل التى تبعثها حياة المدن المزدحمة بسكانها المتناحرين على الحياة

ومرت بى الايام تباعا فقضيتها بين تنزه فى الصباح وأداء صلاة الظهر فى المسجد ثم تناول الطعام فى هدوء حتى اذا انتهيت منه قضيت وقتا فى تعهد معداتى العلمية وآلات التصوير ثم صليت العصر واسترحتُ قليلا . وتناولت العشاء وجلست الى رجالى أوزع عليهم أكواب الشاى على طريقة البدو . وبعد أن أصلي العشاءين أخلص الى النجوم فاناجيها وأطلق خيالى فى سماء الليل الساكن ثم أنقلب الى فراشى فأهنأ بنوم لا يذوقه ساكن المدن

وقد راقنى من بين الاخوان الذين رأيتهم فى الجغبوب رجلا استرعى لبى لعدم اختلاطه بى أو محادثته اياى وقد حاولت أن أعلم سر ذلك من بقية الاخوان فلم أفلح حتى علمت أخيرا قصة هذا الرجل بطريق الصدفة



القافلة في زوبعة بين الجغبوب وجالو

كان سيدى...... شيخاً ذا وجه صبيح يظهر فيه الكبر وتلوح دلائل احتقار الحياة فى شفته المتقلصة وان لم تنصفه الدنيا فى أيامه الأخيرة . وكنت فى زيارتى الأولى للجغبوب قد أقمت فى داره الخالية وحاولت أن أطيل معه الحديث فلم تتح لى الفرصة المناسبة ولما هبطت الجغبوب هذه المرة جاءنى يرحب بى ليلة وصولى فأحسست فى ضمير ذلك الشيخ مأساة يخفيها عن الناس . وهو رجل من قبيلة البراعصة من خيار رجال البدو أهل الشمم ولكنه كان ينعى على الأقدار ولا يستسلم لحكم الدهر . وكثيرا ما أدهشنى ذلك منه فانى أعرف فى نفوس العرب الرضا بصروف القضاء . وكان كل من يحيطون بى فى الجغبوب يمثلون الانسانية الخيّرة الرضية الا سيدى ...... فكان وحده دون بقية الاخوان صورة محزنة للكبرياء المحطمة

وحدث لى ذات مساء عند عودتى من المسجد ان لقيت مبروكا وهو من عبيد سيدى المهدى الأقدمين فحييته ورد التحية بأجمل منها ثم جلست أجاذبه أطراف الحديث فبدأنا بذكر قطعة الأرض الصغيرة التى يتعهد زرعها فقال : « ليس لدينا من الغذاء شىء كثير ولكن بركة سيدى المهدى تجعل من قليلنا كثرة» . وفى هذه اللحظة اجتاز صحن المسجد وقد بدأ الغسق يرخى

غلالته رجل منسرح القامة فى ثوب أبيض يمرق كأنه شبح من الأشباح . وكان ذاك الشيخ البراعصى فأشرت اليه بأصبعى وقلت لجليسى « لست اكتمك ان صحة هذا الرجل لم ترقنى حين زارنى اليوم . انى لأعجب ما خطبه » . فأجابني مبروك قائلا : « ان هذا الشيخ لا يشكو داء وانما يتألم لخيانة أخيه التعس الذى جلب على نفسه غضب أسيادنا السنوسيين » واستطرد بعد ذلك فى قصته فانكشف لى سر ذلك الشيخ الحزين

كان أخوه سيدى..... وكيلا أمينا للسيد المهدى فى الجغبوب صاحب أمر ونهى . حدث له أيام طفولتـه ان سقط عليه حائط فحطم رأسه . وكان السنوسى الكبير على مقربة منه فأسرع اليه وعصب رأسه قائلا ستكون هذه الرأس فى مقبل أيامها منبعاً للعلم والعرفان . وقد صدقت نبوءته فقد أرسله أبوه الى الجغبوب أيام اقامة السنوسى الكبير بها وتركه يطلب العلم فى مسجدها العامر وأصبح بعد ذلك كبير الاخوان وشيخ المدرسين فى الجغبوب وشاعرا نابغا يخطو الى المجد

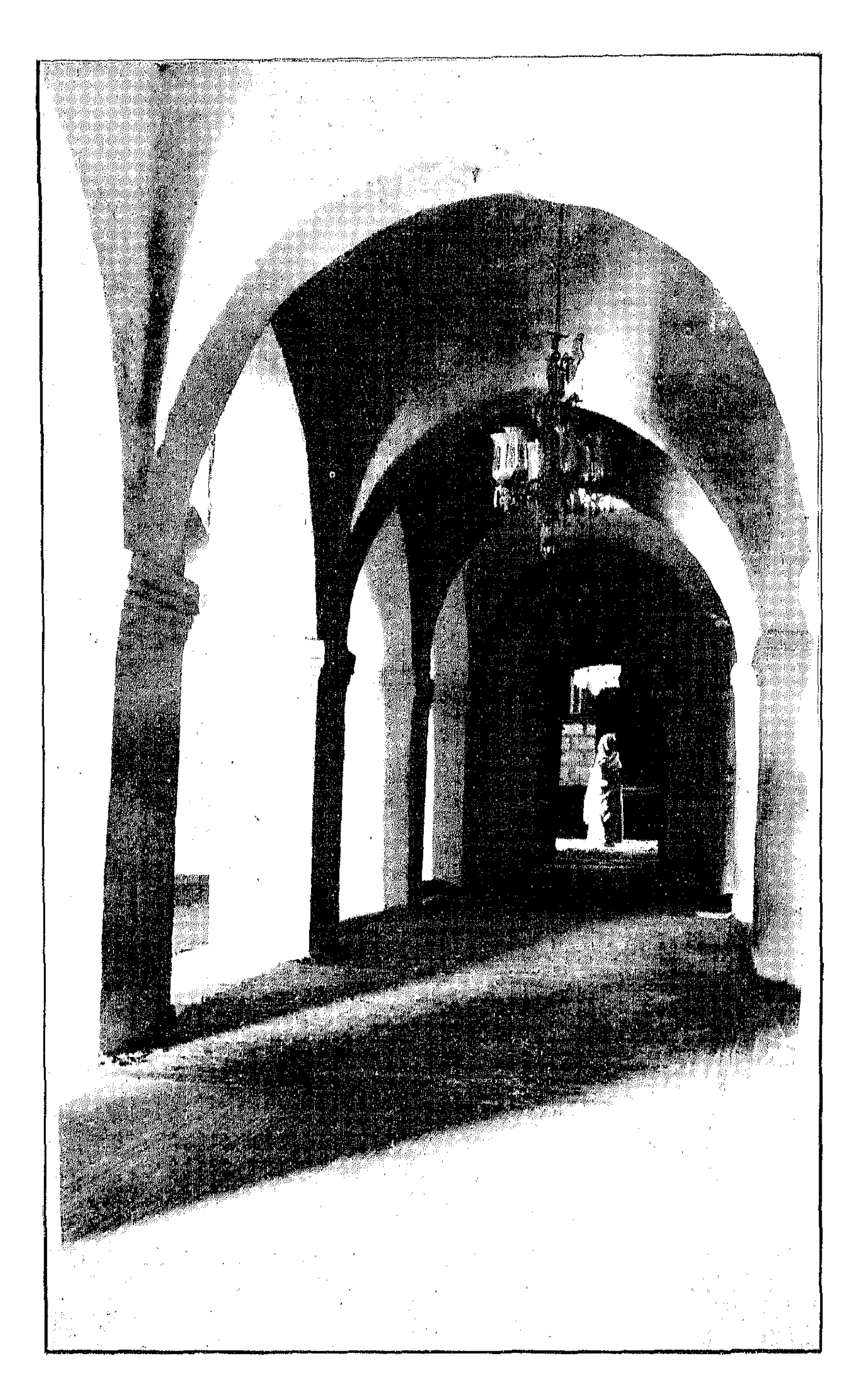
ومات السنوسى الكبير فاتخذه سيدى المهدى وكيله الوحيد فى الجغبوب حين نزح الى الكفرة وائتمنه على أملاكه ووكل اليه ادارة كل شيء فى تلك المدينة ولكن الله أراد أن يضربه

مثلا لمن يخون السيد ولا يكون عند حسن ظنه به فقد أغوته الحياة الدنيا فمال اليها وبدد اكثر أملاك المهدى وباع الكثيرين من عبيده وابتز كل ما وصلت اليه يده من المال

وكتب الله عليه العقاب ففضح سر خيانته وكان آخر مظهر من مظاهرها — والخبر مفتقر الى الأدلة — انه كتب الى كبير من الكبراء فى مصر — قيل إنه أجنبي — يخبره أن السيد المهدى بعيد فى الكفرة وان الجغبوب لا تمانع فى إلقاء مقاليد أمورها لمن يستولى عليها . وكان سيدى محمد العابد السنوسى يقيم في الجغبوب فى ذلك الوقت فسمع بكتابة ذلك الخطاب وعرف أنه مرسل الى مصر عند هجوم الليل فأرسل فى الحال اثنين من الاخوان يكمنون للرسول فى الطريق ويأخذون الرسالة منه . وجئ بالرسول بعد يومين فاطلع سيدى العابد على الكتاب ولم يقل شيئاً ولكنه هيأ قافلة للرحيل الى الكفرة وسأل الوكيل أن يصحبه فحاول الاعتذار بكبر سنه وضعف صحته . ولكن العابد أصر على مرافقته له فاضطر الى القبول وقطعوا الصحراء صامتين حتى وصلوا الكفرة فأظهر العابد ذلك الكتاب الى السيد المهدى

وفى يوم الجمعة التالى لوصولهم دعا السيد المهدى جميع الاخوان للاجتماع بعد صلاة الجمعة فى مسجد التاج ثم وقف بينهم

ملتفتاً الى الوكيل وقال «يا سيدى ...... انك لتعلم علم اليقين ما فعلت » فوجم الحضور وعلموا أن فى الأمر شيئاً فاشرأبت أعناقهم الى سماع الحديث واستطرد المهدى فى حديثه فقال : « ولكنا لن نجزيك على ذلك . سندعك تعيش ونجرى عليك رزقك المألوف والله يتولى عقاب من يخفر ذمتنا . غير انّا نطلب اليك أن تقرأ على الجمع الحافل من الاخوان هذا الكتاب الذى خطته يدك » . فلم يسع الرجل الا الاذعان لأمر المهدى فقرأه والاخوان تلوح فى وجوههم الدهشة من خيانته وهو موضع ثقة المهدى . وانتهى الرجل من قراءة الكتاب فقال المهدى « سنعفيك بعد الآن من مشقة النظر فى أمورنا » . ثم صرفه المهدى فانقلب المسكين الى داره مريضاً ومات بعد ذلك بأيام قليلة وتبعه ولداه بعد بضعة أشهر وتزوجت بنتاه من رجلين من الأسرة السنوسية . وقد استولت الأسرة السنوسية على جميع أملاكه وكتبه وكانت مكتبته من أعمر مكتبات الطائفة ولم يبق من أسرته الا أخوه هذا الشيخ البالى الذى ورث عنه بيته الخالى فى الجغبوب وغاره الملصق به : وبموت هذا الأخ تنقرض أسرة هذا الشقىّ الذى وثق به السيد السنوسى فلم يكن عند حسن ظنه به .



داخل الجامع بالجغبوب

الفصل السابع

الولائم والأدوية

لقد أظهر الزعماء السنوسيون من دلائل كرمهم شيئا كثيرا وجروا على سنة البدو فى اظهار ذلك تبعاً لمكانة رب البيت والضيف ووفقا للظروف ومناسباتها فان المسافر اذا حل بواحة أو بلدة فى الصحراء كان معه رجال قافلته وما يحتاج اليه من ضرورات العيش . ولا ينزل ذلك المسافر فى فندق أو فى دار صديق وانما يتخذ له مقاماً منفردا فينصب خيامه ويقيم فيها أو يسكن في دار توضع تحت تصرفه كما حدث لى فى الجغبوب وجالو والكفرة . فاذا حل ضيف المدينة أظهر كبراؤها كرم الضيافة نحوه فدعوه الى تناول الغداء او العشاء فى منازلهم أو ارسلوا اليه الطعام بخيامه أو داره . وسأفيض فى وصف كرم البدو اذا دعوا احدا الى منازلهم عند التكلم عن اقامتى فى جالو فقد دعانى فى هذه المدينة زهاء الخمسة عشر وجيها من وجوهها اما فى الجغبوب فقد ابدوا لى ذلك الكرم بارسال ألوان الطعام الى

داري وقد تمتد ضيافة البدوى لضيفه ثلاثة أيام أو سبعا تبعا لمنزلة الرجلين

وقد حدث بعد وصولى الجغبوب ببضعة ايام ان تفضل فتيان في الثالثة عشرة والخامسة عشرة من عمرهما وهما سيدى ابراهيم وسيدى محي الدين وهما اصغر ابناء السيد احمد المقيم الآن بالحجاز والذى كان الوصى على السيد إدريس — فأظهرا نحوى من دلائل الكرم ما ترك لهما فى خاطرى اجمل الذكرى فقد وصل الى دارى بدوى ومعه عبدان ينوءان تحت عبء الأطعمة ونثرا أمامى صحاف الطعام المتنوع فوجدتنى مضطرا الى تذوق ما لا يقل عن عشرين صنفاً وجلس ممثل ضائفى بأدب واحتشام لا يمد يده الى شيء بينما أصبت قليلا من كل صحفة وظل يشرف على تقديم ما يجعلنى راضيا ويسامرني أثناء تناولى الطعام . وهذا البدوى من قبيلة البراعصة التى اشتهر رجالها بانهم الطبقة الراقية لاهل الصحراء وامتازوا بطول القامة وجمال الخلقة وعزة النفس والشجاعة فان البراعصى لا يحجم عن مقابلة الاهانة بالسيف ولو انفرد بين رجال قبيلة بأسرها

جلست أتناول الطعام ترعاني عين هذا البدوى ويخدمنى العبدان ولست أدرى لكثرة ما قدم ان كان فى امكانى ان

أذكر الألوان الشهيــة التى ملأت الخوان ولكننى أذكر ان ذلك لم يخل من جميع أصناف اللحم والخضر والفطائر

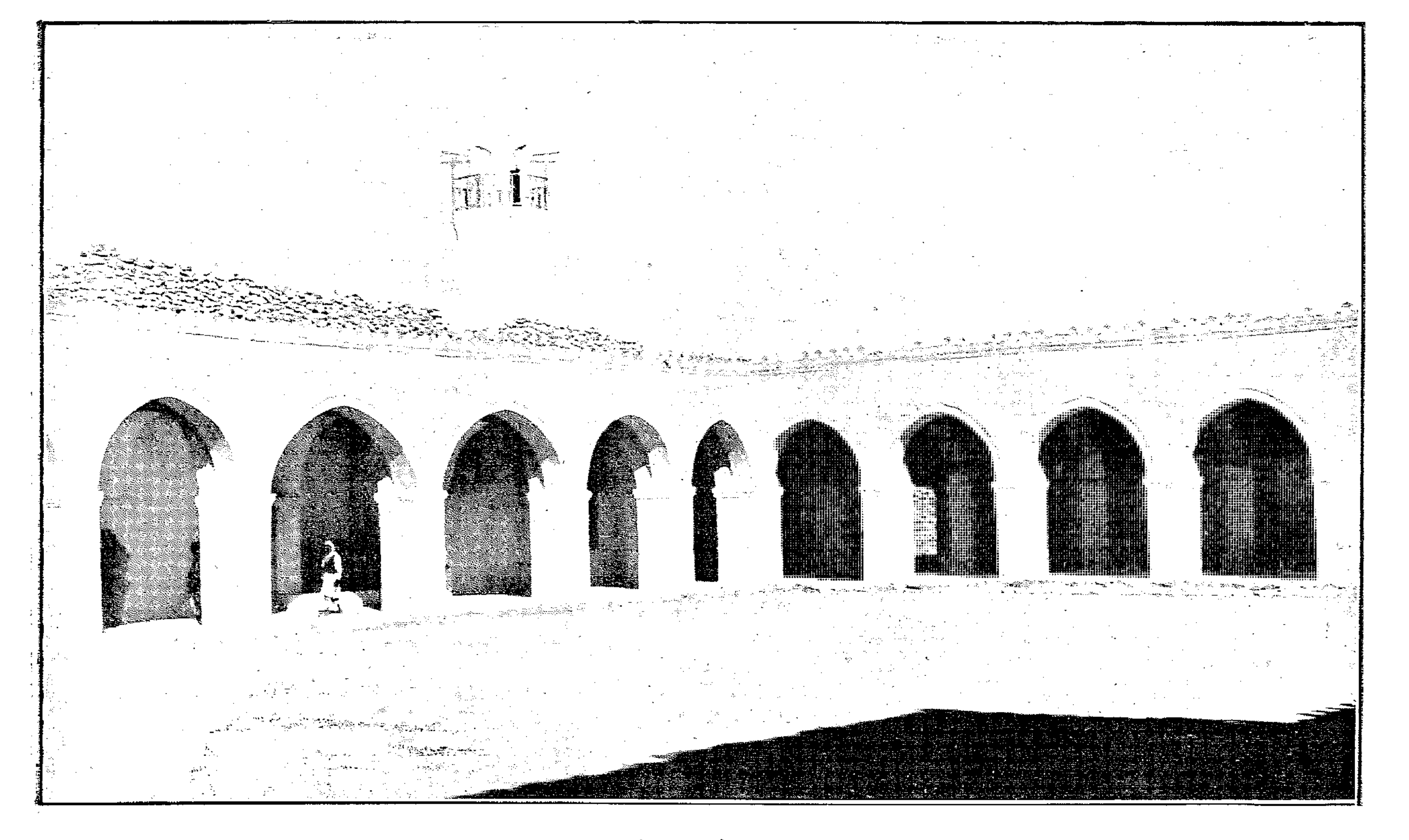
واللحم من أهم أنواع طعام البـدوى وأخصه لحم الخراف وهو قوام حيـاة البدوى اذا لم يكن مسافرا ولا تكمل ضيافة البدوى لنزيله الا بتقديم اللحوم التى أحضرت خصيصاً له فاذا أراد البدوى أن يدعو أحدا لتناول الطعام نحر له شاة والعادة ان لا يجهز شيئا او يذبح ذبيحا حتى يحضر الضيف فـيرى بنفسه ان كل شىء قد أعدّ له وحده وربما طلب رب الدار من ضيفه سكينا يذبح بها الشاة حتى يؤكد له أنه يقوم نحوه بكل انواع الاكرام

وانما يبين كرم البدوى فى كثرة الوان الأطعمة التى يقدمها لضيفه فأن الطعام فى الصحراء أهم مظاهر الكرم وهو فى تلك الأصقاع الساذجة كل ما يتحدث به الناس ولم تخل اقامتى فى الجغبوب من حادثتين أبانتا لى أن الشرق والغرب على كثرة ما بينهما فى الاختـلاف متفقان اتفـاقا ظريفا فى بعض الميول . وأولى هـاتين الحادثتين فكهة والثانيـة لا تخلو من عاطفة تشوبها فكاهة

كنت قد أمرت رجالى أن لا يردوا أحدا يقصدنى فى طلب دواء فجاءنى أحد الاخوان السنوسيين يطلب دواء لسعاله فأعطيته زجاجة من الشراب الخاص بمداواة السعال وجاءنى بعد يومين قائلا ان الجرعات الأولى التى تناولها أفادته فائدة عظيمة دفعته الى افراغ ما فى الزجاجة وسألني أن أعطيه زجاجة أخرى ثم انصرف وكان عبد الله حاضرا فالتفت الىّ وقال هازئا «لا أعجب اذا طلب سيدى الاخوانى زجاجة أخرى فان الشراب شهى لذيذ وانه ليشربه متلذذا بطعمه لا متداويا» . وأظن أن عبد الله كان مصيبا فى تعبيره فطالما لاحظت أثناء اقامتى بانجلترا ان الأطفال يؤكدون لآبائهم فتك السعال بهم وان برئوا منه وانما يدفعهم الى ذلك حلاوة الدواء وطيب مذاقه

وقد اعتاد رجالى أن يفخروا أمام البدو بأنى أحمل فى خوانجى الدواء لكل علة فجاءنى فتى تحت تأثير تابعى أحمد يسألنى شيئا يداوى به جارية من السهو والنسيان فكان جوابى على ذلك انى رأيت بعد تجاربى العديدة فى كثير من الممالك ان منع الخدم من النسيان لا يقل صعوبة عن منع الماء من الغوص فى الرمال

أما الحادثة الثانية فكان بطلاها رجلين يختلفان كل الاختلاف: جاءنى عبد أحد الأخوان يستشيرنى فى شيء كلفه سيده بعرضه



صحن الجامع بالجغبوب

عليّ لانه لا يجمل به أن يسره الى شخصيا فان آداب البدو تقضى أن لا يذكر انسان زوجه أمام غيره بل أن لا يذكر سيدة لا يعرفها المتحادثان . أما العبد فيمكنه أن يقول ما تأبى كرامة السيد التصريح به

جاءنى ذلك الخادم فقال : « ان زوج سيدى عاقر وان ذلك يؤلم بعلها كثيرا وان سيده واثق ان ازالة ذلك العقم لا بد فى استعمال الأدوية التى أحملها من عجائب علم الغرب » : وما كاد يتم حديثه حتى عادت بى الذكرى الى أيامى الأخيرة فى اكسفورد فذكرت خادما فى الجامعة كان لطيف العشرة ولكنه شديد الحياء .

جاءنى ذلك الخادم ذات يوم وكنت أهيئ أسباب عودتى الى مصر وبعد ان استجمع كل جرأته للجهر بما يضمر سألنى هذا السؤال « اذا سمحت يا سيدى أن أسأل فضلك أفضيت اليك بحاجة لى . أن زوجى عاقر والطبيب عاجز عن مداواتها وليس لديه ما يقترحه فاذا عدت ياسيدى الى بلدك الذى سمعت أنه يحوى طلاسم عجيبة تؤثر فى كل شيء فتنازل بالبحث لى عن طلسم للحبل وأرسله عسى أن يرزقنا الله ولدا . ولست اكتمك يا سيدى انى لا أعتقد بالسحر ولكن الحيل ضاقت بي فى سبيل هذا الأمر »

ولم يسعنى وقد رأيت انشغال باله وكشفه لى عن بنات صدره الا أن أجيبه بجد وعطف انى سأفعل ما أنا قادر عليه ولم تدعنى الحاجة بعد ذلك الى البحث عن طلبته لانه مات قبل أن أعود الى اكسفورد تاركا وراءه ذكرى طيبة بين جميع طلبة كلية (بليول)

ذكرت كل هذا وعبد ذلك الاخوانى منتظر ولكنى لم يسعنى أن أبطىء فى اعطائه ما طلب الى سيده . وأتيحت لى فكرة للخروج من هذا المأزق فأعطيت الخادم نصف زجاجة من أقراص اللبن المركز وأمرته أن يجعل السيده تتناول ثلاث حبات منها حتى تنفرج الازمة وانصرف الخادم ففكرت فى المقابلة الغريبة بين هاتين الحادثتين فهنالك فى اكسفورد أهاب علم الغرب بقوة الشرق الروحية وقد أعوزت تجاريبه السبل فى ايجاد دواء للحمل وهنا فى الجغبوب طلب الشرق مساعدة العلم الغربى بعد أن ضاقت به الحيل فى العلوم الروحانية وهكذا يظل الشرق والغرب معتقدين فى قوة المجهول العجيبة .

وطالت على الإقامة فى الجغبوب ولكن عيشتى الهادئة وتمتعى بلطف البدو وبشاشتهم لم ينسيانى التفكير فى أمر الإبل فبعثت الرسل الى جميع النواحى المجاورة فى طلبها وزدت مبلغ الأجر لأصحابها ولكنى لم أظفر بطائل وسألت السيد حسينا

مساعدته ولكنه أقر لى بعجزه عن عمل أى خدمة لى وأرسلت رسولا الى سيده يحمل اشارة برقية الى السيد ادريس فى مصر أعلمه فيه بحيرتى وأسأله المساعدة فجاءنى الرد منه بأسرع مما كنت انتظر طالبا الى السيد حسين أن يقدم لى ما فى طوقه من المساعدة ولكن السبل كانت مسدودة وأخيرا وقد سدت منافذ الأمل وصلت قافلة من قبيلة (زوى) كانت قد تركت جالو الى سيوة فى طلب البلح فأردت تأجير إبل القافلة ولكن أصحابها لم يرغبوا فى العودة بدون البلح الذى قصدوا استجلابه غير أنى وجدت فى آخر الأمر طريقة لحملهم على النزول عن جمالهم فأعلمتهم بواسطة سيدى حسين ان الأوامر صدرت من الحكومة المصرية بمنع رجال قبيلة زوى من الدخول فى الأراضى المصرية حتى ينحسم النزاع بينهم وبين أولاد على المقيمين فى مصر ذلك النزاع الذى نشأ عن ثأر متحكم بين رجال القبيلتين منذ بضع سنين

ورأى رجال القافلة ان التقدم الى مصر غير ميسور خوف العقاب فلم يبق أمامهم وقد حُجزوا فى الجغبوب الا العودة من حيث أتوا فكان ذلك ما قصدت وساعدنى على رضائهم بتأجير إبلهم إخبارهم بأوامر الحكومة المصرية وكتاب السيد ادريس واستمالة السيد حسين لهم ووعدى باعطاء أجر باهظ جرونى اليه

لاحتياجى الى جمالهم وانتهت تلك الايام السعيدة التى قضيتها تحت ظلال القبـة البيضاء

وانقضت كذلك أيام الهدوء والتفكير والتأمل فى ظل القبة البيضاء وأيام القلق للرغبة فى السفر والبحث عن ممهداته فأدرت وجهى الى الغرب قاصدا جالو فى ٢٢ فبراير بعد أن أقمت فى الجغبوب ٣٤ يوما كاملة



السيد حسين وكيل الامير السيد إدريس السنوسي بالجغبوب

الفصل الثامن

زوابع الرمال فى طريق "جالو"

تركت الجغبوب فى يوم من خير الايام التى جرت عادة البدو إن يتفاءلوا بها .

كان ذلك يوما عاصفا تسفى فيه الريح الرمال والعرب يقولون إن القافلة التى تبدأ رحلة فى عاصفة يكون نصيبها التوفيق وتصيب حظا طيبا .

وأكبر ظنى أن العرب إبتدعوا هذه الفكرة قديما للرضا بما هم واقعون فيه كل يوم . والنزول على ما تضطرهم اليه طبيعة الصحراء وإلا فان البدوى فى هـذا يكون كالمصرى أو السودانى اذا قال إن السفر محبوب فى يوم مشمس أو الإيقوسى اذا تمنى اليوم الممطر لسفره . إذ زوابع الرمال فى الصحراء أمر عادى قد يلقاه مجتازها فى أى مكان وآونة. على أنها تجربة شاقة ومحنة قاسية يعانى الانسان هولا شديدا فى احتمالها .

يصبح والسماء صافيـة والجو خال مما ينذر بعاصفة أو يشعر

بريح . وتبسم الصحراء لنا ونحن نهم بالرحيل فتتحرك القافلة فرحة مبتهجة وتسير فرحة طروبة . وما هو الا قليل زمن حتى يهب نسيم بليل لا يعرف مأتاه يمضى همسا فوق الرمال ثم يشتد دون أن نشعر بذلك والى هذا الحد لا نلقى من هبوبه ما يضايقنا

ثم ينظر الانسان الى وجه الصحراء فاذا سطح الارض قد تغير تغيرا غريبا واذا ذرات الرمال ترتفع قليلا وتنبجس. وتدور كانها بخار يتصاعد من ثقوب لاعد لها فى أنابيب مدت تحت ذلك السطح . وتزيد ثورة الرمال شيئا فشيئا كلما ازدادت الريح قوة حتى يخيل للانسان أن سطح الصحراء كله يرتفع اطاعة لقوة دافعة رافعة تحته

ويتطاير الحصى ويتناثر فيصيب قصب الأرجل والركب والافخاذ ويتصاعد رشاش حبات الرمال الراقصة على الأجسام حتى يلطم الوجه ويدوم فوق الرءوس

ثم تغيم السماء فلا يرى البصر الا أشباح الجمال القريبة منه وتثور الطبيعة فكأن فى الجو قوى خفية تصب العذاب لطما وقذفا ولذعا .

وخير لمن تدهمه الزوبعة أن تهب الريح من ورائه لان لطم الرمال وجهه عذاب أليم . وفوق هذا فليس فى وسعه أن يبقى

مفتوح العينين ولا هو يجسر أن يغمضهما فلئن كان لدغ حبات الرمال شرا وبلاء ففقد الطريق شر أعظم وبلاء كبير

ولحسن الحظ أن الريح تهب فى عصفات متلاصقة تتراوح بين الثلاث والاربع وتعقب كل طائفة منها ثوان قليلة تسكن فيها الريح فتريح النفوس . ذلك أن الانسان عند عصفها يدير وجهه ويتقى الرمال بطرف (كوفيته) ويكاد يمسك عن التنفس حتى تجىء فترة السكون فيكشف عن وجهه ويلقى نظرة سريعة يتبين الطريق ويعجل بالتأهب للهبّة الثانية . وكأن هنالك شيطانا هائلا عاتيا ينفخ تلك العصفات والهبات الداوية فى الرمال فيتسفيها فوق رءوس المسافرين ويدوى فى الفضاء صوت يصم الآذان وكأن هذا الصوت من يد ذلك الشيطان تضرب بأصابع قوية خشنة ضربات متناسقة على أوتار مشدودة من الحرير

متى بدأت زوبعة الرمال لم يكن المسافر الا أن يندفع فى سيره غير وان فان الرمال اذا أصابت شيئا ثابتا سواء أكان ذلك الشىء عامودا أم جملا أم رجلا تكدست حوله حتى تصبح ركاما وهكذا اذا كان فى السير عذاب وأهوال ففى الوقوف الموت الزؤام

وقد تظل زوبعة الرمال على أشدها خمس أو ست ساعات. وليس فى ميسور القافلة أن تتابع التقدم حينئذ الا مع الحرص الشديد على تبين الطريق حتى لا تخطئه

واذا تمردت العاصفة واشتدت فان الإبل تكاد لا تتقدم ولكن غريزتها تجعلها تتوقع الموت اذا وقفت عن السير. ويتجلى ذكاؤها الغريزى فيها عندما يبدأ نزول المطر اذ لا تحس خطرا فتقف بغتة أو ترقد

وتدفع العاصفة ذرات الرمل فتخترق كل شيء يحمله الانسان. تملأ ثيابه وطعامه. تملأ حوائجه وآلاته العلميه. تبحث عن موضع الضعف فيما يذروها فتنفذ اليه منه حتى يحس بها ويتنفسها ويأكلها ويشربها. وربما نفذت ذرات الرمل الدقيقة فى مسام جلده فآذته كثيرا

ويعرف البدوى خصائص هذه العواصف فيحيط بها علما كل غريب عن الصحراء. يقول البدو ان الريح التى تنذر بالعاصفة تهب مع النهار أو تقر مع غروب الشمس. ولا تقوم العاصفة فى ليلة مقمرة ولا تثور بين العصر والمساء. ولكن كل هذه القواعد الطيبة اختلت فى رحلتنا الى «جالو» فقد ثارت العواصف والقمر مشرق. وثارت والليل بهيم. وأصابتنا زوابع بدأت قبل الفجر

وأخرى ظلت الى ما بعد الغروب بزمن طويل ودهتنا عواصف جمعت بين العصر والمغرب حتى ما أحسسنا لضوء النهار بين هذين فارقا

واختلفت أنواع العواصف التى أصابتنا . فكان منها الضعيف والقوى . والقصير الامد والطويل المبوب . والثائر بالنهار والقائم بالليل

هذا حال الصحراء فى شدتها وقسوتها . فى غضبها وثورتها. على أنها لا تلبث أن تكشف لنا عن وجهها الجميل وتطلع علينا بصحيفة جديدة من صحف سحرها فقد يحدث فى المساء أن نكون فى صراع هائل مع كتائب الرمال السافية فتسكن الريح فجأة كأنها أُمرت فامتثلت ثم تقر حبات الرمل الدقيقة كأنها ضباب يستقر . ويُشرق القمر فتأخذ الصحراء شكلا جديدا تحت ضوئه السحرى الباهت الذى يغمر نواحيها ...

أكانت هناك منذ هنيهة زوبعة ثائرة كادت تودى بحياة القافلة ؟ من يستطيع أن يذكر ذلك ؟ هل يعقل أن هذا الفضاء الهادىء البديع كان قاسيا قط ؟ من يستطيع أن يصدق هذا ؟

وهكذا لم تكن رحلتنا الى جالو بالسهلة فقد كانت زوابع الرمال تضايقنا باستمرار . وبلغت فى بعض الاحايين حد الخطر .

وكان الشق الثانى من الطريق مملوءا بغرود من الرمل اضطرت القافلة الى تجنبها بالسير حولهـا مع ما فى هـذا التعرج من اجهاد للفكر ومشقة كبرى فى تتبع البوصلة .

وقد زاد هذا الواجب مشقة من جراء ثورة الزوابع وسفيها الرمال فى أبصار رجال القافلة ورغما من هذا تابعنا السـير مجدين

وكان لنا ساعات لهو وسرور أثناء هذه المرحلة رغم مالاقينا من أذى الرمال . فان الذاكرة لا تنسى الليالى البهيجة التى كنا نجتمع فيها حول نار الحطب نتناول كؤوس الشاى بعد العشاء . فيبدأ الحديث رفيقنا مُغَيِّب الشيخ الكبير وألسنة النيران الراقصة تنعكس على لحيته الشعثاء التى وخطها الشيب . ويقص علينا فصولا من تاريخ قبيلة زوى أيام كان جدُّه يقصد واداى لمحاربة قبائل السود ويغنم الجمال والعبيد

ويتبعه الرفيق صالح فيطرفنا باخبار الربح الطائل الذى جناه ابن عمه حين سافر سفرته الأخيرة الى واداى فلم يحارب احدا وإنما جاء منها بالجلود وريش النعام والعاج وباع كل ذلك فى أسواق برقة

وكانت تميل نفسى الى سماع أغنية من أغانى العرب فاطلب ذلك من علىّ . وكان شاعرا وخطيبا لاخت حسين الذى تنم صباحة وجهه عن جمال اخته . وهنا تتجه أنظار علىّ الى عمه مغيب كأنما يسأله أن يأذن له إجابة طلبى وهو مشغول عنا بسبحته متعمدا عدم

الالتفات الى مجرى الأمور الجديد لان الشيخ البدوى لا يليق لوقاره أن يستمع أغانى الحب من صغار الشبان . ولكن احترامه لى يدعوه الى الرضا بذلك وعدم ترك المجلس فيقول لعلى بصوت خافت « غن البك ما دام يحب أغانى البدو» فيبدأ على الغناء بصوته الرخيم الذى تحمله أجنحة نسيم الليل البليل بينا تتهالك حبات سبحة مغيب بين أصابعه منتظمة متوافقة كأنما لا يشغله شاغل عن الانقطاع لاداء فروض تعبده ويغنى على فيقول

مَضيت أغنى وكل النجع يسمع لى

حمرا مثيل الدم مخروطه عود البشَم

خَضْره يعرفهــــا الــيمْ (١)

ان كان لَقِيتها فى الطريق خرْقه نُرُشّها دم

ويسكن صوت على فلا أدرى أى الشيئين أسرع اعذارا أخيالى فى مسراه البعيد أم حبات سبحة مغيب بين أصابعه ؟ ثم يغنى على

يا بصيــــلاة (٢) الســقّاى (٣)

يَمْ (٤) ريقا عســل فوق السنون جرّاى

السّمِــح خَشْمِك ونابك العــوّاى (٥)

يا مُصيليبا (٦) مرقوق بصيد الخلاجرّاى (٧)

---

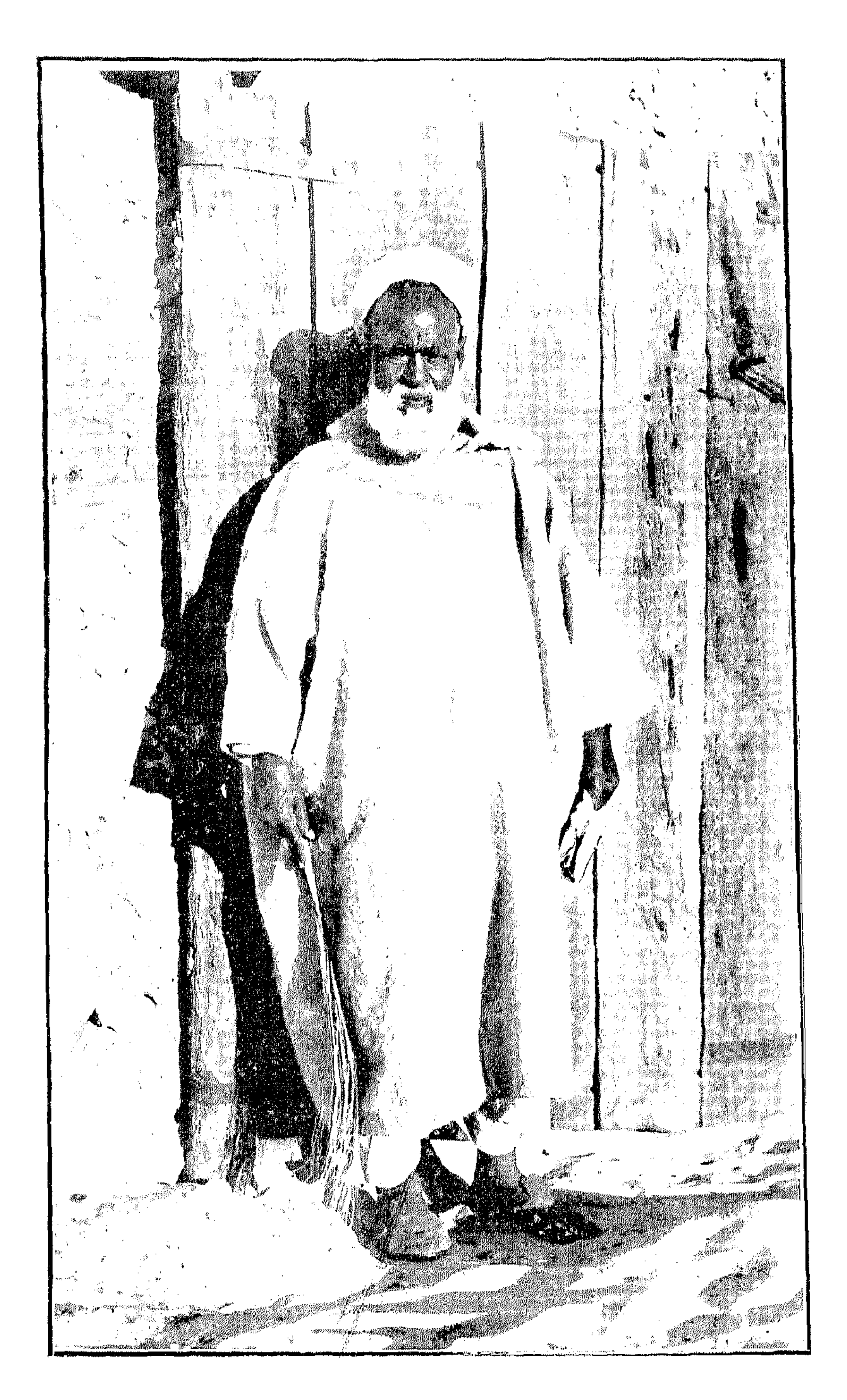
(١) الجميع (٢) نرجسه (٣) البستانى (٤) يا أم (٥) الابيض مثل العاج
(٦) ذات الوسط (٧) أى مثل الاسد وهو يجرى

أتلمّينى معاكِ ولاَّ صـــابك راى (١)
بَطنِك ضامر سوط (٢) مرقد صدرك جنّه
النبى ما يتخبأ والأجل عند الله

حتى اذا انتهى من غنائه غشى القافلة سكينة شاملة اللهم الا أزيز النار الخامدة والصوت المتناسق المنبعث من حبات السبحة التى تغير هزجها تغييرا محسوسا لان أصابع مغيب وقفت بغتة ثم أسرعت فى اطلاق الحبات كانما أراد ذلك الشيخ أن لا يشعرنا بوقوفه عن التسبيح . وانما الهاه عن الاضطراد فى تسبيحه تحليق خياله فى سماء الماضى الذى كان فيه شابا محبا والذى هاج ذكرياته غناء علىّ . ومن يدرى اذا كان كل جالس معنا عاشقا وكان من حسن حظه انه لم يمسك سبحة تفضح سره .

واجتزنا بئر ابى سلامه وهى بعد الجغبوب بسفر يوم فاخترقنا ناحية بها بقايا غابة متحجرة وكنا نمر فى سيرنا بقطع كبيرة من الاحجار قائمة كانها أعلام فى الطريق . وقد كانت هذه الصخور منذ أجيال بعيدة أشجارا نامية ولكن عوامل الطبيعة نقلتها من مملكة النبات الى مملكة الجماد . وكان هناك قطع قليلة متناثرة من الاخشاب المتحجرة ولكن أغلبها كان مدفونا تحت الرمال . وانما بقيت القطع الكبيرة ظاهرة لان عوائد الصحراء تقضى على من يمر بعلم ساقط من هذه الاعلام أن يقيمه . ومن العادات أيضا ان

(١) هل تقبلينى أم أنت تحبين شخصا آخر (٢) أى مثل السوط الرقيق



قاضى جالو

توضع فى الدروب الجديدة اكداس من الصخر متقطعات تدل القوافل على تلك الدروب

وقد يحدث ان يمر الانسان بشجرة او شجيرة قد علق بها خرق من الاثواب ويتعين عليه ان يضيف اليها شيئا من حوائجه فيكون تكدس هذه الاشياء دليلا على وجود الشجرة فى درب مطروق يشجع التابعين على مواصلة السير فيه . لان الشعور بمرور زميل سابق امر ينعش قاطع الصحراء فى ذلك السكون الشامل والفضاء الممل بتشابه مناظره . وان رؤية روث الجمل وعظامه المبيضة بل العثور بهيكل عظمى لمسافر قضى فى الطريق يسر عين المار بها لانها تؤكد له مرور قافلة فى تلك الطريق من قبل .

وبعد تركنا الجغبوب بقليل عثرنا بعلم مغاير لاعلام الطريق المألوفة وكان ذلك أكواما صغيرة من الرمل كانها بيوت النمل ممتدة تعترض السبيل ويسمى هذا العلم علم « بو الظفر » وهو فى الحقيقة رمز لعادة بدوية ظريفة .فان المتعارف انه اذا مرت قافلة بهذا العلم وكان فيها من مر به لأول مرة فعلى المسافرين الجدد ان ينحروا شاة للمسافرين القدماء الذين مروا به من قبل وهذه العادة مشهورة بعادة بو ظفر . فاذا لم ينتبه سالكو هذه الطريق لاول مرة الى اداء هذا الواجب نبههم اليه من سبقهم الى قطعها بان يتقدموا القافلة ويهيلوا أكوام الرمل فى سبيلها حتى اذا أوشكت القافلة أن تجتازها

صرخوا قائلين «بو الظفر» -- « بو الظفر » فانتبه رفقاؤهم ونحروا الشاة واقيمت المأدبة المألوفة .

وكان في قافلتنا كثيرون لم يعبروا تلك الطريق من قبل وكنت بين هؤلاء . واعددت العدة قبل تركى الجغبوب فاشتريت شاة انحرها لمن تقدمني في اجتياز تلك الطريق من افراد القافلة ولذلك لم يكن رفقائي في حاجة الى تكديس اكوام الرمل في سبيلي وتنبيهي الى هذه العادة الطريفة.

وقد أسعدنا الحظ في هذه الرحلة فوجدنا مراعي لجمالنا على طول الطريق حتى وصلنا جالو وقد وقع لنا أحيانا أننا حدنا عن الطريق السوى للوصول الى البقاع العشبية ولكنا كنا موفقين دائما الى ايجاد ماترعاه إبلنا

وتنمو في هذه النواحي ثلاثة انواع من الاعشاب . فالبلبال عوسجة ذات أوراق لاتصلح طعاما للجمال . وهي لاتنمو الا على مقربة من الآبار ولاتمسها الإبل عادةالا اذا أحست بجوع شديد . وهنا يخشى عليها من المرض اذا لم يراقبها اصحابها مراقبة شديدة. والضمران عوسجة اخرى تشبه البلبال ولكن اوراقها اشد سوادا وسيقانها سمراء تصلح وقودا وهي جافة . وهذه الشجيرة طعام جيد للجمال التي تقبل على اكلها بشهية . اما النوع الثالث من هذه

الشجيرات فاسمه النّشا وهي شجيرة ذات أوراق رقيقة متوشحة يصل ارتفاعها الى علو قدم وهى صالحة لأكل الجمال . وانما تنمو هذه الشجيرات فى فصل الشتاء حيث يسقط المطر القليل ولذلك لايقوى البدوى على قطع المسافة بين الجغبوب وجالو فى فصل الصيف مالم يكن قد حمل معه علف ابله .

ووصلنا بئر عزيلة — وهى اول بئر بعد بئر ابى سلامة فى اليوم العاشر من رحيلنا عن الجغبوب . وعلم هذه البئر قليل من الشجر والادغال الصغيرة المخضرة . وقد أمكننا ان نصل الى الماء العذب بعد ان جرفنا الرمال الهديلة على جوانب البئر . ولكننا لم نصب منه كثيرا لان مذاق ماوصلنا اليه بعد ذلك لم يكن فى عذوبة ماوصلنا اليه اول الامر .

وبعد ذلك بيومين اشرفنا على ظاهر واحة جالو ولم نكد نقرب الواحة حتى اندفع الينا رسول جاء لمقابلتنا حاملا خطابا من سيدى محمد الزروالى — وهو من الاخوان السنوسيين — الذى امره السيد ادريس ان يرافقنا الى الكفرة. وطلب منى الرسول ان أحط رحالى حتى يتهيأ القوم لمقابلتنا بما يجب من الحفاوة والاكرام.

وكان السيد ادريس قد اخبر رجال جالو عند تركه جالو قبل ذلك بشهرين انى قادم اليهم وأمرهم ان يتلطفوا فى لقائنا وقد توقع اهل المدينة وصولنا مدة طويلة حتى اذا أبطأنا عنهم ظنوا اننا غيرنا الطريق الى الكفرة

ونصبنا الخيام على مقربة من المدينة وبعد ذلك بساعات قليلة جاءنا جمع من البدو ووقفوا صفا طويلا مهيب الهيئة على طول طريق قرية (اللّبه) وهى احدى القريتين اللتين تكونان جالو. وتقدمنا اليهم ونحن فى اجمل لباس واصلحه لذلك اللقاء الرسمى . وكان مع رجالى من الذخيرة مايكفيهم لطلقات الترحيب .

واقتربت منهم فصافحت سيدى السنوسى قد ربوه . وهو قائمقام تلك الناحية وصافحت كذلك أعضاء مجلس جالو واشرافها. وخطبنا القائمقام مرحبا فرددت عليه واطلق رجالى النار مرحبين ثم دخلنا المدينة فقصدت الدار التى وضعت تحت تصرفى واستقبلت اعضاء مجلس جالو وسيدى الفضيل عم السيد ادريس وتناولت العشاء مع سيدى قد ربوه السنوسى وقضيت المساء اناقش سيدى زروالى فى وضع الخطط لرحلتنا الى الكفرة

بلدة جالو

الفصل التاسع

فى واحة جالو

جالو واحة من أهم واحات برقة وهى على مسافة ٢٤٠ كيلو متر من أقرب نقطة من شاطىء البحر الأبيض المتوسط وراء جدابيا وعلى مسافة ٦٠٠ كيلو متر من الكفرة الواقعة فى الجنوب مباشرة وهى الواحة التى تخرج أكبر كمية من البلح فى جميع تلك الجهات وفوق هذا فانها المنفذ الذى تصدر عن طريقه حاصلات واداى ودارفور بعد مرورها بالكفرة

ويمر بجالو كل ما يرسل من الجهات الأخرى الى الكفرة ولقد نعتها السيد البشارى وهو من كبار شيوخ قبيلة المجابرة فقال ان الصحراء بحر وجالو ثغر ذلك البحر

وقد كانت هذه المدينة فى أوج عزها منذ نحو ثلاثين عاما أيام كان المهدى متخذا الكفرة قصبة للطائفة السنوسية فكان يرتادها كل أسبوع قوافل مؤلفة من مائتين الى ثلاثمائة جمل

تسير بينها وبين جهات الجنوب ولكن هذه الحركة كانت قد نزلت الى العشر أيام زرتها غير أنهـا تزداد ثانية فى الصيف أيام موسم البلح . وجالو مؤلفة من قريتين تفصلهما مسافة ميل وهما (العرق) و (اللبّه) وتتناثر أجمات النخيل بين هاتين القريتين وحولهما ولا يقل عدد نخيل هذه الناحية عن مائة ألف نخلة

وتقع « أوجله » على مسافة اثنى عشر ميلا من غرب جالو وهى الواحة القديمة التى قال عنها هيرودوت انها شهيرة ببلحها

وفى « أوجلة » هذه قبر عبد الله الصحابى الذى اشتهر بأنه كان كاتب النبي عليه السلام وهذه القصة مشكوك فى صحتها . على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد اتخذ كاتبا اسمه عبد الله الصحابى وان هـذا الصحابى هبط شمال أفريقيا وان هنالك قبرا لرجل بهذا الاسم فى « أوجله » وكم من أخبار صحت فى الأذهان على أساس أوهى من هذه الشواهد ويروون أن السنوسى الكبير وجد جثة سيدى عبد الله الصحابى مدفونة فى ناحية بعيدة ورأى فى بعض أحلامه روح ذلك الجسد النائى تقول له « أخرج جسدى من مقره وضعه على جمل وحيثما وقف بى الجمل ابن لى ضريحا » وأطاع السنوسى الكبير الأمر وسافر بالجثة حتى وصل أوجله

وعنـدها وقف الجمل بغتة وأبى أن يتقدم فى سـيره فأقيم ضريح محل وقوف البعير

ويعتقد الناس أن لمؤسس الطائفة السنوسية وأعضاء الأسرة السنوسية وكبار الأخوان قوة خفية ومعرفة بالغيب. وكان للسيد المهدى قوى خفية غريبة يسميها البدو كرامات وقد أخبرنى أحد الاخوان فى جغبوب بقصة عنه قال :

جاء المهدى اعرابى جاهل يريد طلب العلم عليه فى جغبوب ولم يكد يفاتح المهدى فى أمره حتى تذكر ان موسم البذر قد حل وان ليس له من يتعهد أرضه فى غيابه . فرأى الصلاح فى السفر الى بلده حتى ينتهى من موسم الحصاد ثم يعود لطلب العلم وقصد السيد المهدى ليودعه قبل سفره فدخل غرفته وأخذ مجلسه وانتظر حتى يبدأ المهدى الحديث كما جرت العـادة وتغافل المهدى عنه لحظات فغلب البـدوى النعاس وأغفى قليلا ثم استيقظ على صوت المهدى الخافت بقوله له « الآن هدأ بالك وقرت نفسك لانك تعلم أن الأمور هيئت لك على ما يرضيك » وقد هدأ بال البدوى حقا لانه رأى فى تلك الغفوة القصـيرة حلما تمثل له فيـه أخوه يحرث الارض ويبـذر حب الشعير واستطرد المهدى فى حديثـه فقال « انزل علينا ضيفا وتوفر على الدرس وأسأل الله أن يهديك

سواء السبيل ولا تخف شيئا فقد رأيت كيف سارت أمورك على ما تحب وان الله رحيم يلحظنا جميعا بعين عنايته » فأقام الرجل بجغبوب ولم يعد الى بلده الا أيام الحصاد وعاد بعد ذلك الى جغبوب فأخبر أحد الاخوان تحقيق رؤياه فى دار المهدى حين رأى أخاه يبذر الحب فى أرضه وزاد على هذا ان قطعة الارض التى رآها تبذر فى رؤياه كان يجرى فيها العمل فى نفس الوقت الذى شاهد فيه الرؤيا

وأخبرنى حاكم جالو بقصة أخرى قال : « كنت مسافرا مع جماعة من الرفقاء من بنغازي الى جغبوب لزيارة السيد المهدى فاخطأنا موضع بئر فى الطريق وشعرنا بضيق شديد لقلة الماء وأمسى المساء فالتفت الىّ أقل رجال القافلة رغبة فى زيارة المهدى وقال « أما وقد أحضرتنا لزيارة ذلك الرجل التقىّ ذى الكرامات فهلا سألته أن يرسل الينا ما يبل أوامنا ان كان من التقوى والصلاح بحيث تقول » وحدث فى تلك الليلة بجغبوب ان السيد المهدى استيقظ من نومه ونادى عبدين من عبيده وأمرهما أن يقوما فى الحال فيحملا الزاد والماء على خمسة جمال وان ينطلقا الى الصحراء ويأخذا السبيل التى أشار اليها فلا يقفان حتى يلتقيا

بقافلة فى الطريق فمضيا سبيلهما. وتلاقيا بقافلتنا وقد أشرف رجالها على الهلاك »

ولا يزال بين رجال الطائفة اخوان قدماء يخشاهم أعضاء الأسرة السنوسية أنفسهم خوفا من تأثير قواهم الخفية ومن بين هؤلاء رجل يعيش فى الكفرة وكان فى ماضى أيامه اخوانيا فى زاوية ببرقة فاحضر أحد البدو غنمه تستقى من البئر القريبة من الزاوية فشرد بعضها واكل الشعير الناجم فى قطعة الارض المجاورة للزاوية. وانذر الاخوانى ذلك الاعرابى أن يقف غنمه عن إتلاف الزرع فأظهر الطاعة والسهر على قطيعه ولكنه كان ناويا فى نفسه أن يطلق غنمه على الزرع فتأتى عليه ولذلك أطلقها فى غفلة من الاخوانى وخرج هذا من الزاوية فرأى الغنم تفتك بشجيرات الشعير فصب عليها اللعنة قائلا « أهلك الله الغنم التى تأكل زرع الزاوية » ويقول رواة هذه القصة أنه لم تخرج شاة واحدة وهى حية من مزرعة الزاوية

ولا يزال البدو الى هذه الأيام يخشون أسرة السنوسيين لا لسلطتهم الزمنية وانما للقوة الروحية التى يعتقدون وجودها فيهم فان السنوسى اذا صب لعنته على أحد ظل طول عمره خائفا

متوقعا أن يصيبه مكروه وقد يتحاشاه اخوانه بل وأهـله حتى لا ينالهم أذى مما يصيبه .

ومن المسائل المشهورة فى هذا الشـأن مسألة رئيس كتبة السيد المهدى الذى يعيش الآن فى الـكفرة نصف مشلول وقد زرته فرأيته سعيدا راضيا رغم عجزه عن تحريك جسمه ثم رأيتـه مرة أخرى فأنس الىّ وسألنى وهو يتردد بين الاعتقاد والشك ان كان بين أدويتى شىء يقيه من مرضه وترددت فى الاجابة عليه لانى لم أرد أن أقطع أمله . ورأى ذلك فى عينى فلم يترك لى الوقت الـكافى للرد عليه وقال « لقد كتب الله علىّ ما أنا فيـه وكان الذنب ذنبي . أمرنى السـيد المهدى ان اسـافر شمـالا فلم اقو على عصيان امره ولـكنى اردت ان اخلص من تلك الرحلة بعـد ان وصلت الهوّارى فكتبت اليه مدعيا المرض وجاء رده باعفائى من اتمام الرحلة ان كنت صادقا فيما ادعيت وفى اليوم التالى اصـابنى الشلل وحملت الى الكفرة ولا أزال بها الى الآن وكان ذلك منذ خمس وعشرين سنة

وقد اخبرنى حاكم جالو بقصة أخرى حين كنا نتناقش فى الـكرامات قال « قامت عاصفة شـديدة فى اوجله اسفت الرمال حتى غطت قبر السيد عبد الله الصحابى فأحضر العبيد لرفع الرمال

المهيلة عن القبر وبينما كان الفعلة دائبين فى عملهم دخل الحاكم الغرفة التى بها المقام فنشق رائحة بخور قوية ونادى أحد العبيد فسأله هل أطلق أحد بخورا فأنكر الرجل . ولا يزال زائر هذه الغرفة فى هذه الايام يشم تلك الرائحة الزكية وان لم ينطلق أى بخور فى نواحيها

وجالو مركز قبيلة المجابرة « البدو » شيوخ تجار صحراء ليبيا وبها بعض رجال قبيلة (زوى) ولكن اكثرية الألفين الذين يقيمون فيها من المجابرة . ولهؤلاء ميل غريب للتجارة فان الرجل منهم يفخر بان أباه مات فوق سرج جمله كما يفخر ابن الجندى بان أباه مات فى ميدان القتال

وكانت العلاقات متوترة ايام اقامتى بجالو بين السلطات الايطالية وبين السيد ادريس فمنعوا ارسال البضائع من بنغازى وغيرها من ثغور برقة الى البلاد الداخلية ولذلك ارتفعت اثمان الحاجيات ارتفاعا سريعا فى مدن الصحراء كجدابيا وغيرها وسمع تجار المجابرة من اهل جالو بحالة التجارة فى جهات الشمال وكان معهم بضائع كثيرة من مصر فلم يترددوا فى الاستفادة من هذه الفرصة وغيروا وجهتهم فساروا شمالا بدلا من ان ينحدروا جنوبا

وباعوا بضائعهم فى جدابيا فربحوا ربحا وافرا ثم عادوا سراعا الى مصر والجنوب يطلبون بضائع اخرى وعادوا بها الى جالو فقارنوا بين ارتفاع الاثمان فى جدابيا والكفرة ثم اختاروا منهما اعمرهما سوقا لتجارتهم

وأعجب ما فى الصحراء سرعة انتقال الاخبار من بلد الى آخر مع ما هنالك من بعد الشقة بين تلك البلاد فان المسافة بين جالو وجدابيا خمسة ايام وبين جالو والكفرة زهاء الخمسة عشر يوما ومع ان القوافل تسير بسرعة غير كبيرة . واحسب ان التعليل الصحيح لهذا هو ان كل شىء فى الصحراء نسبى فالاخبار تسير مع خطو الجمال وكذلك كل ما عداها

وان اشتهر المجابرة بالتفوق على غيرهم فى الاشتغال بالتجارة فان لقبيلة (زوى) ما يدعو الى الفخار . والمنافسة بين هاتين القبيلتين كامنة تهيجها الظروف من وقت لآخر

والزوى محسودون من جميع قبائل برقة لان منهم على باشا العابديه وهو الذى يلى السيد ادريس فى المرتبة بين السنوسيين . وعلى باشا هذا جندى ماهر وكان سندا قويا للسيد ادريس وموضع ثقة عنده

وقد تناولنا ذات ليلة حديث المنافسة بين زوى وباقى القبائل

وكان ذلك فى جالو بعد تناول العشاء فناقش سيدى صالح وهو من سلالة النبي عليه الصلاة والسلام لا ينتسب لأى قبيلة فى برقة — مع رجلي مغيب الزروالى وهما من قبيلة زوى فى شأن تلك المنافسة وبعد أن سمع منهما الافراط فى مدح قبيلتهما هز رأسه ثم قال « قد يكون تاريخ الزوى مجيدا كما يقول سيدى مغيب ولكنهم قوم لا يخشون الله » فانطلق مغيب قائلا « والله ياسيدى صالح انهم يخشون الله ولكنهم لا يخافون الانسان . والويل لمن يتعرض لقافلتهم أو يسطو على خيامهم » . ثم التفت الىّ وقال « لقد باركنا السيد المهدى اذ هبط علينا فى الكفرة قصبتنا ثم اختفى منها » . ولم يقل مات لان السنوسيين لا يفوهون بكلمة الموت وانما يستعملون كلمة اختفى وما ماثلها فى التعبير اذ الشائع بينهم ان المهدى لم يمت وانه يهيم فى نواحى الارض حتى يعود الى رجاله أهل الصحراء . وأحب شيوخ السنوسيين الى الزوى السيد المهدى لانه نقل مركز حركة الطائفة الى الكفرة وبنى فيها قبة المسجد التى هى اجمل مظاهر فخر تلك المدينة

وقد علمت بعد تجاريب عديدة أن أفراد قبيلة زوى يضمرون العداء للأجانب فقد وضح لى وأنا المسلم ابن ذلك الرجل التقىّ العالم بالأزهر الشريف وموضع ثقة السيد ادريس انهم لا يرضون إقامتى

في الكفرة وبان لى ذلك جليا حين سمعت أن أحدهم تمنى لو أنى أفارق الكفرة الى الأبد بعد مغادرتى لها . على انى بالرغم من معرفتى بهذا النفور لا أظن ان فى استطاعتى ان أجد رجالا أقدر على قطع الصحراء وأعلم بطرق السير فيها من أفراد هذه القبيلة الذين كونوا جزءا من قافلتى فقد كان الزروالى وهو مثال الزوى الصحيح أمتع رفيق لى فى السفر وأحق أفراد القافلة باعتمادى وثقتى

وبدوى برقة يجرى فى عروقه دم العرب الذين اجتازوا شمال أفريقية فى طريقهم الى الأندلس وهو بالرغم من اختلاطه برجال القبائل الاخرى محافظ على كثير من تقاليده العربية القديمة فجريمة القتل عند السنوسيين تفصل فيها قوانين البدو الخاصة . والعادة أن يتداخل الاخوانى فى الخصومات ويصلح ذات البين بين المتخاصمين فيأخذ القاتل وشيخاً من شيوخ قبيلته ويقصد خيام المقتول فينصب خيامه على مقربة منها ثم يتقدم مع القاتل الى أفراد أسرة القتيل قائلا « معى قاتل رجلكم » ثم يأخذ بيده ويقول « هذا قاتل ولدكم أسلمكم إياه فافعلوا به ما أنتم فاعلون » فيكون الجواب عادة « سامحه الله وأنزل عليه عدله ورحمته » ثم يأخذ الاخوانى بعد ذلك فى تسوية مقدار الديّة وهى فى الغالب ثلاثة آلاف ريال وعبد يكون معروف الثمن فى سوق الرقيق .

ولأقارب القتيل حق الاختيار بين قبض المال أو أخذ قيمته جمالا وغنما وما اليهما من حوائج البـدو . فان آثروا المال قسم دفعه على أقساط تجرى من سنة الى ثلاث سنين واتفق على ذلك وانتهى الأمر . وقد يحدث فى احـوال نادرة أو يقع اذا كان طلب الثأر مستحكماً بين رجال القبيلتين أن يرفض قبول الدية ومعنى هذا أن فى نية قبيلة القتيل أن تقتل قاتله أو أحد أقاربه أو رأساً من رؤس قبيلته

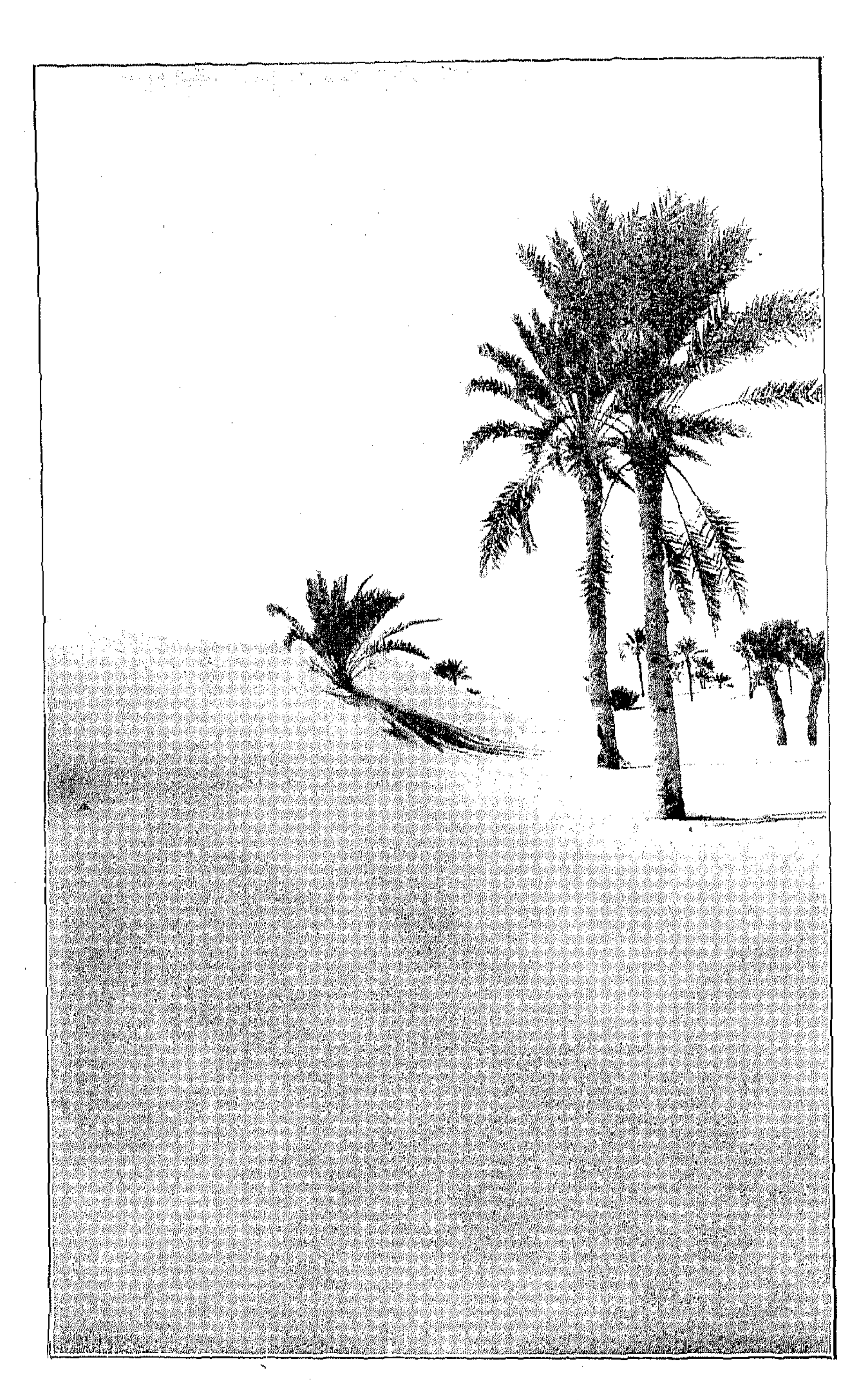
وشبان البدو وعذاراهم مطلقون فى الاختلاط بعضهم ببعض ولا تحجب المرأة إلا فى الأسر الكبيرة . ويعرف الشاب موضع أمله فى الزواج فيقصد خيامها ويغنيها من شعره فان مالت نفسها اليه خرجت وساجلته الغناء من مقولها أو من منقولها . ويقصد الشاب أهلها بعد ذلك ويدفع المهر ان تم الاتفاق . ثم يعود اليها فى حفـل من أصحابه ويأخذها الى داره تحف بهمـا الفرسان المتخطِّرة وتدوى فوق رؤوسهما طلقات البنادق

وقد يفِر الحبيب بحبيبته فينتهى الأمر بين قبيلتيهما بسفك الدماء لأن البدو يعدون الفارّ بحبيبته سارقا لها . وعقود الزواج يجريهـا الاخوانى ويتم العقـد وفقا للشرع الاسـلامى الشريف والزواج عند العـرب فى سنّ مبـكرة تتـوقف على نمو البنت

والغالب أن تتزوج البنت فى سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ويتزوج الشاب بين السابعة عشرة والعشرين والقادر من البدو يتزوج اثنتين أو اكثر ولكن الأولى فى هذه الحال تبقى سيدة الدار بيدها أمر تدبيرها وتفضل على ضراتها بما فيهن أقربهن وأجلهن الى بعلها في كل ما يتعلق بالشؤون المنزلية

وقد سمعت بشبان كثيرين تدلهوا فى حب من لم تصل اليها أيديهم . ورأيت بعينى ضحية من ضحايا الحب . جاءنى شاب بدوى يسألني دواء وكان نحيلا منسرح القامة متناسق الاعضاء فتقدم الى وقال أريد دواء يهبنى الصحة . فسألته ماذا يشكو . فهز رأسه وقال « الله اعلم » وكان فى هيئته غرابة حيرتنى ولكنى خرجت من هذا باعطائه بعض اقراص مركزة من اللبن وأمرته أن يتناول منها ثلاثة كل يوم

وما كاد الشاب يمضى حتى دخل رجل مسنّ وجلس القرفصاء ثم قال « وهبك الله الصحة وجعل الشفاء على يديك لقد قصدك ابنى مستشفيا واعطيته الدواء فهل تدرى ما علته . لقد جئتك أشكو عنه بعض ما يحس . إنه يشكو ضعفا وصداعا قاسيا واذا جن الليل هجر الناس والتمس الوحدة وقد يقضى طول ليله خاليا بالصحراء . فقلت للشيخ « لقد اعطيت ابنك ما آمل أن



الرمال تغطي النخيل في جالو

يخفف عنه بعض آلامه » فأجاب وفى صوته رنّة حزن « الشفاء من عند الله غير انى أعلم الطريق الى شفائه ولكن الأقدار كتبت عليه أن لا يبرأ الدهر من دائه فهو يحب غادة رفض أبواها ان يزوجاها منه » فقلت له ولم لا تسعى فى سبيل التوفيق بينهما وقد عرفت مبعث داء ابنك . فاجابنى الشيخ « لقد فات الوقت فان الفتاة أصبحت زوجا وعلم الله أنها تشكو داء ابنى على بعد المزار وتنائى الدار » ثم قام وترك خيمتى ينطق الحزن فى عينيه ويبين الاستسلام فى مشيته .

ومن ظريف ما رواه لى أحد الأخوان أنه جاءه فتى وذكر له انه تدله بحب غانية كما تدلهت بحبه ولكن اهلها أبَوْها عليه وذكر انه سيعمد واياها الى الفرار وهذا يفتح باب الثأر بين اسرتيهما فأطرق الاخوان قليلا وأشار عليه بأن يوعز لحبيبته بالتظاهر بالصراع كل مساء عند غروب الشمس وكان ما أشار به .

وكان هذا الاخوان مشهورا بين القوم بالدراية فى مداواة العلل والأمراض فجاء أهل الفتاة اليه يطلبون عونه وطبه فعكف يصف لها الوصفات المختلفه دون أن تبرأ من الصرع بطبيعة الحال حتى اذا عيل صبرهم قال لهم لقد ضاقت حيلة الطب بها ولم يبق الا

أن استمد من حول الله وقوته ما يكون فيه الشفاء . فاعطونى بعض ملابسها أقرأ عليه آيات وأدعية ثم اتوسدها فى رقادى الليلة وفى الصباح أخبركم بما توصى به الرؤيا . فجاءوه « بعصبتها » . وفى اليوم التالى قال لهم لقد رأيت حلما والله أعلم بما فيه الخير . لقد كلفت من الرؤيا أن أطلب منكم أن تعقدوا عقدها على « فلان » وفى اليوم نفسه سأكتب حجابا ألهمت صيغته فاذا انقضى أسبوع دون أن يصيبها الصرع زوجوها منه والا فاحملوه على طلاقها وهذا سبيل شفائها الوحيد وإلا بقيت طول عمرها يصيبها الصرع. فأطاع أهلها ما أمرهم به الاخوان وتزوجا

ولم أستطع فى جالو كما عز علىّ من قبل فى الجغبوب أن أجد جمالا فى انتظارى ولكن السبب فى الحالين لم يكن واحدا . ولم تكن حيرتى هذه المرة بحيث ضايقتنى كالمرة السالفة . فقد كنت اتفقت على أجر الجمال وكان صاحبها عمر ابو حليقة على قدم الاستعداد للمسير عند عودة إبله من مراعيها فان البدوى العاقل لا يدع جماله تقطع مرحلة بعيدة من غير أن يشبعها علفا ناضرا قبل رحيلها . والمرحلة الى الكفرة طويلة وخالية من كل مرعى وتضطر الجمال فى قطعها الى الاكتفاء بالبلح الجاف والجمّال يعد

البلح الجاف مؤذيا لكبد جماله فيدعها تأخذ كفايتها من الأعشاب قبل السير

وكان أبو حليقة قد أرسل إبله الى مرعى قريب وأمر رعاتها أن يحضروها فى اليوم المحدد ولكن الإبل لم تظهر فى الموعد المضروب . وعجبت لذلك فى اليوم الأول ثم انشغل بالى فى اليوم الثانى وتملكتنى الحيرة فى اليوم الثالث خيفة أن تكون الجمال قد أبقت من رعاتها . على أن شيئا من ذلك لم يكن فقد ظهرت فى اليوم الرابع أكمل ما تكون تأهبا للسير . وكريت خمسة وثلاثين جملا بأجر باهظ مع أنه كان فى مقدورى أن أشترى الجمل منها بثمن يتراوح بين اثنى عشر وثمانية عشر جنيها بينما طلب أبو حليقة فى الجمل الواحد ثلاثة عشر جنيها ونصف جنيه أجرا عن الشهرين أو الثلاثة الأشهر التى يستغرقها السفر الى (بشة) فى واداى . وكان تأجير الجمال أوفق لى لان امتلاكى الإبل يوقع علىّ مسؤولية سلامتها طول الطريق ويضطر رجالى الى الانقطاع لتعهدها مدفوعين بالأمانة والرغبة فى نجاح الرحلة . ولكن مرافقة أبى حليقة ورجاله لجماله مهدت سبيل العناية بها والسهر عليها طول الطريق فان أبا حليقة لم يغفل لحظة عن تعهد جماله فكان يخفف

أحمال الضعيف منها أو المريض . وظل مشغولا بها الى آخر الرحلة فلم آبه كثيرا بما بذلت من مال فى سبيل تحقيق رغائبى

وأعوزتنى الرجال كذلك على وجود اولئك الأربعة الذين انقطعوا لخدمتى ورافقونى من القاهرة والسلوم وسيوه وهم عبد الله واحمد ومحمد واسماعيل فضممت اليهم خمسة آخرين وهم الدليل السنوسى أبو حسن وسعد الأوجلى ومحمد وفرج العبد والسيد محمد الزروالى الذى تفضل السيد إدريس فأمره بمرافقتى الى الكفرة وكان مع أبى حليقة ولده وجمالان . وزاد على جميع هؤلاء خمسة من قبيلة التبو وهم من العبيد الرحالة « فى تيبستى » الواقعة فى الشمال الغربى من وادای . وكان عبد الله والسيد الزروالى رئيسى القافلة فكان أولهما منوطا بحراسة الحوائج والمؤن وثانيهما قائما بتعهد الرجال والجمال : والحق أقول إن هذين الرجلين كانا أصلح رفيقين يصحبهما الانسان فى رحلة صحراوية

وكنا فى حاجة الي ملابس وبعض أنواع من الأطعمة وفى عوز شديد الى أحذية فان الحذاء البدوى الخالى من الكعب ـ وهو أصلح الأحذية للسير على الرمال ـ هو كل ما تصل اليه يد السائح في الصحراء ولكنه يبلى بسرعة ويضطر صاحبه الى رتقه



السيد محمد الزروالى الذى رافق الرحالة من جالو

فى الطريق فكان على كل منا أن يجهز الجلود اللازمة لرتق حذائه حتى يصل الكفرة

ووجدت فى جالو صانع أحذية شهير وهو حميده الذى كنت لقيته منذ سنتين فى الكفرة فاستدعيته وأعطيته الأحذية التى صنعها لى اذ ذاك وهى فى حاجة ماسة الى الترقيع ففرح كثيرا حين طلبت منه إصلاحها . وكان حميده رجلا مهيب الطلعة يصح أن يحسبه رائيه قاضيا أو عضو مجلس على الأقل . وقد اختلف الى دارى يعمل فى رتق أحذيتى الخمس وصنع أحذية أخرى لرجالى وإصلاح سروجنا وغيرها من الحوائج الجلدية . وكان يسره كثيرا أن أدعوه للغذاء ثم أقدم له بعد ذلك كوبا من الشاى وحدث ذات يوم أن أخذه السعال عند تقديم الشاى اليه فأظهرت اشفاقى عليه من دائه فنظر الى من وراء كوب الشاى وقال بصوته الخافت « ان الشاى الذى تقدمه لى يشفيني من السعال يا سيدى البك ولا أجد الشفاء فى غيره » ولم تخف عنى هذه الاشارة اللطيفة فاتحفته بقليل منه قبل تركى جالو

واشتريت ملابس لرجالى وسمنا وزيتا وشعيرا ووقودا وثمانى قرب . وأخبرنى على كاجا وهو عبد السيد إدريس الصفى ووكيله الأمين فى جالو أن سيده أمر بوضع مخازنه تحت تصرفى فشكرته

ولم أمدد يدى الى شىء فقد تركت مصر مزودا بكل ما احتاج اليه وأنا أعرف فوق هذا أن ما لديهم يحتاجون اليه أشد احتياج لتعذر الحصول عليها فى الصحراء

وقضيت فى جالو عشرة أيام فى إعداد العدة لرحيلى وفى قبول دعوات مشايخ العرب وردّ هذه الدعوات والانقطاع الى أشغالى العلمية

وكانت المآدب التى أقيمت لى غاية فى إظهار كرم البدو فتناولت عشاء أول يوم في دار السنوسى « قدر بوه » حاكم جالو وتغديت فى اليوم التالى عند البشارى اكبر تجار المجابرة وأشهرهم ووقف فى خدمتنا مع أبنائه أثناء تناول الطعام كما هى عادة البدو

وتلقيت الغداء فى اليوم الثالث من أعضاء المجلس وشاركنى فيه الزروالى وعلى كاجا ومغيب . وجرى لى بعد الغداء حديث مع القاضى عن تاريخ السنوسيين فارانى خطابات من السنوسى الكبير وابنه المهدى وجاء العشاء فى هذا اليوم من عند الحاج فرحات وهو من كبار تجار المجابرة أيضا . وشاركنى فيه الحاكم والزروالى وعلى كاجا ومغيب وعبد الله

وفى اليوم الرابع تناولت عند الحاج على بلال المجبرى غداء تقول عنه مفكرتى انه كان جيدا جدا « وانه حضره الجمع المعتاد ».

وجاءنى العشاء من عند الحاج سعيد وهو من تجار المجابرة أيضا

وفى اليوم التالى تغديت بدار الحاج غريبل وفى المساء وقع لى أهم حادث من حوادث الضيافة التى لقيتها ووضح لى كرم البدو باجلى مظاهره حين دعانى فضليات نساء الأسرة السنوسية الى تناول العشاء

كان يقيم بجالو نساء كثيرات من الأسرة السنوسية بينهن زوج السيد إدريس وأخته . وقد أرسل الىّ أولئك السيدات الكريمات بعد وصولي جالو بقليل يدعيننى للعشاء وهذا حادث غير عادي لأن نبيلات الصحراء لا يؤلمن الولائم للرجال كما تفعل نساء الغرب وأدركت بطبيعة الحال انى غير مدعو لتناول العشاء مع داعياتى ولكنى قدرت هذا العطف من ناحيتهن فقبلت دعوتهن راضيا شاكرا . وجاءنى السيد الزروالى والحاكم فى الوقت المحدد لمرافقتى الى دار الضيافة وكانت دار الحكومة فى عهد الاتراك فأدخلنا الى غرفة فسيحة ينبعث فى جوها بخور زكى الرائحة وينتشر فيها نور ضعيف من سراج نحاسى فاخر وشموع كثيرة ويلقى أشعته النديّة على ما فى الغرفة من سجاجيد ثمينة وطنافس حريرية فيرسل عليها أضواء بهيجة

وكان القائم باكرامنا سيدي صالح وهو بعل سيدة من

سيدات الأسرة السنوسية فاشرف على نفر من العبيد قدموا الينا ما لذ وطاب من طعام وشراب . وبعد أن نلنا من كل ما قدم إلينا جريا على عادة البدو جاءنا العبيد بطسوت من النحاس فغسلنا أيدينا ثم تناولنا ثلاثة اكواب الشاى المعتادة ونثرت علينا قطرات الورد وأطلق زكى البخور . وبعد ذلك تقدم الىّ رئيس العبيد باحتشام وهمس فى أذنى سائلا ان كنت أحب أن أسمع شيئا من الأغانى فيدير لى حاكيا (فونوغراف) ويسمعنى بعض اسطوانات لمشاهير مطربى مصر . فأبيت شاكرا على تلطفه وربما كنت فى ذلك مغضبا رفقائى . وانما دفعنى الي الاباء رغبتى فى الاستمتاع بوجودى فى تلك الغرفة ذات الأثاث الفاخر والجو المعطر وإطلاق العنان لخيالى بعيدا عن صخب المدن وجلبتها فى مناحى الصحراء ومجالى حياتها البدوية والإيناس الى روحها التى تشيع فى نفسى الخالية المنفردة

وانطبعت ذكرى هذه الليلة الفريدة فى خاطرى لما رأيت من جمال المكان وأحسست من بعد عن العالم وما شعرت به من لذة الاستمتاع بضيافة شريفات البدو اللاتى اختفين عن عينى وكن ماثلات فيما أظهرن نحوى من دلائل الكرم والرعاية وحمّلت رئيس العبيد أجل تحياتى الى السيدات وسألته أن يبلغهن تقديرى

لهذا العطف الشديد ثم خرجت الى الصحراء فى تلك الليلة البديعة تلعب كف النسيم بثنايا « جردى » فتثير فى الجو ما علق به من نشر البخور وتهيج فى خاطرى ذكرى تلك الغرفة السحرية التى نعمت فيها بذلك المجلس الشهى

وأصبح الصباح فأعددت وليمة أرد بها ضيافة من أكرمونى أثناء الأيام الماضية ولكن غرفتى الحقيرة التى تتناثر فيها أمتعة سفرى لم تكن من كمال الاستعداد بحيث تقارن بتلك الدار الجميلة التى تناولت فيها عشاء الأمس . غير أن على كاجا أخذ على نفسه أن يجعل هذه الغرفة صالحة للوليمة بقدر ما تسمح به الظروف فاستعار من بيت السيد إدريس سراجين بديعين من النحاس وبعض أبسطة فاخرة وأضاف الى ذلك بعض الرياش الأخرى وخلق من الغرفة بهوا يليق باقامة مأدبة وكان بين ضيوفى حاكم المدينة واعضاء مجلسها واخوان سنوسيان والقاضى وعلى كاجا وموسى ضابط المدفعية السنوسية والسيد الزروالى ولبست أفخر ثيابى البدوية ثم وقفت فى خدمتهم كما يقف رب الدار البدوى وقد سألنى بعضهم ممن زار المدن أن أجلس معهم وأشاركهم الطعام ولكنى أبيت واعدا أن أفعل ذلك اذا شرفونى بالزيارة فى القاهرة . وقد أظهر طاهىّ احمد حذقا شديدا فى تنويع ألوان

الطعام فقدم شيئا من الصحاف الأوربية لم يسع ضيوفى معها السكوت عن مدحها والثناء على طاهيها . وكانت وليمتى هذه آخر الولائم فتركت بعدها أتناول طعامي خاليا هادئا وقد أراحنى ذلك كثيرا وان شكرت لضائفىّ ما أظهروا نحوى من دلائل الكرم وقد اهتممت أثناء إقامتى فى جالو بعمل بعض الملاحظات العلمية فرصدت الشمس والنجوم لمعرفة خطوط الطول والعرض وواصلت ملاحظة البارومتر والترمومتر لمعرفة ارتفاع المكان ولما روجعت ملاحظاتى فى هذا الشأن على الملاحظات البارومترية التى أخذت فى سيوة فى اليوم نفسه ظهر لى أمر هام وهو أن سطح جالو فى هذه الأيام أعلى منه بمقدار ٦٠ مترا أيام زارها (رولفس) سنة ١٨٧٩ فقد قرر هذا الرحالة أن جالو تكاد تكون موازية لسطح البحر ووجدتها أعلي منه بستين مترا. وكان تغير وجود هذا الفرق واضحا أمام عيني فقد رأيت الرمال المتراكمة تتكدس حول جذوع النخيل وعلى جدران المنازل تكاد تغمرها جميعا . وكانت نتيجة ذلك أن انتقل بعض سكان المدينة من مساكنهم القديمة وبنوا ديارهم فى جهات اكثر ارتفاعا . وما زاد ارتفاع جالو عن سطح البحر زهاء مائتى قدم فى بحر أربع وأربعين سنة الا تلك الرمال المضطردة التراكم التى تسفيها

العواصف فتعترضها الأشجار والمنازل . وتجعلها ركاما . وكانت الدار التى أقمت فيها وقيدت بها ملاحظاتى أعلى من بقية دور جالو بزهاء العشرين مترا . وكنت شديد الحرص فى أخذ هذه الملاحظات لان البدو يسيئون الظن بكل جهاز علىّ فما بالك بآلة (التيودوليت) التى ربما ظنوا انى باستعمالها ارسم خريطة لتلك الأصقاع بقصد العودة لغزوها . ولم يَفُتنى وقد رآنى شيخ من شيوخ البدو وأنا اشتغل بالتيودوليت ان افسر له بسرعة واهتمام انى اعمل فى إعداد إمساكية لشهر رمضان . وكان عبد الله وليس بالبدوى الساذج يعيننى كثيرا فى سبيل تمهيد ملاحظاتى العلمية وكان اختصاصيا فى الاحتيال على تفادى العقبات التى تعترض سبيل أعمالى مظهرا فى ذلك حذقا شديدا فى منع سوء التفاهم

كنت ذات يوم أعمل على مسافة من جالو بعض الملاحظات بواسطة جهازى فمر بنا أحد سكان المدينة وسأل عبد الله ماذا تعمل فقال له إننا نأخذ صورة لجالو فقال البدوى « أتأخذون صورتها على هذا البعد » فأجابه عبد الله على الفور « ان هذه الآلة تجتذب الصورة فتطير اليها وتنطبع فيها » فقال البدوى المرتاب « وكيف يجتذب الصندوق صورة » فهز عبد الله كتفيه وقال «سل المغناطيس كيف يجذب الحديد » وهكذا انتهت هذه المناقشة التى أظهر فيها عبد الله حذقا ولباقة

الفصل العاشر

في الطريق

تأهبت للسير يوم الخميس ١٥ مارس فصحوت فى الساعة السادسة أهيء حوائجى وقضينا فى إعداد كل شىء ثلاث ساعات كما هى العادة فى أول يوم من أيام السفر نظرا لعدم تعود القافلة على ما يستلزمه السفر من ربط وحل وكان علينا أن نسير على عادة البدو من (التجهيز) وهو الاصطلاح الذى يطلق على الذهاب الى بئر قريبة قبل البدء فى سير طويل والاستعداد فى بحر بضعة أيام لعمل الترتيبات الأخيرة بعيدا عن مشاغل حياة المدن وكانت بئر بو الطفل وهى على بعد ثلاثين كيلو مترا تقريبا من جالو — البقعة التى أردنا أن نجرى عندها « التجهيز »

وبعد أن تم حزم كل شىء جاءنا حاكم المدينة وأشرافها واخوانها ليقوموا بتوديعنا فجلسنا جميعا القرفصاء نتشاور فى أمر الرحلة . وكنت قد سافرت الى الكفرة قبل هذا بسنتين فى ظروف اكثر موافقة وأسعد حظا ومع ذلك فقد ضللت الطريق

قبل الوصول الى الكفرة وكان الجو فى رحلتنا السالفة أشد ملاءمة والريح والعواصف أضعف هياجا والقافلة أقل عددا

ولم تشغلنى فى رحلتى الأولى مسألة إعداد الجمال وعلفها وتهيئة الرجال وطعامهم وأدواتهم لأن السيد إدريس تفضل فقام عنى بتعهد القافلة ولوازمها وكانت هذه الرعاية من جانبه باعثا قويا على تهدئة خواطر البدو وازالة ريبهم ومحو نزعة الكراهية فيهم للأجانب ولكنى وجدتنى هذه المرة مضطرا لترتيب كل شىء بنفسي مع ما يبعث فى نفوس العرب من الدهشة أمثال هذه القافلة الكبيرة التى تحمل كمية وافرة من الحوائج التى تستلزمها رحلة طويلة

والطبيعة قاسية فى قطع المسافات الطويلة الخالية من الماء وهى فيها عدو الانسان الوحيد وفى مقدورها أن تكون عدوا لدودا اذا شاءت ولكن تضامن الرجال وغيرتهم على العمل مما يجعل القافلة تهزأ بالحوادث وتمضى فى سيرها آمنه مطمئنة . وكان رجالى الأربعة الذين استحضرتهم من القاهرة والسلوم وسيوة على أحسن ما يكون من لطف المعاملة مع كل من لاقينا . وكان الزروالى وهو الاخوانى الذى انتدبه السيد إدريس لمرافقتنا مثال اللطف والاخلاص وقد أفرغ كل جهده فى توفير أسباب الراحة

أثناء الرحلة . والحق أقول انى لم أكن أحمل هما للطوارىء مهما قست علينا الطبيعة

وبعد أن حمّلنا الجمال بدأت حفلة «الموادعة» التى اعتادها العرب فوقفت مع رجالى على شكل نصف دائرة وواجهنا شيوخ جالو واخوانها وقد وقفوا على شكل نصف دائرة اخرى . ورفعنا الاكف خاشعين مبتهلين أن يبارك الله رحلتنا وان يسدد خطانا ويرجعنا سالمين الى الاوطان وقرأنا الفاتحة وامّن عليها أكبر الاخوان سنا ثم تبادلنا الشد على الايدى وبدأنا السير بين صراخ الرجال تستحث الجمال وزغردة النساء تدوى فى الفضاء

وزاد اقبالنا على السفر ماحدث لنا عند اختراقنا اللبة وهى ثانية القريتين اللتين تكوّنان مدينة جالو فقد لاح لنا على جانب الطريق بدوية رشيقة القوام قد انفردت وهى مسدلة نقابها على وجهها فلما مررنا بها ادار رجالى الابصار الى الغانية وصرخوا بصوت واحد « وجهك وجهك » فعطفت البدوية وازاحت نقابها وهى خفرة فكشفت عن وجه بديع القسمات صافى الاديم ينم عما عرف فى غوانى البدو من حياء وجلال . وبهر جمالها رجالى وملك ادبها نفوسهم فارسلوا عبارات الاعجاب والسرور ولم يسعنى امام ذلك الا أن أسير على عوائد البدو فى مثل هذه الظروف

فامرت رجالى ان يفرغوا البارود عند قدميها . فتقدم حامد ورقص امامها رقصا رشيقا كأنما يوقع له الطبل ايقاعا منتظما وهو ممسك بندقيته فوق رأسه بكلتا يديه جاعلا فوهتها الى الامام ثم اقترب منها وهو يغنى أنشودة بدوية من أناشيد الغرام حتى اذا صار قبالتها هوى على ركبة واحدة وصوب بندقيته الى موطن قدميها ثم اطلق النار على قيد شعرة منهما . وكان هدفه من القرب والدقة بحيث أصاب لهب البارود حذاء الصبية فشاطت جوانبه . ولم تجفل عند اطلاق النار بل ظلت منتصبة القامة فخورة بالشرف العظيم الذى نالته لان الحذاء الشائط فى ارجل الغادة البدوية دليل فخار تسمو اليه فتيات الصحراء

وحاكى سعد اخاه حامدا حتى اذا انتهى من اطلاق النار صرخ رجال القافلة مهللين مستبشرين وبدأنا المسير وبسمت الصبية فى اثرنا كانما سرها مالقيته من اكرامنا لها تفاؤلا بالوجه الصبيح تشرق علينا طلعته فى اول ساعة من ساعات السفر واحتوانا فضاء الصحراء فوصلنا بعد سير ثمانى ساعات الى بئر ابى الطفل حيث نوينا الاقامة يوما وقضينا ليلتنا اطرب ماتكون وسمرنا حتى منتصف الليل فى حديث وغناء حتى اذا تهيأ رجالى للنوم اخذت «غليونى» وانطلقت اخلو بنفسى ولم يكن احب الى فى الصحراء من تلك الرياضة

الانفرادية التي ادخن فيها «غليوني» الاخير قبل الاقدام على السفر الطويل وانا هادىء البال وادعه

وكنت راضيا عن كل شيء . يسرني التوفيق في اليوم السعيد ويملأني الامل في الغد اذا أخطأني الحظ في يومي الحاضر . ولا اكون مبالغا ان قلت اني لم ادخل فراشي ليلة من ليالي السفر وانا احمل في نفسي هما من الهموم مهما ضايقتني الظروف أو آذتني الأحوال

وقضينا اليوم التالي في التمهيدات الاخيرة للسفر ولحقنا ابو حليقة صاحب الجمال في قافلة صغيرة مكونة من ثلاثة جمال وتبعه في نفس اليوم رجل من جالو

وكنا في حاجة الى حبال ومشد ولكن بائعيها بالغوا في طلب الثمن واطال عبد الله معهم الفصال وترك البت في امر الشراء حتى آخر لحظة واتفق مع رجل منهم اسمه السنوسي ابو جابر على ان يتبعنا بالحبال الى ابي الطفل . وحضر الرجل فجاء الى خيمتي واخبرني ان له اخا في واداي وطلب مني ان آخذه معنا على شريطة ان يخدمنا طول الطريق قياما منه بنفقات الرحلة فتوسمت الرجل وعرفت انه جدير بمرافقتنا وساقني منه على الخصوص ظرف وفكاهة نحن احوج ما نكون اليهما في قطع الصحراء فقد تخون

جمل ينفق في الطريق

الانسان قواه فيستعين على تحمل التعب باشغال باله بسماع المُلَح المستطرفة وكنت اود ان يرافقنا ولكن ذلك لم يكن بالامر الهيّن كما يدل ذلك الحديث الذى جرى بينى وبينه

قلت انا مسافرون فى التوّ وليس لديك من الوقت ما يمكنك من السفر الى جالو والعودة بامتعتك

فقال « ان لدى كل مااحتاجه »

فسألته وأنا أدور بعينى مندهشا : «واين حوائجك؟ »

فاشار الى قميصه وعصاه وقال :« هات كل مايلزمنى »

فضحكت من اعماق قلبى حيث رأيت أن هذين الشيئين هما كل مايحتاجه الرجل فى رحلة صحراوية متعبة وشاركنى فى ضحكى طروبا . ورضيت بمرافقته لنا ولم اندم على ذلك فيما بعد فقد خبرته اثناء السفر فكان من أحسن رجالى

وسقينا الجمال فى اليوم التالى ولم نكن فى ذلك بالمتعجلين لان حال الجمال أهم شيء فى قطع الصحراء ولا يكتفى باشباعها وتسمينها قبل الرحيل بل يجب تركها تشرب جهدها من الماء وفق رغباتها والسماح لها بعد ذلك بالراحة . واستعدت الجمال فحمّلناها بعناية شديدة لان وضع الاحمال بدقة على ظهور الإبل فى مبدأ الرحلة يوفر وقتا طويلا وعناء شديدا أثناء السير فقد يوفر المسافر يوما

أو يومين من الوقت المحدد للرحلة اذا لم يُضع وقتا طويلا فى وضع الاحمال ورفعها يوما بعد يوم

وتأهبنا للسير فى منتصف الساعة الثالثة وما كادت الإبل تتحرك حتى دوى صوت ابى حليقة بالاذان جريا على عادة البدو عند البدء بالسير . فان التقاليد البدوية تزعم أن القافلة التى تستهل سيرها بالاذان تختمه بالاذان كذلك غير ملاقية فى الطريق اذى أو مصيبة . وقد زاد عدد القافلة بالتدريج حتى أصبحت تضم تسعا وثلاثين جملا وواحدا وعشرين رجلا وجوادا وكلبا . فكان رجال القافلة أنا ورجالي الاربعة عبد الله وحمدا واحمد واسماعيل والسيد الزروالى واباحليقة صاحب الجمال وابنه وابن اخيه وعبده وداود عم الزروالى وكان مزمعا السفر على جمله الوحيد الى واحة تيزربو لاحضار زوجه وابنته . ودليلنا أبو حسن والسنوسى بو جابر صاحب القميص والعصا وحمد الزوى مغنينا المطرب وسعد الاوجلى وفرج العبد وعبدان من قبيلة التبو وبرفقتهما ثلاثة جمال وثلاثة عبيد آخرين من نفس القبيلة ومعهم ثلاثة جمال محملة بضائع بقصد تسليمها الى بعض تجار الكفرة

واتجهنا جنوبا قاصدين الكفره وكان يوم الرحيل حارا شديد الريح ورمال الارض المنبسطة متماسكة تتناثر عليها صغار

الحصى . وكان مقصدنا الاول بئر الظيغن التي قدرنا الوصول اليها في تسعة ايام . وكانت العادة قبل عهد السنوسيين ان تقطع هذه المرحلة في بحر أربعة ايام من غير ان تقف القوافل في الطريق لتناول الطعام او طلب الراحة ولكن السنوسيين أبطلوا هذا وادخلوا عادة حمل الزاد والماء الكافيين للقيام بهذه المرحلة في ضعف الوقت السابق وتمكين الرجال والجمال من الراحة كل يوم

ولم تقبل الجمال على السير بادىء بدء لانها لم تكد تترك مراعيها التي تؤثر العودة اليها عن السير في الصحراء فحاول أبو حليقة ان يجعل تجار التبو يتقدمون القافلة بجمالهم ولكنهم رفضوا ذلك بلياقة لان السير في المقدمة شاق على الجمال اذ يفضل الجمل ان يلحق سابقه عن ان يسير في الطليعة غير تابع ولذلك يضطر الجمل المتقدم في بعض الاحيان الى الاستمرار في السير باللكز والضرب بالعصا. وهذا هو السبب الذي دعا العبيد الى تفضيل السير في مؤخرة القافلة حتى لا يضطرون الى استحثاث إبلهم . ولم يأب ابو حليقة ان ينزل لهم عن هذا ولكنه استفاد من خدماتهم اثناء السير

واستمر اشتداد الحر وهبوب الريح حتى عصر ذلك اليوم ثم حل المساء فقرّت الريح واستحالت نسيما بليلا وبدأت الصحراء تأخذ رونقها الساحر . واني لأجد في يومياتي التي كنت أكتبها

أثناء الطريق بضع فقرات دونتها وصفا لاحساسى عند عودتى الى هذه الصحراء التى طرقتها من قبل وشعورى بالاقتراب من الجهة التى ضللت فيها الطريق منذ سنتين والى القارئ بعض ما كتبت

« هذه عين الصحراء المنبسطة التى تهيج فى خاطرى ذكريات قديمة ما أكثر الانسان غفرا لشمس الصحراء المحرقة ورياحها العاتية اذا هدأ المساء وغربت الشمس وطلع القمر وهبّ النسيم وانيا بليلا وما أسرع ما ينسى اخطارها فى الاستمتاع بملذاتها التى تحببها اليه رغم قساوتها وجفائها

انى لا أنسى آلامي فى كوب من الشاى وفى «غليون» أدخنه ورجال القافلة نيام وتحمل أذيال النسيم عبقه الفياح . وأجد لذة فى رؤية انعكاس ألسنة اللهب على وجوه رفقائى بين شيخ مغضن الجبين وشاب ناعم الاديم . وتطربنى ملاحظة الرجال يعملون فمنهم الموفقون ومنهم الخائبون ويملأ نفسى فوق كل هذا احساسى بالقرب من الله جل وعلا والشعور بحضرته »

صحونا فى اليوم الثامن عشر فى الساعة السادسة فحمّلنا جمالنا فى ٣٥ دقيقة ولم نستطع تحميلها بهذه السرعة لولا عنايتنا بتحميلها أول الامر فى جالو وبئر بو الطفل . على انا لم نبدأ السير الا فى الساعة التاسعة لان الاسراع فى إعداد العدة للرحيل شيء يضايق



الرحالة مع عصفور وقع من شدة العطش في وسط الصحراء
بين بئر بو الطفل والظيغن

البدوى الذى يكره أن يضطر الى الاسراع فى تناول طعامه وأن يحرم من دقائق الفراغ اللازمة لتنظيم حركة الهضم وخلق الرضا فى نفسه والعاقل بين رؤساء القوافل من يلاحظ كل هذا قبل إصدار أمره بالرحيل . وإنى لأرى الفرصة هنا مناسبة لاعطاء القارىء صورة ليوم من أيام السفر يكون مثالا لجميع الايام التى قضيناها فى السفر الى ان وصلنا لواحة اركنو

كانت رحلتنا هذه فى شهر مارس ومع هذا فقد كان البرد شديدا يضطرنى الى الاستيقاظ بعد الفجر بقليل لان البقاء فى الفراش يعرضني لفتك البرد القارس رغم ما أشعر به من الدفء فى أكياس النوم وتحت ملاءة البدو الصوفية وأنظر من ثنايا الخيام فأرى نجوم الصباح تغيب وهى حيرى كسالى . أصحو فأجد أحد رجالى قد أوقد النار وأشعر بدافع الى الاسراع فى طلب الدفء فالتحف بجردى وألف كوفيتى حول أذنىّ ثم أندفع الى النار مقرورا فى تلك الساعة المبكرة من الصباح . أقف الى جانب النار ثم أدور بعينى فأرى الرجال منكمشين من فعل الصقيع وان صحوا من نومهم جميعا . وألحظهم وقد أنسوا الى الدفء فى ألفاف جرودهم وكل ما وصلت اليه أيديهم من الثياب واعتدنا متى كان الماء وفيرا أن تُدار أكواب الشاى فيشربوها ثم تسرى فيهم روح العمل

فينطلق كل الى عمله ويقوم الجمّال بعلف إبله بلحا (جافا) تلتهمه بما فيه من حصى وتراب وتأخذ فى مضغه ثم يتعهد الجمال فيخفف عبء ما شكا منها بالأمس ثقل أحماله . ويحسن وضعها على ظهر ما آذاه سوء ترتيبها من قبل . ويقوم رجال آخرون فيحلون خيامنا الثلاث المنصوبة على شكل مثلث تضم أضلاعه إبل القافلة . ويفرزون ويعدون للتحميل حوائجنا التى كدسناها وأقمناها لوقايتنا من الريح الباردة

وفى هذا الاثناء أكون مشتغلا بملاحظة البارومتر والترمومتر وتدوين ما قيداه من الملاحظات فى يوميتى العامية ثم أتحقق من وجود شريط للتصوير (فلم) جديد فى آلات التصوير . أفعل هذا وأنا أسمع أصوات الرجال تشيع بين الخيام خافتة النبرات تحت ما تلثم به الرجال من الكوفيات وغيرها من الملابس ويعدّ طعام الفطور وقد يكون عصيدة أو أرزا وهما طعامان بسيطان ولكن الايدى تهوى عليهما فى كلتا الحالين بهيئة شديدة لان الانسان لا يشعر فى الصحراء بما يشعر به ساكن المدن من عدم الميل الى الفطور . ويعقب الفطور ثلاث أكواب من الشاى يحتسيها الرجال فى بطء وهوادة لان انزال البدوى على الاسراع فى تناولها يضايقه ويفقده الميل الى العمل ويجعله يتباطأ فى إنجازه

ويشعر رجال القافلة بعد الفطور بالدفء والرضا والاستعداد

للعمل فيسرعون فى تحميل الجمال رغم عناد صغارها التى لا تخلو قافلة منها والتى تمرق من تحت أحمالها وترمى بها الى الأرض بعد وضع كل شيء على ظهورها . وكان السيد الزروالى وعبدالله يشرفان على دقة التحميل والعناية به لان إضافة نصف ساعة الى الوقت المقدر لهذا توفر علينا تأخير ساعات فى الطريق اذا زلت الاثقال أو آذى الدواب سوء توزيعها على ظهورها

وتستعد القافلة للسير فأعرف الدليل اتجاه سير اليوم ويرسم خط السير فى الرمل فأحقق ذلك على إبرة البوصلة وهو يلحظنى غير راض منى بعدم الثقة فيما يقول ولكنى أرضى نفسى بذلك لانى أضمن بملاحظة البوصلة من وقت لآخر صحة اتجاه سير القافلة سحابة اليوم ولست أنكر أن ذلك الاحتراس الشديد كان ضربا من الوسواس فى نفسى لان السنوسى أبا حسن كان لا يخطىء غرضه كأنه حمامة تقصد وكرها وان كان يصيبه وسط النهار بعض الحيد عن جادة السبيل لانه يعتمد على ظله فى السير فيخونه فى الظهيرة اذا اختفى تحت قدميه . ويحار الدليل فى ساعة الغسق وهى وقت انتشار الشفق بين غروب الشمس وطلوع النجوم لان الجهات الاصلية تلتبس عليه اذ ذاك فى منبسط الصحراء ولذلك كانت البوصلة نافعة فى بعض الاحايين كما حدث يوما فى إحدى رحلاتى عند الغسق إذ

رأيت بفضلها الدليل وقد حاد ما يقرب من التسعين درجة عن سواء السبيل . ومع هذا فدقة الدليل الماهر فى ملاحظة الاتجاه الصحيح حذق خارق للطبيعة

نفرغ من مشاورة بعضنا البعض فى أمر الطريق الذى سنسلكه فى يومنا وننتهى من تحميل آخر جمل من جمال القافلة فيتقدم الدليل وتتبعه الجمال واحدا بعد الآخر ويدفىء الرجال أيديهم وأرجلهم آخر مرة على صهيد النار الخابية ثم يلبسون أحذيتهم البدوية ويسرعون الى اللحاق بابلهم وهم يغنون جذلين ينعش نفوسهم نسيم الصباح ويبعث فيهم النشاط والهمة

وتشتد حرارة الشمس بعد ذلك فاذا لم تكن هنالك ريح تكسر من شدة حرارتها نزع الانسان ما التحف به من الغطاء حول أذنيه وعنقه وانتهى به الامر الى خلع جرده ووضع مانضا من الثياب على ظهور الجمال . ثم أخذ الجميع يتبادلون النكت ويتسابقون فى العدو وهم فرحون ناشطون ثم يلتئمون بعد ذلك جماعات على طول القافلة ويتساجلون الحديث فى مختلف الشؤون وكثيرا ما كنت أتقدم القافلة أو أتعقبها على مسافة كى ألاحظ دقة اتجاه المسير بالوحدة وأشعر بالوحدة وأنعم بجمال الصحراء

وينتصف النهار فتخامرنى بعض الاحيان ذكريات بعيدة

تقطع عليّ خط التفكير فى جمال الطبيعة فيتمثل لى غشيانى المطاعم المألوفة فى المدن البعيدة واستمتاعى بمختلف ألوان الاطعمة التى أتشهّاها فى تلك الساعة من النهار فيبغتنى احمد أو عبد الله فى هذه الآونة فيضع فى يدى كيسا من البلح يمحو هذه الاحلام وان كنت ألتهم ما فيه بشهية لا أقبل بمثلها على طعام فى بلاد الحضارة والمدنية والرفاهية

ولا نقف السير لتناول الغذاء لان الجمال تأكل مرتين فى النهار .

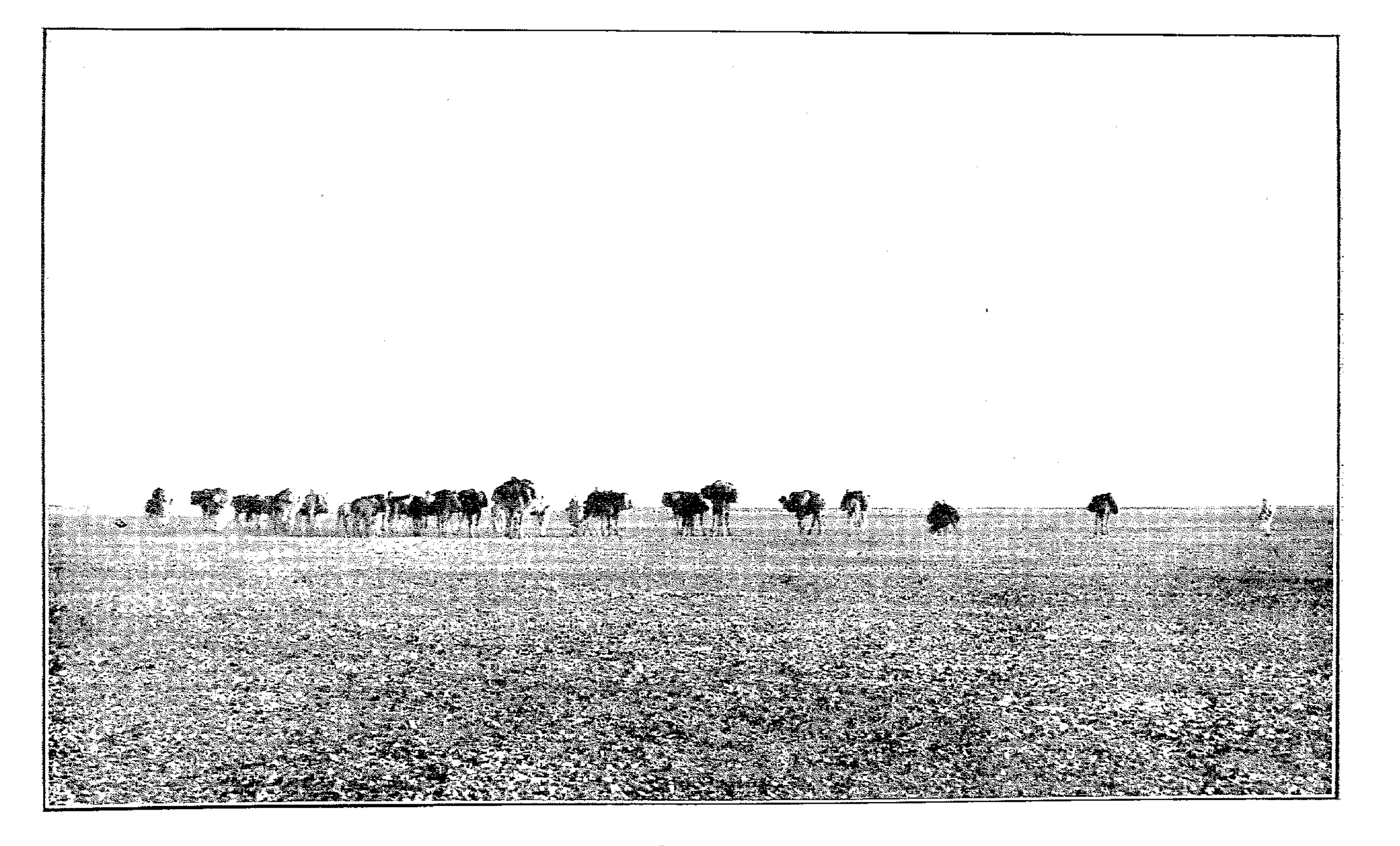
ومتى حللنا بواحة عمدنا الى أخذ حاجتنا من الخبز ولذا فانه يكون طريا عادة عند خروجنا من الواحات ويصيب كل منا رغيفا أو نصف رغيف . حتى اذا طال بنا السير بين واحة وأخرى جفّ الخبز أو نفد فقنعنا بالبلح الذى لا ينقطع عنا مورده

وكان من عادتى أن أضع خيمة مطوية على ظهر جمل من جمال القافلة حتى يرقد عليها كل متعب من السير فيستريح وكان يسميها احمد «الكلوب» وانى لأذكر أن عبدالله التمسنى ذات يوم ليعطينى نصيبى من الخبز والبلح فسأل احمد « أين البيك ؟» فقال له احمد وهو يفخر بعينيه « ان البك يتناول غذاء اليوم فى الكلوب» وقد يمتطى الانسان بعيره فيغفو قليلا على ظهره ولكنه يفضل المشى لان سير الجمل بطىء

يمكن صاحبه من ملازمة القافلة وكثيرا ما يكون السير على الاقدام أقل إنهاكا للقوى من الركوب

وقد يلوح طول اليوم مجرى من الماء يبرق أمام القافلة عند الأفق ولكن هذا المجرى الموهوم لا يقرب من رائيه ويظل يغريه ببرودة مائه وعذوبته حتى اذا جنحت الشمس للغروب امحى السراب الذى خدع الابصار طويلا . ويلوح نوع آخر من السراب فى بكرة النهار فتتراءى البلاد النائية معكوسة فى السماء على مقربة من خط الأفق . وليس هذا النوع من السراب خداعا للبصر كسابقه ولكنه صورة منعكسة للبلاد الواقعة على مسافة عشرات الأميال قدام رائى السراب وتنمحى هذه الصورة بغتة اذا توسطت الشمس كبد السماء

ويؤثر انعكاس الاضواء تأثيرا عجيبا فى نواحى الصحراء فيبدو الحجر الصغير على بعد ميل صخرة كبيرة قائمة كأنها علم من أعلام الطريق . ويتشكل هيكل الجمل أو الانسان أو جزء من ذلك الهيكل بأشكال غريبة ولا تخدع البدوى هذه المظاهر لانه خبرها طويلا . أما القول بأن السراب يغر البدوى ويضله طريقه ويورده موارد الهلاك فقول مبالغ فيه لان المتعود قطع الصحراء يميز السراب



القافلة فى عرض الصحراء بين بئر بو الطفل ومنطقة الظيغن

الحقيق وقد يتبين البلاد من رؤية صورها المنعكسة فى صفحة السماء فيساعده هذا على السير

وتشتد الحرارة بعد الظهر فيبطؤ سير الإبل ويغشى القافلة هدوء وفتور فاذا قرب المساء وبرد الجو جدّت الإبل فى السير واندفعت قبل أن تحين ساعة ضرب الخيام وحداها الرجال بالغناء يستحثونها للمسير فأسرعت هاشة لهذا التشجيع

وأغانى البدو بسيطة شعرية تنم عن حياة الصحراء . فتمثل إحداها بدويا ينتظر القافلة المنشودة فى إحدى الواحات ويغنى إبلها المقبلة بما يأتى

الليل هوَّد والمرازم[١] تاقت   وأنت لفيتى[٢] والخواطر راقت

ثم يغنى بجماله فيقول

كم منهل فى ذرا غرد[٣]   عاميه سفو التراب
جئتيه بالجوز والفرد   يا شاهره كل غابى

ويخاطب جماله فينشد

كم مَنهل بين جارات[٤]   عافيه[٥] ميّه ما لها تهيه[٦]
تجيه حتى كيف السوارات   إلّى تدق فى الخارجيّه[٧]

---

(١) ثلاثة نجوم (٢) وصلت (٣) تل من الرمل (٤) تلال حجرية صغيرة (٥) به (٦) حد (٧) أى مثل الأسورة المصوغة فى الخارج

ويحدث آخر جماله فيقول

كم علو قابلها وفيـه موايز [١]

جاءتك كما فِرَق الحمام الطاير

أما الأغنية التى أنقلها فيما يلى فتمثل مكان الجمل من نفس البدوى فهو أعز ما يملك وأضن ما يجود به وهو لا ينزل عنه حتى يموت فى سبيل المحافظة عليه . وقد يتحين البدوى الفرص للثأر من قاتل أخيه أو ابنه ولكنه إذا ضاع جمله هام على وجهه فلا يقر له قرار حتى يسترجعه ولو سفك فى سبيل ذلك دمه والمثل البـدوى يقول « اللّى ما يصونها ما هى له » وهذا ما يحدو به البدوى تنويها بجمله وافتخارا به

فى شأنك ضنا [٢] الاجواد يا حنّانه

باتـو مرامى ما هووا جبّانه [٣]

والبدوى ينشد من الاغانى ما يوافق الظروف التى يتغنى فيها . فينشد الأغنية الأولى إذا طالت عليه الشقة الى الواحة التى ينشدها ويغنى الثانية إذا قرب من الأصقاع التى تتناثر فيها تلال الرمل وينشد الثالثة والرابعة إذا أشرف على بئر ويتغنى بالاخيرة إذا دخل أرضا يسكنها أعداؤه

(١) أمارات (٢) أولاد (٣) أى قتلوا فى سبيل الدفاع عنها ولم يدفنوا

وكان من دأبي إذا حل وقت الغروب أن أسير على مقربة من الدليل حتى أعينه على السير في الطريق السويّ بواسطة إبرة البوصلة لانه قد يخطئه قبل أن تطلع النجوم فيهتدى بها — ثم ينتشر الظلام فيُعطى الدليل سراجا نسير على نوره الضئيل في تلك الحلكة الشاملة وكان كلما ابتعد عنا نوره وراغ منا كلما ازددنا اسراعا في محاولة اللحاق به . وتحب الجمال خاصة أن ترى السراج ينير في أبصارها وتندفع الى الامام في أثره .

وهكذا تمضى بنا اثنتا عشرة ساعة أو ثلاث عشرة ساعة ونحن سائرون وقد تعاكسنا المقادير فلا نسير هذا الزمن الطويل ثم تنتهى مرحلة اليوم وتحين ساعة حط الرحال فينادى الدليل « الدار يا عيّان » ويكرر هذا النداء بعده جميع رجال القافلة ثم يضمون جمالهم ويقسمونها جماعات بين حاملات الماء وناقلات الخيام وحاملات الحوائج المعدة لعمل المتاريس . وتبرك الجمال راضية عن دنوّ الساعة التى ترتفع فيها الاثقال عن ظهورها . وتأخذ الرجال في رفع أحمالها فأشرف على ذلك بنفسى خوف الاهمال فقد تتهاون الرجال بعد جهد السير في إنزال الصناديق التى تحوى أجهزتى العلمية وآلات التصوير . فيحطمون ما فيها . وتُصَف الحوائج على شكل

سدّ يدفع الريح ان كانت شديدة الهبوب وتنصب الخيام على شكل مثلث إلا اذا كان الجو صحوا والريح رخاء ولست أدرى أى الوقتين أحب الى نفسى وأمتعهـا . أهو وقت ضرب الخيام بعد سفر يوم طويل أم وقت فكّها فى الصباح استعدادا للمسير.

ثم توقد النار وتتصـاعد ألسنة الوقود فتلق ضوء لهبهـا على الرمال وتضطرم فيكون أول همنا الشاى الذى أقدر فائدته وأذوق لذته رغم اسوداد لونه ومرارة طعمه فان البدوى يأخذ «حفنة »من أوراق الشاى وأخرى من السكر ويلق بهما فى وعاء الماء حتى اذا غلى ما فيه رفعه عن النار ووزع اكوابه على إخوانه فجدد نشاطهم وأنعش نفوسهم وقواهم

ويشرب الرجال الشاى ثم يعدون العشاء ويتناولونه ويعلفون إبلهم ويستعدون للنـوم أما أنا فأكون فى ذلك الوقت منهمكا فى مقارنة الساعات الست التى أحملها وتقييد الصور التى أخذتها سحابة اليوم وتغيير «أفلام» السينما فى الظلام ووضع أسماء العينات الجيولوجية التى جمعتها وترتيب مواضعها وكتابة يومياتى وملاحظاتى العلمية وغيرها . ولم اكن لأقوى على القيام بعمل كل هذا لولا ما دبّ فى أوصالى من تأثير الشاى . وربما نشطتنى اكوابه فأحسست ميلا الى التجول فى الصحراء فاذا لم تـكن الريح باردة سرت نصف ميل وأنا

أدير البصر من وقت لآخر فأرى أشباح الرجال فوق أديم السماء عند الأفق ويبدو لعينى فيملك لبى منظر الخيام المتقاربة والحوائج المكدسة والجمال الباركة ينعكس على كل ذلك بصيص النور المنبعث من النار الخامدة فى وسط ذلك المنبسط المتندح من الرمال . ويغمرنى السكون من جميع نواحىّ فلا أسمع همس النسيم بين الاغصان ولا خرير الماء فى الغدران كما يسمعها المنفرد فى الاحراج الملتفة الاشجار ولا يقع فى أذنى صوت الامواج وهى تتكسر على جوانب السفينة كما يصغى اليها راكب البحر

غمرتنى سكينة السكون حتى

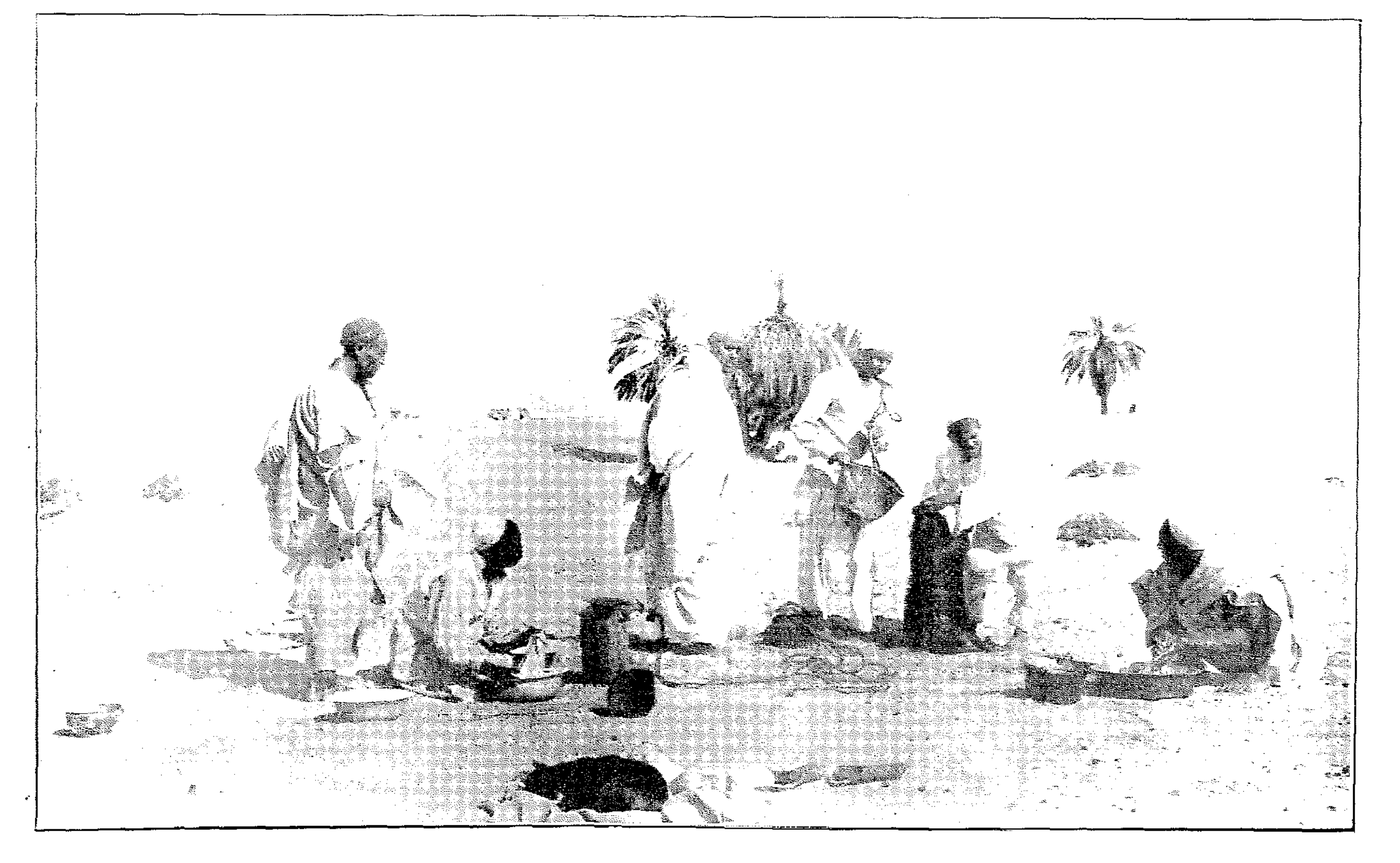
كدت أصغى الى حديث السكون

الفصل الحادى عشر

الطريق الى بئر الظيفن

سأقيد من الآن فصاعدا ما كتبته فى يومياتى يوما بعد يوم
الاحد ١٨ مارس :

قمنا الساعة التاسعة صباحا ووقفنا الثامنة والنصف مساء . قطعنا ٤٦ كيلو مترا . كانت أعلى درجة للحرارة ٢١ واسفلها ٣ كان اليوم غائما والمساء صحوا . أمطرتنا السماء رذاذا بعد الظهر وثارت ريح عاصفة من الشمال الشرقى تحولت الى زوبعة رمال فى منتصف الساعة الثالثه وسكنت الريح عند الغروب ثم ثارت ثانية فى الثامنة مساء . الشمس غائبة والدليل حائر بعض الحيرة فى تحديد الجهات كما أتبين ذلك من ملاحظة البوصله . ظهرت الشمس فى منتصف الساعة السادسة فأقام الدليل معوج سيره . ظهرت نجمة القطب فى السابعة والنصف فاهتدى بها . ويسمى العرب هذا النجم (الجدى) . الارض منبسطة كعهدنا بها أمس ولكنها متموجة الأديم قليلا يتناثر عليها أكوام الصوّان الكبير القاتم اللون



بئر الحرش فى الكفرة منطقة الظيغن

وأصبح الصباح فطرب رجال القافلة حين رأوا عند الافق عقدا من الاشباح ينبيء باقتراب طليعة قافلة . وتحققت القافلة بمنظارى وأدرته على الرجال فنزعنا البنادق من اماكنها على ظهور الجمال وأسرع رجال (التبو) الى رماحهم واصطف الجميع على ناحية القافلة القريبة من القادمين وصوّبوا الابصار يقظين حتى يتأكدوا من سلام القادم أو عدائه

ولم يمض بنا القليل حتى تيقنا صداقة القادمين فتلاقى رجال القافلتين وجلسوا القرفصاء يتبادلون الاخبار تاركين جمالهم تسير بطيئة الخطو وكان الحديث دائرا عمن تزوج اومات او أثرى متناولا مانشأ من طلب ثأر جديد وما قرّ من عداء قديم ثم قام الرجال مودعين داعين بالتوفيق ولحق كل فريق بقافلته . ولعمرى ان هذه المقابلة المفافة فى صميم الصحراء هى عند العرب بمثابة البرقيات اللاسلكية

الاثنين ١٩ مارس :

قمنا الساعة الثامنة والربع صباحا ووقفنا فى الثامنة والنصف مساء وقطعنا ٤٩ كيلو مترا وكان اعلى درجة للحرارة ٢٢ وأقلها ٥ . وكان الجو صحوا جميلا وقامت ريح قوية من الشمال الشرقى وقرت عند الظهر وانتشر فى العصر سحاب صبير وكانت الشمس شديدة الحرارة تعوقنا عن الاسراع فى السير حتى اذا حل المساء رطب الجو

نجدنا فى السير . وكانت الارض منبسطة صلبة يكسوها بساط من الحصى الرقيق وفى السادسة مساء قطعنا منخفضا من الارض قد قامت على جانبه الايمن صخرة رمادية اللون وقامت على بعد كيلومتر منها الى اليسار صخرة بيضاء

كنا فى هـذه المرحلة نَخُبّ فى السير وكان البـدو والعبيد يتسابقون ويقفزون . وعبيد التبو سذج على الفطرة سليمـو النية فقراء حريصون على ما يملكون فيلبسون قميصا من القطن وسروالا يحافظون عليهما كل المحافظة ويتمنون لو ظلا على اجسادهم أبد الدهر . فاذا امتطى أحـدهم جملا خلع سراويله خشية أن تبلى أو تتقطع ثم علقها على ظهر الجمل فاذا أراد النوم خلع ملابسه خيفة أن تحتك بالرمال فتبلى ويكتفى بالالتحاف بمعطفه الفرو . وحدث أن البدو أخذوا سراويل أحد العبيد وهو على ظهر جمله ثم أخفوها فلما ترجّل والتمسها فلم يجـدها خاف أن تـكون قد زلت عن الجمل وسقطت على الارض فى بعض نواحى الطـريق فاسرع بالعـودة جاريا ملء ساقيه يبحث عن ضَنَائنه وأوغل فى الصحراء حتى لم يبن منه الا شبح ضئيل فى ذلك المنبسط الممتـد من الرمال . فاشفقنـا عليه واطلقنا النـار ندعوه فعاد بعـد تردد وانضم الى القافلة كاسف البـال غير أن طرب المازحين به كشف له عن سر الامر فردّت

اليه سراويله وكان سروره باسترجاعها شديدا فلم تغطه تلك المداعبة الثقيلة

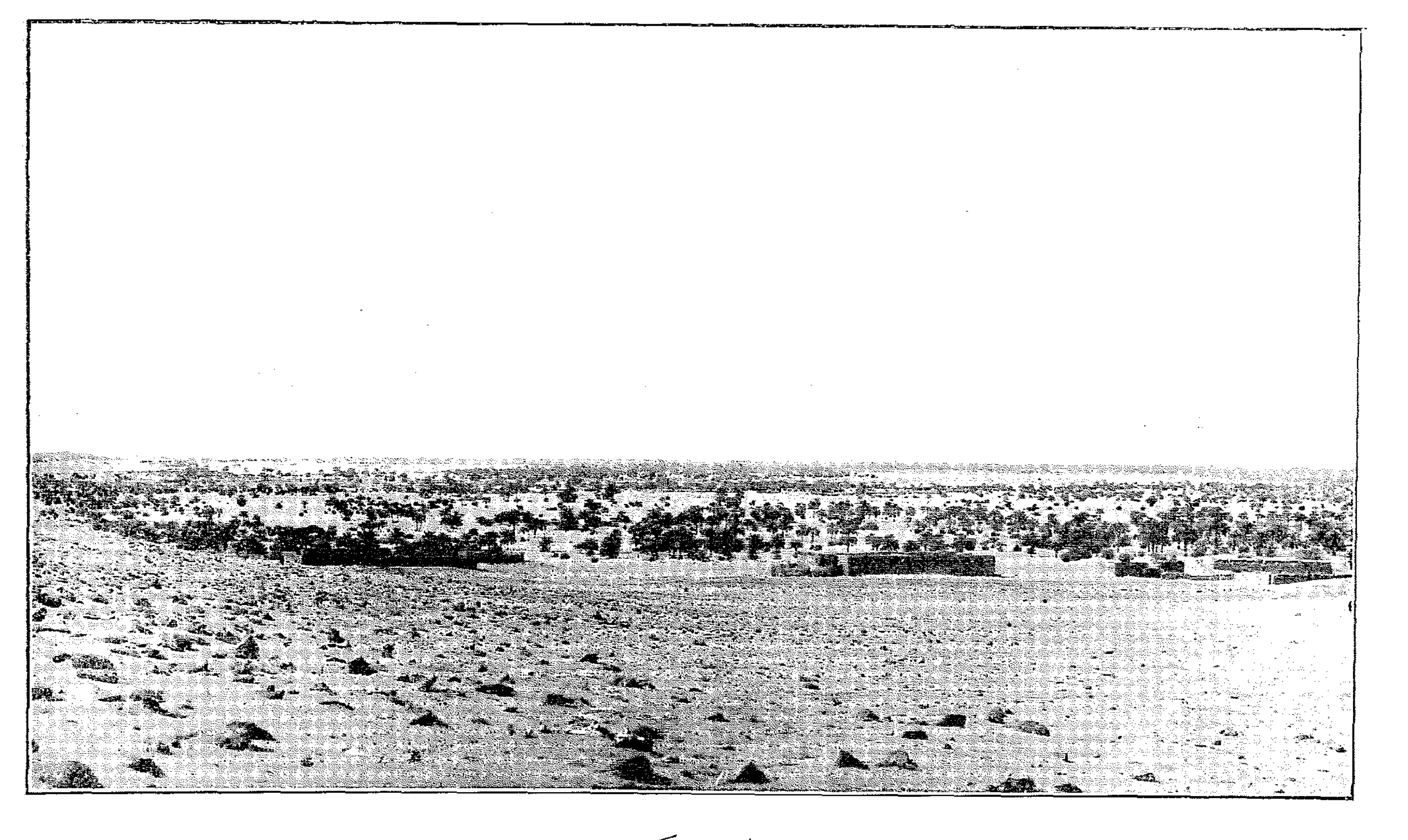
وحدث فى الليلة الماضية ان اغار الجمال على خيمتى وهددتنى بهدمها علىّ . والإبل دواب شديدة الذكاء تحب ان تحك رقابها على حبال الخيام فاذا نام رجال القافلة جاست خلال الخيام تطلب ذلك فيدخل أحدها رأسه من ثنايا الخيمة حتى يتحقق نومى فاذالم يسمعنى أنهره علم أنى غارق فى سبات عميق فاخرج رأسه ثم بدأ فى حك رقبته على الحبال وبعد قليل ينضم اليه الكثير من إخوانه ثم يأخذ الجميع فى هذا العمل حتى أفزع من نومى ظنا منى أن العواصف الشديدة تزعزع أركان خيمتى

ومرت بنا الايام فما ازددت الا وثوقا بابى حليقة وتقديرا له فقد كان رجلا قليل الكلام ذا قلب كبير ونفس خيّره . وكان موضع احترامنا جميعا لكبر سنه وشيبه لان رجال الصحراء يجلون رجل التجاريب الذى لقنته السنون دروس الحكمة ولذلك كنت انا والسيد الزروالى نستضىء برأى أبى حليقة من وقت لآخر وكان حاذقا فى عرض آرائه علىّ وكانت من العقل بحيث أقدرها حق التقدير . وكان دائم العناية بجماله لاينى سحابة يومه عن إرسال صوته الرنان

فى الغينة بعد الغينــة يخاطب رجاله أو جماله . فيقول لعبده ابراهيم «إن الجمل الابيض تعب فلتخفف بعض اثقاله فى الغد وتضعها على ظهر الجمل الاسمر » ثم يلتفت الى بقية الرجال فيقول « ناجوا الجمال ايها الرجال وغنّها صوتا يا ابراهيم » وما أصدر ابو حليقة هذه الاوامر الا لعامه أن التشجيع يدفع الإبل الى الإيجاف فى السير ثم ينادى جماله فيقول « اتبعَى الدليــل أيتها الإبل العزيزة » وينظر الى حمد فيقول « ناشدتك الله ياحمد الا عدلت سرج هذا الجمل فانه يؤذيه» ويظل على هــذه الحال من الإشراف على القافلة حتى اذا انتشر الشفق قال أوقدوا السراج فان الجمال تحب النور

وانما تظهر قيمة الجمل بعد اختبار طويل فهو ذكى كالجواد إن لم يكن اذكى منه وهــو اطيب منه نفســا فى بعض الاحايين فان العرب تقول بحق « هــذا الرجل صبور كالجمل » وإن آذى رجل جملا حمل الأذى فى نفسه ولم ينتقم على الاثر ويصبر له حتى يتكرر الأذى منه فيفكــر فى الانتقام ولا يوقعه به والقوم حوله بل ينتهز فرصة انفراده به ليجزيه الجزاء الحق فيغير عليه ويلقيه على الثرى أو يرفسه ثم يطأه بخفيه

وقد حدث أن جملا داس أحد الرجال ثم برك عليه وأبى أن



وادى الكفرة

يتحـرك عنه رغم ما لاقى من ضرب رفقاء ذلك التعس الذين جروا لانقاذه .وظل الجمل باركا فوقه حتى مات

وقد يظن البعض أن جمـال القافلة يُربط بعضهـا الى بعض ويقودها الدليـل ولـكن الواقع أن الجمل يصعب ابعـاده عن بقية القافلة لانه يعرف بغريزته أن تركه وحيدا يجلب عليه الموت ولذلك يظل ملتصقا بالقافلة جهد الطاقة وان لم يربط الى سائر اخوانه

ومن آلم المناظر رؤية جمل جهد فى الطريق وهو يحاول اللحاق بالقافلة فانه يحكى اذ ذاك الجندى المحارب أثناء التقهقر يعتريه الجهد والاعياء فلا يستطيع مسايرة اخوانه الجنود وهو فى الوقت نفسه يعرف أنه ليس فى ميسور أحدهم أن يحمله ويسير به كما يعرف أن فى التخلف عنهم موته المحقق ويظهر الجمل ذكاء شديدا بعد إخراجه من الواحة والقذف به فى الصحراء فانه يحاول فى المساء أن يتسرب فيعود الى الواحة وان مر على تركها ثلاثة أيام أو أربعة . وقد وقعت غير مأساة للقوافل التى تركها جمالها ليلا ضاربة فى أحشاء الصحراء أو قافلة الى معاطنها والرجال على بعد أيام من البلد الذى يقصدونه . وربما حدث حادث للقافلة يمنع رجالها من اتمام رحلتهم فتتمها الابل التى طرقت تلك السبيل سنين عديدة وخبرت دروبها

وقد حدث بينما كنا نقترب من جالو بعد تركنا خيام البدو الذين استكرينا ثلاثة من جمالهم أن جملا فتك به الداء وانقطع أملنا منه

فقسم أصحابه حمله على الجملين الآخرين وترك فى الصحراء رغم الحاحى عليهم بقتله ليرحموه من آلام الموت البطىء . وقد عرضت عليهم ثمن الجمل إن سمحوا لى أن أقضى عليه ولكنهم رفضوا قائلين أن هذا الجمل كريم الاصل وهو منهوك القوى لايلبث أن يعود الى خيامه بعد أن يستريح » وقد علمت بعد ذلك أن الجمل عاد فعلا الى معطنه وأنه أجود صحة

ويحس الجمل أن له دليلا فاذا وقفنا فى وسط الصحراء نتناقش فى أمر السبيل التى نسلكها اجتمعت الجمال حول الدليل حتى يسير فتتبعه غير حافلة بسائر رجال القافلة

ولا يتقدم الجمل الدليل فى العادة فاذا سار قدامه غير حافل به فاعلم ان الصلاح فى اتباع ذلك الجمل اذ من المحقق انه يعرف المكان الذى تريده القافلة

ويقول البدو ان الجمل الذى رعى مرة فى واحة لا يخطىء السبيل اليها وان فصلتهما الايام الطوال . وللبدو قصة منافسة مشهورة يزعمون انها وقعت بين قطاة الصحراء والجمل. تقول القطاة « إنى لأضع بيضى فى الصحراء وأطير أياما ثم أعود لفقسه ». ويجيب الجمل « ان أمى اذا شربت من بئر ولم أزل فى بطنها سافرت أياما ثم عدت فشربت من نفس البئر »

وقد رأيت بعينى جملا تقدم القافلة ونحن على مسيرة أربعة أيام من بئر ذاق ماءها قبل ذلك باربع سنوات . ويعرف الناس قصة عن جمل أنقذ قافلة فى سفرها من الواحات الداخلة الى واحة العوينات . كان دليل تلك القافلة موغلا فى الصحراء متبعا فى سيره وصف أحد أصدقائه فأخطأ السبيل لانه لم يطرقها من قبل وهامت القافلة على وجهها اثنى عشر يوما. ونفد الماء وفقدوا الرجاء فاندفع الجمل بغتة وتقدم القافلة فسارت فى أثره ونجت لان ذلك الجمل سافر الى العوينات قبل ذلك ببضع سنين فنشق الماء كما يقول البدو على مسيرة يومين وأوصل القافلة الى إحدى الآبار

ويستطيع الجمل المتدرب أن يسافر أسبوعين فى الشتاء من غير أن يذوق الماء وقد يصبر عنه فى الصيف اثنى عشر يوما . ويعلف البدو جمالهم حشيشا اذا امكنتهم الفرص حتى اذا رموا بها فى الصحراء أطعموها بلحا جافا أو شعيرا . وأغلب جمال برقة إبل «حملة» وأسرع الإبل عدوا جمال قبيلتى (التبو) و (الطوارق) التى تمتاز ببياضها ونحافة أوصالها ورشاقتها . ويقطع جمل الحملة ٢٥ ميلا فى اليوم ويسير الهجين الطوارقى أربعين ميلا وربما قطع ستين دفعة واحدة

وقد يكون الجمل مخلصا لصاحبه محبا له فان الناقة الكريمة

لا ترضى ممتطيا لها غير صاحبها . والعادة ان يحمل الماء على ظهور الجمال المسنة الرزينة التي لا يخشى من نزاقتها على ما تحمل من القرب . وهى تعلم انها تحمل أعز حوائج القافلة . فاذا انتهى سير اليوم وحانت ساعة رفع الأحمال انتحت ناحية بعيدة عن بقية الجمال خوفا على القرب التى تحملها من الاصطدام وانبجاس ما تحمله من الماء . وقد رأيت جمالا تحوم حول الخيام ثم تقترب من قرب الماء الملقاة على الارض بعضها الى بعض وهى مغطاة بحَيطة وتحفظ حتى لا تطأها باقدامها كأنها تشعر بقيمة تلك القرب وأهمية ما تحويه من المياه فتدور حولها . وقد اخترت جملا فاخذته مدة طويلة يحمل خيمتى وكتبي وأجهزتى العامية وإنما وقع اختيارى عليه لقوته وكبر سنه . وكان من عادته اذا أصبح الصباح و بدأت عملية التحميل ان يقصد خيمتى من تلقاء نفسه ثم يبرك بالقرب منها انتظارا لوضع الاحمال فوق ظهره

والجمل بعل غيور والناقة زوج مخلصة . والناقة لا تترك سيدها ووليها من الجمال فتتبعه أينما ذهب والويل للجمل الذى تحدثه نفسه بالاعتداء على ناقة جمل آخر

وقد اعتدت كل صباح ومساء أن أساير ابا حليقه وأحادثه عن الجمال والصحراء وتاريخ البدو فكنت لا أجبهه بالاسئلة تفاديا من اساءته الظن بى لان البدو سريعو الريبة يشكون فى الدافع الى

سؤالهم . وكنت رغم حبي للعرب و بلادهم أجد نفسى مضطرا الى تجنب ما يثير الشكوك والتحايل فى الحديث على فهم الكثير من الآراء والمعلومات

وقد قال لى ذلك الشيخ الوقور « أتى على قومنا حين من الدهر كانوا يجهلون فيه الكفرة . ولاحظ بدوى من قبيلة الغوازى فى الأبيّض — وهى واحة صغيرة قريبة من بئر أبى الطفل — ان غرابا دأب على الطير صوب الجنوب كلما أشرقت الشمس والعودة ثانية بعد ذلك فراقبه البدوى زمنا طويلا ثم قام يتبعه فى مطاره الى الجنوب وأوغل فى الصحراء حتى وصل واحة « تيزربو » فقضى يوما فى ظاهر الواحة ولقى الماء الذى يرجعه الى وطنه فرجع وأخبر اخوانه بوجود نخيل وماء فى صميم الصحراء . فاجتمعوا وأغاروا على « تيزربو » وافتتحوها . ثم تقدموا الى « بوزيمه » و « ربيانه » و « الكفرة » وهذه هى الطريقة التى وصل بها البدو الى الكفرة »

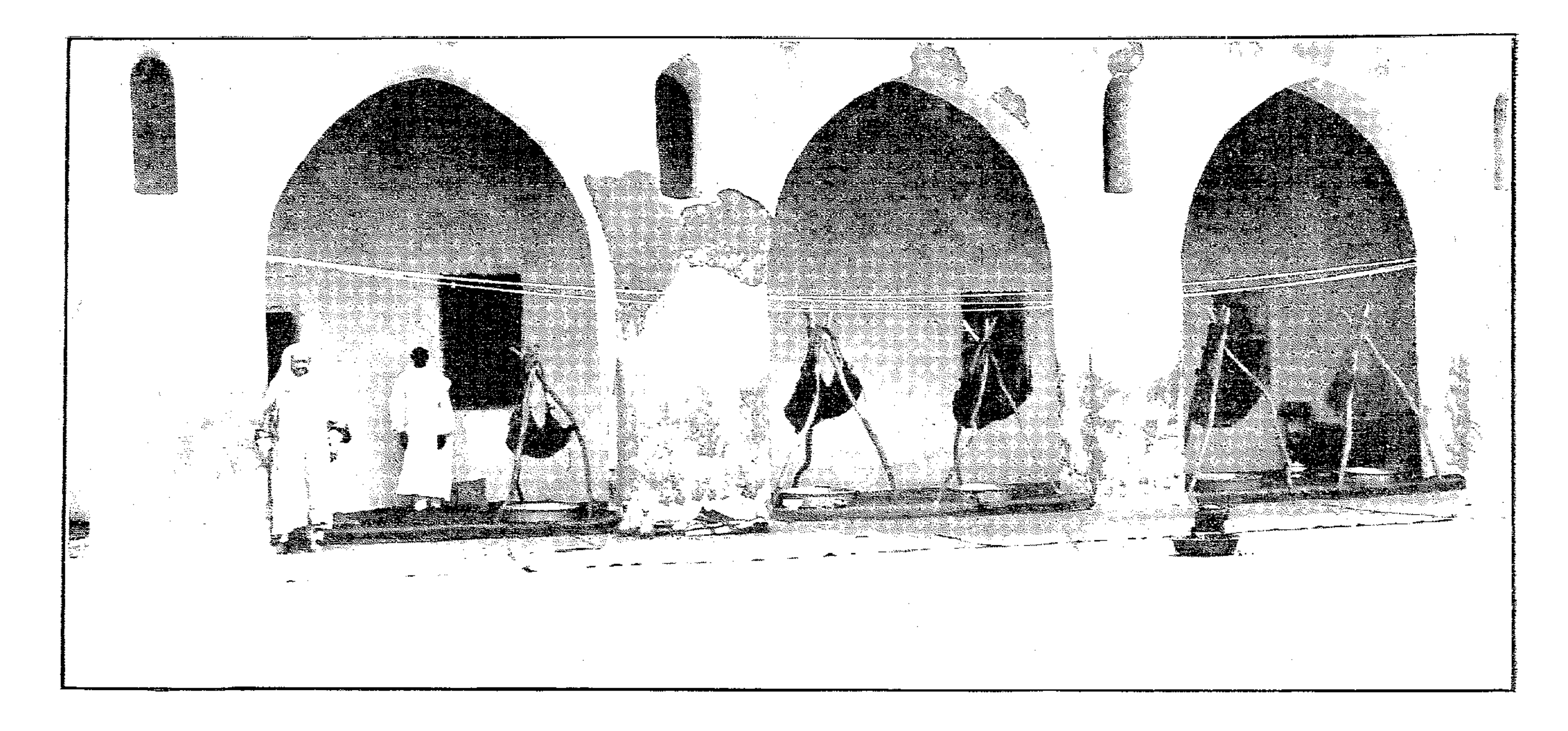
وراقنى جواد أبى حليقة منذ رأيته أول مرة فى جالو فتاقت نفسى اليه وسأل عبد الله ان كان فى الامكان شراؤه فطلب فيه صاحبه ثمنا باهظا ولذلك أظهرت عدم الاهتمام وتركت الامر للظروف . وكان أبو حليقة لا يسمح لأحد من أفراد أسرته بركوب هذا الجواد لأن كرامته لا ترضى ذلك ولكنه تفضل فسمح لى أن أمتطيه كلما

أردت الركوب فأكثرت من ركوبه حتى خُيِّل أنى صاحبه دون أبي حليقة

وتعب ثلاثة من الجمال فبركوا من غير أن يأذن لهم أحد وليس من عادة الجمال أن تفعل هذا مالم يكن هناك سبب قوى فرفعنا أثقالهم طلبا لإراحتهم وأضعنا بعض الوقت فى ذلك ولكنا استعضنا مافقدناه فى نسيم المساء

وقد وضعت نُصب عينى أن أحادث يوميا كل رجل من رجال القافلة فسهل ذلك مجرى الأمور ومكننى من استقاء بعض المعلومات من وقت لآخر . فعلمت أن البدوى يميز أثر جماله ويمكنه أن يتبين ان كانت الجمال التى سبقته فى الطريق ملكا لرجال قبيلة مجاورة له أم لا. ويعرف أيضا جمال التبو من شكل اخفافها واقتفاء خطواتها . وجمال التبو أصبر جمال البدو على السير ويمكن استخدامها فى الشمال بصحراء برقة وفى الجنوب باراضى السودان . والكفرة محطة لاستبدال جمال القوافل التى تسير شمالا وتنحدر جنوبا

وقد أخبرنى الدليل أبو حسن بحيلة يعملها البدو حين يطلقون جمالهم أو ماشيتهم ترعى فانهم يحلبون الإبل والماعز فى الصباح ويدفنون قرب اللبن حتى يظل رطبا ولكن لصوص الصحراء من المهارة بحيث يعرفون مخابئ هذه القرب ولذلك يدفن العربى الماكر



منزل السيد العابد السنوسي بالكفرة

قربتين احداهما تحت الأخرى ويملأ السفلى منهما لبناعذبا والعليا لبنا حامضا . ويقع اللص على القربة العليا فلا يبحث عن غيرها . وهكذا يجد صاحب القرب لبنه العذب سالما عند عودته مساء

ورأينا اسرابا من صغار الطير تخف الى الشمال وكان بعضها من التعب بحيث أقبل على ما قدمنا له من الماء وقد جثم أحدها على يدى ليشرب . ويرى الانسان على مقربة من الآبار النزرة الماء نثارا من الأجنحة والريش والعظام يفصح عما حدث لاصحابها من مأساة . فقد تكون هذه البقايا آثارا لبعض الطيور الرحالة التي وقعت على البئر وقضت أياما على حافتها تسترد قواها لاستئناف المطار وتعيش على الماء الذى لم تجد صعوبة فى الوصول اليه نظرا لان بعض القوافل حفرت تلك البئر حديثا . وتأنس الطيور الى تلك البئر ثم تنهال الرمال عليها شيئا فشيئا حتى تملأها فيجف الماء ولا يبقى من البئر إلا ثرى من الرمل ندىّ فتموت الطيور عطشا . وربما وصلت الطيور الى تلك البئر الجافة وقد أنهكها التعب فعجزت عن الطيران مائة ميل أو مائتين للبحث عن الماء فظلت مكانها حتى تموت عطشا

ومررنا فى الساعة العاشرة والنصف صباحا بتلال من الرمل تسمى « الخويمات » على بعد ثمانية أو عشرة كيلومترات من يسارنا

وكانت هذه التلال كاسمها تحكى خياما صغيرة بيضاء قد نصبت على رمال الصحراء وفى منتصف الساعة الخامسة مساء رأينا عن يسارنا على بعد ثلاثين كيلومترا علما يسمى « الفريّق » أى فريق صغير من التلال المتجاورة وهو عبارة عن أربعة تلال رملية على صف واحد . وفى الساعة السادسة وربع لحظنا قمة علم آخر فى الجهة الجنوبية الشرقية يسمى (المعزول) وقد سمى كذلك لأنه بمعزل عن بقية التلال . وكان هذا العلم غير واضح لبعد المسافة

وقد أنعش نفوسنا رؤية هذه الأعلام واستدللنا منها على تقدمنا فى السير وزاد فينا اليقين ان دليلنا رجل قادر بالرغم من أن البدو يقولون فى أمثالهم «لا يعرف الدليل الماهر الا بعد الوصول الى البئر». ولهم الحق فى ذلك لأنهم فى الطرق الخالية من الأعلام لا يتحققون صدق الطريق الا فى نهاية المرحلة

وأظهر السنوسى أبو حسن حدة بصره العجيبة حين أخبرنا فى بكرة الصباح قبل حل خيامنا أنه رأى علم (الخويمات) رغم ضباب الصباح ولم يتمكن رجال القافلة من تحقيق هذا الخبر حتى رأوا العلم بأعينهم بعد ذلك ببضع ساعات . ومررنا فى طريقنا فى العصر بهيا كل بيضاء لبعض الجمال فكان لذلك فى نفوسنا فرح شديد . ولا عجب فى ذلك فالبدوى يحب رؤية عظام الجمال

لسببين أولهما أن أى شارة تدل على مرور أحد قبله تشجعه على السير في تلك المفاوز المتشابهة . وثانيهما أن عظام الجمال اكثر ما تكون على مقربة من الآبار لأن الجمال اكثر ما تكون تعرضا للموت في نهاية الرحلة حين يرهقها أصحابها وقد عز الماء . ولا يحب البدو أن يستعملوا كلمة هيكل للدلالة على بقايا تذكرهم بالموت فيطلقون عليها كلمة غزال

الخميس ٢٢ مارس :

صحوت فى منتصف الساعة السادسة صباحا فشاهدت شروق الشمس عند الساعة السادسة و٢٧ دقيقة وقيدت ذلك . و بدأنا السير فى الساعة الثامنة فقطعنا ٤٨ كيلو مترا فى أراضى منبسطة من الرمل المتماسك والحصى . وقد ظلت تلال (المعزول) طول الصباح عن يسارنا على بعد ٢٥ كيلو مترا ولكنا تجاوزناها بعد الظهر

وقد سمعت فى الصباح مناقشة بين الزروالى وعبد الله فى أمر تلك الأصقاع الممتدة التى كنا نقطعها

قال الزروالى « إن أرضنا مقدسة »

فرد عليه رجل مصر ساخرا قائلا « نعم إن لها مستقبلا عجيبا وانى لأعتقد أن سيكون فيها موقف الحشر لأنها المنطقة الوحيدة التى أوجدها الله سبحانه وتعالى حفراء قفراء واسعة بحيث تسع العالمين »

وكان عبيد التبو يجرون يمينا ويسارا ويتقدمون القافلة للبحث عن روث الجمال ليتخذوا منه وقودا فقد اعتادوا أن يعيشوا بمعزل عن بقية أفراد القافلة ومالت نفوسهم الى الاستئثار بنار خاصة يوقدونها ليلا على مسافة قصيرة من مضرب الخيام . وكان روث الجمل كل ما تصل اليه أيديهم من الوقود فكانوا يستفيدون من سرعة عدوهم ويحيدون عن طريق القافلة مسافات بلغت أربعة أميال فى بعض الاحايين للبحث عن هذه المادة الثمينة !

وكان البدو لا يرضيهم عادة هؤلاء العبيد من سبق القافلة وجمع الروث . ولكن العبيد لم يخرجوا فى ذلك عن قوانين الصحراء التى تقول « إن أول من يضع يده على شئ فى الطريق مالك له بدون منازع » . ولكن البدو كانت لهم حجة يدفعون بها هذا الحق فكانوا يقولون للعبيد : « ليس لكم دليل يتقدمكم ولا أنتم راضون أن تتقدموا القافلة خوفا من حمل جمالكم على السير بضرب العصى وتنتهزون الفرصة فتتركونها لانها تتبع جمالنا وتجرون لجمع الروث ؟» . ويقول العبيد « تريدون أن تقود جمالكم فتسبقونا الى جمع الروث الذى هو ملك لنا لانا أول من يعثر به وأنتم سائرون الى جنب إبلكم » . واشتد النزاع بينهم فسألونى حكمى فقضيت أن الحق فى جانب البدو وأن ليس للعبيد حق فى الاستئثار بالروث ولكنى

مع هذا كنت لا أمنع إعطاء العبيد طعاما ساخنا من المؤن العامة كل مساء لفقرهم المدقع ولقلة ما لديهم من المؤن التى جاءوا بها لانفسهم

ويختلف عبيد التبو عن البدو فى كثير من الخصال والعوائد . فالعبيد قلما يستعملون النار فى تحضير طعامهم وإن أنسو اليها وفرحوا بها وهم يجففون لحاء النخلة عند قمتها ويطحنونه ويصنعون من ذلك مسحوقا يضيفون اليه بلحا وجرادا مسحوقين . وهم لا يدعون أحدا الى اقتسام طعامهم كما يفعل البدو ولا يتأخرون عن تلبية الداعى الى طعامه . والبدو يأخذون عليهم هذه النقيصة

وعبيد التبو يتعمدون ان لا يتركوا فى طريقهم شيئا من أشيائهم لانهم يخافون خرافة مؤداها : أن من يلتقط شيئا سقط منهم لا بد أن يستولى عليهم يوما من الايام

وهم قوم ذوو أجسام متينة البناء وأهل جد وعمل ولكنهم شديدو السذاجة فى نظام معيشتهم وتفكيرهم . على انهم الآن آخذون فى الاختلاط بالبدو ومحاكوهم فى كثير من طبائعهم

ومرض أحد الجمال فى ذلك اليوم فلازمه أبو حليقة ثم حجمه عند ذيله ورجونا أن يكون أتم صحة بعد راحة الليل

وكان معنا المقدار الكافى من الماء فاتفقنا أن نتناول كوبا من الشاى فتقدمت القافلة مع أبى حليقة والزروالى وعبد الله وأخذنا

الدليل حتى يحدد لنـا الطريق السوى حتى اذا صرنا على مسـافة كافية أسرعنا في ايقاد النار وغلينـا الشاى ولحقت بنا القافلة فناولنا كل رجل يمر بنا كوبا من الشاى . ولم تقف القافلة عن السير أثناء ذلك حتى إذا مر بنا آخر الجمال جمعنـا حوائجنا ولحقنا بالقافلة وهى تسير سيرا بطيئا وكان أبو حليقة يمتطى جمله والزروالى وعبـد الله يركبان جملا واحدا وكنت معتليا ظهر الجواد

ولا يسعنى هنا الا الإقرار أن الجواد «بركة» كان شديد النفع لى فى كثير من المواقف فكنت أجمع به الابل من مراعيهـا التى لا تتركها الا بعد تردد وامتناع شديدين . وكنت اركبه لزيارة الاماكن الشيقة اذا وقفنا فى واحة من الواحات تاركا الابل تستريح أو ترعى . وكنت أتقدم به القافلة وأتخلف عنهـا لعمل بعض الملاحظات أو الحصول على بعض العينـات الجيولوجيـة وكنت أظهر فوق متنه بمظهر لائق بشيخ فى طليعة قافلته حين تدخل واحة أو تتركها

الجمعة ٢٣ مارس :

قطعنـا ٣٦ كيلو مترا وهبّت فى ليـلة الامس ريح قوية من الشمال الشرقي ، بدأت فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . وظلت الريح تهب طول النهار واشتدت بين السـاعة الواحدة والثالثة ولم تقر الا عند المساء . وكان الجوّ معتدلا صحوا قرب المساء



السيد العابد السنوسي وكيل السيد إدريس وابن عمه بالكفرة

و رأينا فى الساعة الخامسة مساء تلال الرمل المسماة « المعازيل » على مسافة ٢٥ كيلو مترا فى الجهة الجنوبية الشرقية

وراق الرجال أن يسيروا عامة اليوم فأبدوا مجهودا كبيراً للبدء بالسير فى الساعة الثامنة قاصدين أن يمشوا ١٢ ساعة ولكن الجمل المريض عاقنا عن تحقيق هذه الفكرة فقد ضعف حتى اضطررناه الى النهوض حين حان وقت الرحيل . وهز أبو حليقة رأسه ثم قال : « سيكون لحم هذا الجمل طعاما لنا قبل انتهاء اليوم » وبعد ذلك بساعتين برك الجمل وأبى أن يقوم فذبحه رجال أبو حليقة بعد ذلك بقليل وتركنا ثلاثة رجال وجملين لحمل لحمه واللحاق بنا ولم نكد نسير قليلا حتى جاءنى أبو حليقة يتخطر على ظهر جمله ثم قال « إنه جمل سمين فلنقف قليلا »

ووقفت القافلة لعامى بميل البدو الى أكل اللحوم وأوقدت النار وأُديرت قطع الشواء على الرجال فأكلوا إلا أنا وخادماى المصريان. وسألنى أبوحليقة عن امتناعى فأخبرته أنى لا أميل كثيرا لأكل لحم جمل مريض . فقال « إنه خير من السمك الصغير (يريد علب السردين التى كانت معنا) فقد رأينا الجمل يذبح ولكن من يدرى ماذا أصاب هذا السمك الصغير بعد اخراجه من البحر»

وجفف البدو ما بقى من لحم الجمل ثم نسلوه خيوطا دقيقة

يضعونها فى أرزهم وعصيدتهم بعد ذلك . وعند استئنافنا السفر بعد الظهر قال لى أبو حسن « سنسير حتى يغيب الهلال فنتمكن بذلك من تناول غذاء باكر عند البئر » ولكن (الجدى) حجبته السحب قبل أن يغرب القمر فاضطررنا الى الوقوف وضرب الخيام عند الساعة العاشرة والنصف مساء خيفة أن نضل الطريق »

ولم يكن فى هذا الجزء من الصحراء شىء يستكشفه الانسان فيما يرى حوله ولكنه يسمع فى ذلك السكون نجوى نفسه فتستجيش عواطفه . ويزيد هذا الشعور فيه أن نَسِى المدن والتفكيرَ فى العودة اليها وعاش للساعة التى هو فيها فاستمد منها كل سرور وطرب

ورأيت السيد الزروالى عند الغروب يخط فى الرمل لمعرفة البخت كما يقول البدو . وكان يرفع عينيه من وقت لآخر فيتركهما تهيجان بين ثنايا ألوان الغروب الزاهية لأن البدوى لا يتمالك نفسه من أن يحب الطبيعة ويقدر جمالها

وتعاقبت الأيام متشابهات وكانت الصحراء خالية من الأعلام ليس فيها الا بعض هياكل الجمال أو الحصى الصغير حتى إنه ليخيل لرائى الصور التى أخذتها فى تلك الجهات فى بحر سبعة أيام أنها تمثل مضرب خيام واحد صوّر من جهات مختلفة . وهكذا لم يكن

هنالك شيء يشغل العقل أو يقطع خيط التفكير

يا لها من صحراء خلابة ساحرة تستهوى العقول بما فيها من وحشة وعزلة . ففى تلك الفيافى المترامية وفى ذلك القفر الموحش يتجرد العقل والجسم من أدران الحياة . وفى ذلك الفضاء الشاسع تقضى اليوم بعد اليوم وتقطع الليلة بعد الليلة . . . ويخيل لك أنك ستستنفد سنوات حياتك السنة بعد السنة والعقد بعد العقد دون أن تجد منه مخرجا أو له آخرا . وفى تلك اللا نهاية ترى نفسك وقافلتك ذرة من ذرات الرمال التى تطؤها قدماك وتتجلى لك عظمة الله وقدرته وتتضاءل نفسك فى عينيك وتشعر بأن وسائلك فى المدن لا تغنى فتيلا فى الصحراء وتحس أنك ضعيف الحول قليل الحيلة لا سبيل لك الا أن تهديك يد القدر

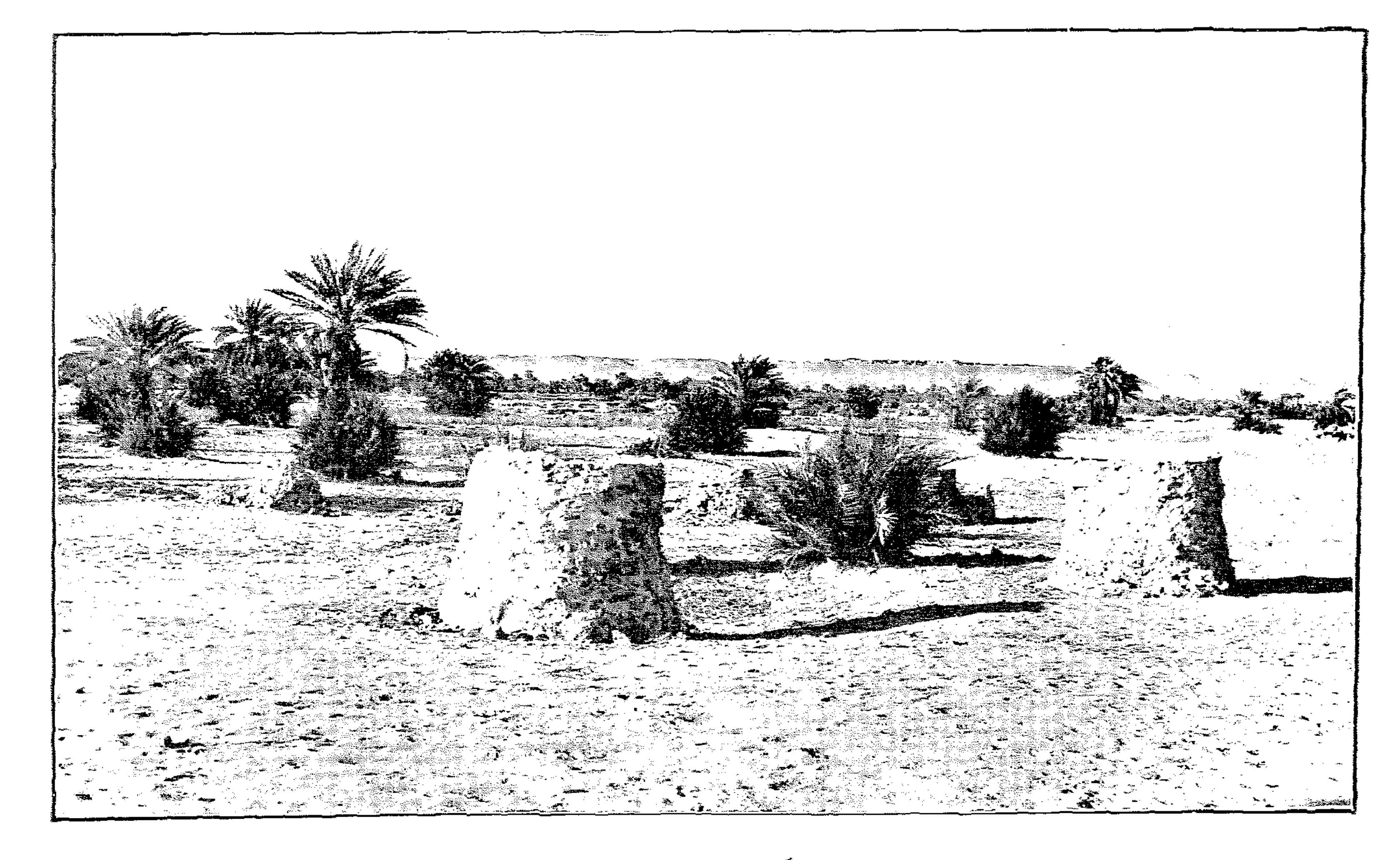
السبت ٢٤ مارس :

صحونا متعبين فى الخامسة والنصف صباحا لأننا لم نم ليلة أمس إلا الساعة الثانية صباحا . وكان اليوم صحوا . وهب نسيم من الشمال الشرقى فى الصباح وقر عند الظهر فزاد فى دفء الجو . وقامت ريح شديدة من الشمال الشرقى فى العاشرة مساء

وأخذت نواحى الصحراء تتغير قليلا منذ التاسعة والنصف

صباحا فزادت نعومة الرمل وتجعد أديم الصحراء قليلا ومررنا فى الساعة العاشرة بأكوام من الحجارة السوداء فى تلك الهشمة التى ظللنا نراها سحابة اليوم. ورأينا عند الظهر عن يميننا أول اكداس الحطب فى وادى الظيغن وحططنا الرحال فى الساعة الثانية الا ربعا لتناول طعام ساخن وكان ذلك على مقربة من الحطب الذى لقيناه فى تلك الساعة لان وقودنا كان قد نفد فى اليوم السابق فلم نتناول شيئا ساخنا منذ صباحه . وشاهدنا فى الساعة الخامسة والربع تلالا من الرمل على بعد ٤٠ كيلو مترا فى الجهة الجنوبية الشرقية وكانت هذه التلال على هيئة خط منحدر الى الجنوب صوب وادى « الظيغن » وفى منتصف الساعة التاسعة لاحظنا ازدياد اكداس الحطب فى تلك المنطقة

وقد رجونا عند بدئنا السير فى الصباح أن نصل « الظيغن » ذلك اليوم ولكن رجاءنا خاب واختلفت الآراء فى معرفة السبب الذى دعا الى ذلك التأخير فقال أبو حليقة « ان الدليل قد حاد غربا عن جادة السبيل والا كنا وصلنا البئر قبل هذا » . ولكن السيد الزروالى الذى اختار الدليل دافع عنه فقال « إنّا أضعنا وقتا فى ذبح الجمل وشيّه وأكله » وفسر حامد ذلك التأخير فقال . « ان الرجال لا تستحث الجمال للسير فان بعضهم يغفى طويلا فى الطريق ثم يصحو على مهل فيرى القافلة لم تغب بعدُ عن بصره » . وانما قال حامد هذا



مبان صغيرة فى الكفرة يستعملها البدو لخزن غلالهم

لان بعض البدو كان يخرج عن خط القافلة ثم يغفى نصف ساعة او أكثر حتى اذا صحا لحق بالقافلة من غير جهد شديد نظرا لبطء السير ووجود أثر القافلة على الرمال

وقد ذكرت إذ وقفنا نوقد النار لطهى أول طعام ساخن نتناوله بعد مرور ثلاثين ساعة، أن تلك الجهة هى التى ضللنا فيها الطريق فى رحلتنا السابقة الى الكفرة سنة ١٩٢١

وبعد الفراغ من تناول الطعام تركنا داود عم الزروالى الى « تيزربو » التى تبعد عن « الظيغن» مسيرة يوم الى الغرب . وكان قصده أن يعود بزوجه وبنته الى برقة حيث يمكنه أن يجد عملا أوفق له . وزاد أمله أن السيد الزروالى رضى أن يمد له يد المساعدة فى مركزه الجديد . ولم يكن من السهل على ذلك الرجل المسن أن يعود بامرأتين فيخترق الصحراء شمالا الى برقة وليس معه الاجمل واحد . وقد سألته كيف يدبر الامر فاخبرنى أن ثلاثتهم يمشون أول يوم حتى اذا خف الماء على الجمل امتطته بنته ثانى يوم ثم ركبته زوجه فى اليوم الثالث فقلت له هب ان الجمل أصابه شىء فى الطريق فقال « الحماية من الله » وأعطيته أرزا ومكرونة وشايا وسكرا فتركنا وهو سعيد بعد أن قرأ لنا الفاتحة

وتناول البدو طعاما شهيا من الأرز ولحم الجمل وانقلبوا الى

فراشهم راضين.وكانت الليلة بديعة فتركت خيمتى وقضيت أويقات هادئة فى ضوء القمر الذهبي والنجوم الباهتة فى غمرة نوره الوضىء وملأت نفسى سرورا بذلك المنظر الممتع وازددت شجاعة بنجواها الصامتة فعدت الى فراشى ملآن ثقة وأملا

الاحد ٢٥ مارس :

قمنا الثامنة الاربعا ووقفنا الثانية الاربعاوقطعنا ٢٤ كيلو مترا . أعلى درجة للحرارة ٣٢ وأقلها ١٤ . وهبت ريح قوية من الشمال الشرقى طول الليل فلم تسكن الا فى منتصف الساعة الخامسة وكان الغيم يحجب الشمس فى الصباح وأمطرتنا السماء رذاذا عند الظهر وتبددت السحب بعد الظهر وكنا نمر طول الطريق باكداس الحطب التى ازداد ارتفاعها كلما قربنا من البئر . وكان يتخلل تلال الحطب بقاع رملية تتناثر عليها قطع صغيرة من الحجر الاسود . وأخذ الرمل يزداد نعومة حتى صار نديا على عمق بضع بوصات من سطح الارض.وفى التاسعة وربع رأينا فى الجنوب الغربى على بعد ٣ كيلو مترات تلال (الوشكة) وهى بئر صغيرة من مجموعة آبار « الظيغن » وفى التاسعة والنصف اجتزنا على اليسار « معطن بو حوّاء » وهى بئر ظيغن القديمة . ثم نصبنا الخيام على مقربة من أيك النخيل القائم على بئر الحرش وهى أعذب آبار الظيغن . وليست بئر الصحراء تلك العين الجيدة الحفر المتينة الجوانب التى ربط اليها

دلو أو أقيمت عليها مضخة . ولكنها حفرة قد قرب الماء من سطحها فسهل الوصول اليه بعد الحفر لان القافلة اذا تركت بئرا فى الصحراء تراكمت الرمال عليها وسدت منفذها فيتعب القادم الجديد فى تطهيرها ولم يضره ذلك لان سروره يكون شديدا بنصيبه الوافر من الماء العذب بعد أن ظل أياما لايجد منه مايزيد عن حاجته بعد عمل الشاى ليتمكن من الاستحمام أو الحلاقة

ولا يتخيلن القارىء أن بئر الصحراء ذات حوائط يقوم عليها علم من الاعلام فما هى فى غالب الاحيان الا بقعة ندية من الرمل يحفرها البدوى فيخرج الماء منها على عمق ٣ أو ٤ أقدام

وبعد مثل هذه «المرحلة» الطويلة يكون أول همّ رجال القافلة ان يسقوا الجمال ويطعموها ثم يكون أكبر همهم بعد ذلك غسل الأجسام والملابس . ويرجئون غسل الملابس اذا كان الماء قليلا حتى يصلوا بئرا ثانيـة . فاذا استراح الرجال ملأوا القرب وتركوها طول الليل ثم تعهدوها فى الصباح لمعرفة الناضح منها وفحص العيب فيها ففصلوا رديئها عن جيدها وبدأوا بشرب مافى الاولى يقينا منهم بصلاح الباقى

وتكون أولى الليالى التى تقضيها القافلة عند بئر ـ مهما كان نصيب أفرادها من التعب ـ ليلة أنس وسرور ورقص وغناء

ويشعر الانسان قبل الوصول الى البئر انه سيقيم عندها أربعة أيام أو خمسة ناعما بوفرة الماء بعد حرمانه منه طويلا . ولكن العجيب في الامر أن الانسان اذا قضى يوما فاستراح تملكته حمى القلق وغَنِيَ عن الراحة والنعيم بجهل الطريق وقلة مافيها من مناعم الحياة . واكتفى بالبلح الجاف فأكله هنيئا لافرق فى ذلك بين البئر الغزيرة الماء فى الواحة المخصبة الملأى بملاذّ الحياة وبين العين ذات الوشل

ولا تزيد البئر بعد حفرها فى غالب الأحيان عن متر مربع فى مساحتها ويمسك الرمل الندى حيطانها فيتركها الانسان حتى يقر الرمل ويصفو الماء وقلما يصبر البدوى حتى يروقه فيشربه عكرا . وكم شربت من أكواب الماء العكر وكرعت منه فى كوبة الزنك التى لا أبصر لها قرارا. ولم أستعمل الراووق (الفِلْتر) الذى اقترح علىّ حمله بعض الاصدقاء حتى وصلت السودان فان الماء كان من الرداءة ووفرة القذى بمكان . وقد استعملته قليلا ثم أهملته لأنى وجدت بعض أجزائه مفقودا . وليست قذارة الصحراء كقذارة الجهات الاخرى فانها لاتؤذى الصحة لان الرمل شىء نظيف وثياب البدو يتخللها الهواء، والحشرات وافرة لايمكن الخلاص منها ولكن البدوى اعتادها فأصبح لا يأبه لها . . .

الفصل الثانى عشر

اختلاف مناظر الصحراء واصلاح الخريطة

الاثنين ٢٦ مارس :

عنـد بئر الحرش من آبار الظيغن . أعلى درجة للحرارة ٢٧ وأقلها ٦ . جو صحو وريح شمالية شرقية انقلبت عاصفة شديدة حوالى الساعة ١١ وظلت ثائرة حتى منتصف الساعة السابعة ولم تقر حتى منتصف التاسعة .

كان عزمنا أن نقيم ليلة واحدة فى الظيغن ولكن العاصفة اضطرتنا الى البقاء يوما آخر والظيغن منطقة بها أربع آبار وهى: الاثنتان اللتان مررنا بهما يوم الاحد والحرش التى نزلنا عندها وأبو زريق على بعد ٢٠ كيلو مترا فى جهة الشرق

وقد حادث أبو حليقة أثناء النهار تابعى عبد الله فى أمر مجيئى الى الصحراء فقال « انكم جريئون أيها المصريون فان من الجسارة أن يحضر البك مرتين الى بلادنا التى لم أر أجنبيا زارها . ولعمرى لماذا يأتى الى الصحراء ويترك خيرات الله فى مصر إن لم يكن له

غرض خفى فى ذلك السفر وأخطاره · ولست أكتمك أنى يشغلنى أمر مجيئه مرتين واهتمامه بقياس هذه الجهات ورسمها »

حتى صديقى أبى حليقة تصل الريبة الى نفسه منى ويخامره الشك فى أغراضى حين اخترقت بلاده . وقد وضح لى فى آخر الأمر الدافع الحقيقى الذى سبب كراهية البدو فى مجىء الأغراب الى بلادهم وليس ذلك الدافع تعصبا دينيا وانما هو غريزة المحافظة على النفس فان الغريب اذا أوغل فى الصحراء الى الكفرة وهى مركز حياتهم المحبوب ، كان كما يقول البدو «كالجمل يدخل أنفه من ثنايا الخيمة» . ويتبعه بعد ذلك كثيرون فتكون النتيجة تملك الأجنبى بلادهم وضياع استقلالهم وانزالهم على دفع الضرائب وليس لاحد أن يلومهم على الخوف من احدى هذه النتائج

والرأى الشائع أن الصحراء لا يتبدل فيها شىء ولكن توالى الأيام يخلق فيها تغييرا مدهشا فان الرحالة رولف عند مروره بالظيغن فى طريقه الى الكفرة سنة ١٨٧١ ذكر وجود مساحة كبيرة من النباتات فى تلك الجهة ولكنى لم أر فيها خضرة أصلا وانما وقع نظرى على أكوام من الحطب الجاف

ويؤيد قول رولف ماذكره لى أبو حليقة من أن أباه كان يأخذه الى الكفرة عند سفره لاستجلاب البلح لان البدو يعتقدون



السيد شرف الدين (شروفه)
ابن السيد العابد السنوسى

السيد شمس الدين
ابن المرحوم السيد الخطابي شقيق السيد العابد

أن ماء (شخيرة) وهى مركز الزوية بالقرب من جالو يضر الاطفال فى الصيف . وكان أبوه يحمله فوق ظهره معظم الطريق ويقطعها فى ذلك الوقت فى ثلاثة أيام وخمس ليال بدون وقوف فى الطريق . وانما كانوا يقدرون على هذا باطعام الإبل مرة واحدة بين جالو والظيغن حتى اذا وصلوا الظيغن تركوها ترعى فى الارض الخضراء التى تحيط بها . وهكذا يتضح أن رولف لم يكن كاذبا فى وصفه تلك الجهات بكثرة المراعى . ولكن مرور ٤٥ سنة غيّر معالم تلك الجهات وربما كان السبب فى ذلك اختلاف سريان الماء فى طبقات الارض وانقطاعه عن تلك الجهات اليانعة فاصبح كل مافيها حطبا للوقود

وكانت مرحلتنا من بئر بو الطفل الى الظيغن مثلا ناطقا لمخاطر الصحراء ، فانا احتطنا فى تلك السفرة جهد الطاقة ولكن وقودنا نفد ومات منا جمل وخارت قوى جملين آخرين حتى خيف عليهما . واستهلك طعام الجمال فاقتاتت بين الظيغن والكفرة باوراق النخيل التى جمعناها فى الظيغن ، والسعف طعام لايغنى الجمل من جوع ، وقد حفظت عن أحد البدو مثلا لايخلو من لمزة تهكم وهو «صديقك كناقتك تعطيك اليوم لبنا وتخذلك فى الغد»

وقد رصدت نجم القطب الشمالى بواسطة التيودوليت الليلتين اللتين قضيتهما فى الظيغن ووضح لى بعد تطبيق الملاحظات وعمل

الحساب أن الظيغن واقعة على بعد ١٠٠ كيلو مترا فى الجهة الشرقية الشمالية الشرقيه من الموقع الذى وضعها فيه رولف . والمعلوم أنه لم يزر الظيغن ولم يرصدها واعتمد على ماقاله البـــدو عنها . وقد لاحظت فوق هذا أن الظيغن تعلو ٣١٠ متر عن سطح البحر

الثلاثاء ٢٧ مارس :

قمنا الساعة السادسة وربعا صباحا ووقفنا الثامنة مساء وقطعنا ٤٧ كيلو مترا . اعلى درجة للحرارة ٢٦° وأقلها ٨° . جو صحـو وريح قوية من الشمال الشرقى هبت الليل والنهار وسحاب صبـير . وقد أشار الدليل بعد تركنا الحرش الى موقع الـكفرة على بعد خمس درجات من الجنوب الجنوبى الشرقى . وظللنا مدة ساعتين نمر بالحطب الممتد على مسافة ١٠ كيلو مترات من شرقى البئر . ثم دخلنا جهة كثـيرة الرمل الناعم القليـل التموج وازداد تموج الارض حتى دخلنا اصقاع التلال الرملية قرب الغروب . وفى منتصف الساعة الثالثة رأينا جهة الشرق صفا من التلال الرملية يتخللها تلال صغيرة تسمى أجراس من الحجر الاسود . وكان امتداد هذه التلال من ٢٠ الى ٣٠ كيـلو مترا وقد انحدرت على مدى ابصـارنا صوب الجنوب الشرقى . ثم انتشرت تلال الرمل (ويسمونها عزر) بعد ذلك صوب الجنوب الغربى . وفى منتصف السادســة تقاربت هذه التـلال واعترضت

سبيلنا فولجنا بينهـا ولـكنهـا لم تـكن من الارتفاع بحيث صعب علينا اجتيازها

ووضح لى الفرق الشديد بين البدو والعبيد فى الصبر على السير ويقول السود أنهم لايحبون الزوية وإن خافوهم . وكانت جمال التبو أكثر صيانة وانصياعا من جمال البدو وكان كل جمل منها مربوطا الى « رسن » لقيادته ولاتسير متخبطة كجمال البدو

واجتزنا عند الظهر علم (جبيل الفضيل) وهذا العلم شأنه شأن أكثر أعلام الصحراء يحمل اسم من فقد حياته بالقرب منه تذكارا له

كان الفضيل من خير أدلاء الصحراء وكان فى طريقه من جالو الى الـكفرة فغمرت قافلته عواصف رمل شـديدة اهلكت جميع أفرادها . ولم يكن هنالك شاهد على ماحدث ولـكن ماوجد بعد ذلك من أثر القافلة اظهر جلية الامر

قامت عاصفـة شديدة سفت الرمال فى وجه القـافلة وآذت عينى الفضيل كثيرا فعصبهما . ولم يستطع رؤية الطريق بل اعتمد على وصف من كانوا معـه للاعلام التى مروا بها . ولـكنهم كانوا قليـلى الخبرة فاخطأوا آبار الظيغن وحاولوا الانحدار الى الـكفرة ولـكنهم ضـلوا فى الصحراء . وفنيت القافلة الا جملا واحدا غالبَ أن يرجع الى الـكفرة تقوده غريزته التى لا تخطئ فوصلها وعرف

أهل المدينة أنه من جمال الفضيل بما على عنقه من وسم . وقامت قافلة لنجدته فتبعت أثر الجمل فى الصحراء ولكن الوقت كان قد فات فانهم عثروا بجثث الرجال متصلبة فوق صعيد الصحراء بالقرب من العلم الذى أطلق عليه اسم الفضيل التعس الذى وجد معصوب العينين فكشف عن سر المأساة وأظهر حقيقة الفاجعة

الاربعاء ٢٨ مارس :

كانت السحب كثيفة طول النهار يتخللها ضوء الشمس من آن لآخر ولم تنقشع كذلك فى المساء . وهبت ريح باردة من الشمال الشرقى ثم انقلبت فى الثامنة صباحا عاصفة دامت ثلاث ساعات ونصف ساعة واستمر هبوب الريح الباردة فى المساء وسقط رذاذ فى منتصف الحادية عشرة مساء

سرنا بين تلال الرمل مدة ساعتين ثم دخلنا أرضا متعرجة مغطاة بالحجارة السوداء المهشمة التى آذت الجمال كثيرا . وقضينا فى تلك الحرة ساعتين ثم سرنا ثانية بين تلال الرمل ، وفى الحادية عشرة ونصف صباحا كانت سلسلة تلال « الهوايش » عن يسارنا وتلال الرمل والحجارة السوداء عن يميننا ، وفى الثانية عشرة وربع اجتزنا عن يسارنا على بعد أربعة كيلو مترات علم « جور المخزن » وهو عبارة عن تلال من الحجارة السوداء يبلغ ارتفاعها من ٥٠ الى ١٥٠ مترا ، وفى الثانية الا ربعا مررنا بعلم «الجارة وبنتها» وهوعبارة

عن تلين يختلفان حجما بحيث يتفق عليهما الاسم الذى تسميا به

وأخبرت بعض البدو كيف ضللت الطريق سنة ١٩٢١ فلم يعجبوا لذلك لان أهل الصحراء الفوا كل يوم فقد الطريق والإبل والماء والوقود

الخميس ٢٩ مارس :

لم اتمكن ذلك اليوم من ضبط أقل درجة للحرارة لان ترمومتر النهاية الصغرى كسر أثناء هبوب العاصفة

ظلت تلال «الهوايش» عن يسارنا حتى العصر، وفى الحادية عشرة ونصف دخلنا ارضا ناعمة الاديم كثيرة التلال الرملية المتموجة التى يصعب سير الرجال والجمال عليها . وفى منتصف الثانية مررنا يميننا باكبر الاعلام التى اجتزناها وهو علم « جارة الشريف » . وهذا العلم عبارة عن تل يمتد ١٥٠ مترا ويبلغ ارتفاعه ١٠٠ متر ويجاوره ثلاثة تلال . اثنان منها فى الجنوب والثالث فى الشمال

وفى الثالثة سرنا بين تلال متعددة خرجنا منها بعد ساعتين الى ارض منبسطة صلبة الرمل كثيرة ركام الحجارة السوداء

وفى منتصف الرابعة صباحا قامت أشد عاصفة رملية ابتلينا بها فى الطريق فاجتاحت الخيام وقوضت اركان خيمتى وهشمت بعض أدواتى وبينها الكرونومتر الصغير

وتهدمت الخيمة علىّ وزاد ثقلها بما انهال عليها من الرمال التى لا ينقطع تراكمها . نخفت الاختناق تحتها ولكنى لحسن الحظ أمسكت وتدا من أوتاد الخيمة ورفعت به قماشها عن وجهى وجرى الرجال لمساعدتى ولكنى صرخت اليهم أن يضعوا اكياس الدقيق وقطع الامتعة فوق خيامهم وخيمتى حتى لا تجتاحها العاصفة جميعا . وأقمت فى ذلك المركز المتعب تحت خيمتى زهاء الساعتين . وكان الرمل ينفذ الىّ من شق الخيمة كانه يقذف من بندقية

وقاسى الرجال والجمال كثيرا وأوشكت العاصفة أن تفجعنى فى الكرونومتر الكبير لان ظنب الخيمه لو مال قدر أنملة واحدة لهشم تلك الآلة النافعة وحرمنى جانبا كبيرا من النتائج العامية للرحلة

والبعيدون عن الصحراء لا يعلمون من أمر الرحالة الا الخيبة أو النجاح يفصلهما خط واضح ولكن المستكشف لا يميز هذا الخط . فقد يكون ضاربا فى الطريق السوى جامعا كل المعلومات التى أرادها قريبا من نهاية الرحلة ثم تخور جماله بغتة فيضطر الى ترك أثمن حوائجه . ويفضل الماء والزاد فيستبقيان وتترك الاجهزة الفنية والمدونات . وقد تكون مصيبته أدهى فيضحى بكل شىء حتى بحياته ولا يعرف الناس من أمره الا أنه خاب . وقد ينصفه

البحيرة بالكفرة

بعض النقاد فيقولون أنه خاب خيبة مشرفة . فهو على الحالين خائب . وما أقرب هذه الخيبة من النجاح . فقد يكون ذلك الخائب اكثر عملا وأشد تحملا لمشاق الطريق الطويل ممن أصاب النجاح فى رحلته . وانما يميل الرحالة الى أخيه الذى جاهد وخاب لا الى ضريبه الموفّق لعلمه أن أولهما لم يخب الا بعد أن جاهد جهاد الابطال فى سبيل الاحتفاظ بثمرة مجهوداته

والبدو يقدرون ذلك . فقد كان فى أخلاقهم نزعة أدهشتنى وراعتنى فى بعض الاحيان ثم امكننى فهمها أخيرا . وذلك أنهم لم يكونوا يطربون ويسرون اذا انتهت مرحلة اليوم بالنجاح المرغوب، وكانهم يقولون لقد وفّقنا اليوم ولكن ماذا عسى يكون نصيبنا فى الغد ، ولذلك لم يكن من عادتهم أن يبطروا بالنجاح لانهم لم يصلوا اليه بمهارتهم وانما ساعدتهم العناية فى اصابته فقد تكون رحلة الغد أسهل من سابقتها وتكون الخيبة فيها عظيمة . وقد عثرنا بآثار قافلة منقرضة فى رحلتى الاولى بصحراء ليبيا بين واحة لوزيمة ـ وهى من واحات الكفرة ـ وبين الكفرة . ورأينا يدا نافذة من بين الرمال مصفرة الجلد فى لون الرق . فتقدم اليها أحد الرجال وهو خاشع فهال عليها التراب وغطاها . وانما ضل رجال تلك القافلة وماتوا عطشا وهم على مسيرة ثلاثة أيام من الواحة

وكم وجـد من بقايا قافلة فنيت وهى على مرأى من البئر وكم عرف من أخبارها المروعة فلم يمنع ذلك القوافل من سـلوك تلك السبيل لان البدوى يؤمن بالقدر ويعتقد أن الله قضى على أفرادها بالموت فى الطريق . وقد قال لى أحد البدو ذات مرة « حواصيل الطيور ولا ظلام القبور » يعنى بذلك أنه يفضل أن تأكل جسده القشاعم .

وكان يومنا هذا متعبا لما أصابنا من اقلاق الراحة فى الليـلة الماضية عند هبوب العاصفة وما أصابنا من الجهد فى السير بين التلال الرملية . ولكن الرجال كانوا طربين بالاقتراب من الكفرة وزاد سرورهم ان أبا حليقه الذى كان يقطن الهوارى وهى أول محطة فى ظاهر الكفرة عزم أن يذبح شاة ويولم وليمة لافراد القافلة

وكانت الإبل ضعيفة ناحلة ولـكن ثلاثة منهـا كان وطنهـا الكفرة فاندفعوا فى السير اليها غير مسـوقين رغم صعوبة المسـير بين التلال وتبعها سائر جمـال القافلة وفى السابعة الا ربعا أبصرنا « جارة الهوارية » وهو العلم العظيم الدال على الاقتراب من الكفرة.

الجمعة ٣٠ مارس :

قمنا الثامنة الا ربعا صباحا ووقفنا السادسة الا ربعا وقطعنا ٣٥ كيلو مترا فوصلنا الهوارى . وسقط رذاذ من المطر فى المساء . وكانت

الارض منبسطة ناعمة الرمل قليلة التعرج تكثر فيها أكوام الحجارة السوداء والحمراء . وفى منتصف الساعة العاشرة دخلنا منطقة الرمل الاحمر التى تحيط بالكفرة واجتزنا فى طريقنا طول اليوم قطعا من الخشب المتحجر وفى الساعة الاولى والدقيقة ٢٥ مررنا بجارة الهوارية وفى منتصف الساعة الرابعة أبصرنا نخيل الهوارى وبعد ذلك بساعة ونصف دخلنا الواحة وضربنا الخيام فى قرية « العوازل » وهكذا وصلنا أول مراكز الكفرة

وقد أطلق اسم الكفرة فى عهد المستكشف الألمانى رولف على الاربع الواحات المتفرقة المسماة تيزربو وبوزيمه وربيانه وكبابو التى تكون الكفرة الحالية ولكن اسم الكفرة يطلق الآن على واحة كبابو فحسب

والهوارى أبعد أقسام الكفرة ناحية الشمال وهى واحة صغيرة مكونة من ثلاث قرى هى الهوّارى والهواويرى والعوازل وتقع التاج على بعد ١٧ كيلو مترا من الهوارى . وهى مركز الحكومة المحلية كما أنها أهم موقع وهى واقعة على ربوة صخرية تطل على منخفض الواحه الاصلية التى تقع فى الجنوب وتضم قرى الجوف وبويمه وبومه والزرّق والطلاليب والطلاب

وكان غرضى أن أتقدم فى السير الى التاج وهى أهم مدن

الكفرة فى اليوم التالى ولكن أبا حليقة طالب بحقه فى الضيافة وأصر على استبقائى يوما فى بلده . وقضينا ليلة هادئة لا يعكر صفوها هبوب العواصف أو تهدم الخيام واستيقظت فى الصباح فحلقت ذقنى واستعددت لالتهام الفطور الذى تفضل بارساله بدو قافلة وصلت حديثا من « واداى » . وفى نفس الوقت جمعت بعض معلومات قيّمة جعلتنى أفكر فى تغيير بعض خططى

وبعثت رسولا الى التاج برسائل الى السيد العابد ابن عم السيد إدريس وشيخ السنوسيين فى الكفرة والى السيد الجدّاوى وكيل السيد ادريس الخاص

ورافقنى الزروالى بعد ظهر ذلك اليوم الى الهوّارى حيث استقبلنى فى زاويتها الاخوان وأشراف المدينة . وبعد أن تبادلنا عبارات الترحيب والتحية تناولت العشاء فى منزل عم السيد الزروالى . واحتج علىّ شيخ البدو لانى فاجأتهم بزيارتى ولم أضرب خيامى خارج المدينة وأخبرهم بحضورى حتى يتهيأوا للقائى كما يجب ويحتمل أنهم سمعوا بالاكرام الذى لقيته فى جالو فعز عليهم أن لا يقوموا نحوى بمثله وزيادة ، وسمعت اشاعات عن دسائس بين بعض شيوخ الزوى الذين ارتابوا فى غرضى من المجىء مرة ثانية الى الكفرة واحتجوا على هذا المجىء بتخلفهم عن مشاركتى فى



مجلس كبار رجال السنوسية بالكفرة

العشاء الذى هُيّء لى . وكان هؤلاء الشيوخ ذوى نفوذ شديد فصممت بعد سماع هذه الاشاعات على الاسراع بالسفر الى التاج خيفة أن يرسلوا اليها ما يشوش الافكار قبل وصولى

وبعد تناول العشاء عدت الى خيامى فى ليلة مقمرة فوجدت أمرا هاما فى انتظارى فان « عقيلة » اكبر أبناء أبى حليقة لدغته عقرب وسألنى أبوه أن أشفيه ثقة منه فيما حملت من الادوية فأخذت المصل المضاد للدغ العقرب وقصدت داره فرأيت ابنه فى أشد حالات المرض محترقا من فتك الحمى . وكنت قد فكرت فى أخذ هذا المصل في آخر لحظة قبل قيامى من القاهرة . وكان بين مودعىّ طبيب من أصحابى فأرشدنى وهو يشد على يدى الى طريقة استعماله بينما كنت أتبادل كلمات الوداع مع من كان حولى من الأهل والاصحاب . وكانت هذه أول مرة حاولت فيها أن أقوم باعطاء هذه الحقنة فأجهدت فكرى فى جمع الارشادات التى أعطانيها صديقى الطبيب فى موقف التوديع . ولكنى لم أبصر فى صفحة خيالى الا الفرق الشديد بين غرفة المريض المظلمة ملأى بأهله واخوانه يتعقبون جميع حركاتى وبين موقف التوديع الحارّ ساعة أضفت أنابيب المصل الى حوائجى . ومع هذا وبالرغم من شكّى فيما اذا كان الاسعاف قد فات وقته فقد أعطيت الشاب تلك

الحقنة وعدت أدراجى الى خيمتى مشغول الخاطر بما عسى أن تكون النتيجة . ولم يمض وقت طويل حتى سمعت جلبة جمهور يتقدم الى خيمتى وهو يرسل فى الفضاء صراخا عاليا وقع من أذنى موقع العداء فظننت ان الصبى قد قضى وأن تبعة موته ستقع على عاتقى بدل أن ينسب الى لدغ العقرب ففكرت فى جمع رجالى للدفاع عن صندوق الآلات الذى حسبت أن سيكون هو أول ضحية لسوط غضبهم . واستعددت للدفاع عن نفسى وكانت ساعة عصيبة لم تدم طويلا فقد هدأت بعدها لانى ميزت فى صراخ القادمين رنة سرور . ولم تمض دقائق حتى دخل على أبو حليقة وشكرنى من أعماق قلبه لانى شفيت ابنه من دائه العضال قائلا بحرارة وحماس « الله أكبر لقد كان سحرا ما فعلت، ان شفاء ابنى كان فى الدواء الذى أعطيته له » . وكانت حمى الصبى قد هبطت وتولد الأمل فى شفائه فشكرت الله فى نفسى على التوفيق الذى أصابه عملى لان موت الطفل كان يحرج مركزى ويضعنى فى أخطر المواقف

وتركنى زوارى فخرجت فى ضوء القمر أستريض بين أجمات النخيل .

الفصل الثالث عشر

الكفرة - الأصدقاء القدماء - تغيير خطة الرحلة

الأحد أول ابريل:

قمنا العاشرة الا ربعا صباحا ووقفنا الثانية بعد الظهر وقطعنا ١٧ كيلو مترا ووصلنا التاج وفى الساعة الحادية عشرة وربع دخلنا أرضا مهشمة الصخور كثيرة التعاريج تغطيها أكوام من الخراسان الاسود والاحمر على طول الطريق الى التاج

وجاء « عقيلة » يساعدنا فى تحميل الجمال . وكان قد أبلّ من مرضه وعزم على السفر معنا الى التاج . وأرسل ابو حليقة الفطور الىّ والى رجالى وأخذت عليه شدة اهتمامه بى فأجاب على هذا بأنى حرمته حق ضيافته لنا مدة الثلاثة الايام المألوفة . وبعد قليل جاءت جارية من بيته تحمل صحفة كبيرة من الارز ودجاجا وبيضا وقد ظهر لى أن سيدها ألبسها لباسا خاصا لهذه المناسبة فقد راقنى ثوبها الوشيق ذو القماش الازرق والنطاق الاحمر الملتف حول خصرها النحيل

وأخبرتها أنّا مسافرون فى التوّ وأنا لسنا فى حاجة الى الطعام فقالت فى خفر « ربما مست الحاجة اليه فى الطريق » لقد طهيته بنفسى فقلت لها « اذا كان الأمر كذلك فأنا أتقبله بكل سرور » فبان عليها الفرح ورجعت فاتتنا بصحفة أخرى لا تقل عن تلك حجما ولا تحريكا للشهية وشكرت لها لطفها وزودتها بشكرى لسيدها الكريم

وودعنا أهل « العوازل» توديعا حارا ، وتقدمت القافلة على جواد أبى حليقة ولم نكن فى حاجة الى دليل لمعرفتى بالطريق . ولم تفت السنوسى أبا حسن ملاحظة ذلك فقال « ان البك يعرف الطريق حق المعرفة ولا أحسبه الا صائرا دليلا قادرا فى بلادنا »

والطريق الى الكفرة من جهة الشمال فيه شىء من المفاجأة تجعله ممتعا ، فقد سرنا فى أرض قليلة التعرج يكتنفها مرتفع من الارض قليل العلو كان لنا بمثابة الأفق ثم انقلب ذلك التل فجأة فأصبح طائفة من الأبنية لا تكاد العين تميز عن بعد فرقا بين جدرانها وبين الصخور والرمال التى تماثلها تلك الابنية لونا وشكلا

وكانت هذه المحلة مدينة « التاج» مركز الأسرة السنوسية فى الكفرة

ودخلنا المدينة فرأينا الارض التى خلفنا قد هبطت فجأة فى

وادى الكفرة وهو واد بعيد الغور يكاد يكون بيضاوى الشكل يبلغ أقصى قطريه ٤٠ كيلو مترا وأدناهما ٢٠ كيلو مترا . ويتناثر فيه النخيل وتمتد فيه على شكل خط متعرج من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى، القرى الستّ المعروفة بأسماء بويمه وبومه والجوف والزرّق والطلاليب والطلاب

وتقع بالقرب من الجوف بحيرة متوسطة الحجم زرقاء اللون متألقة الماء هى فى وسط تلك الرمال الموحشة عطية من عطايا الله فان مياهها المنبسطة تبعث السرور الى العين المتعبة من رؤية الرمل الدائم . ولكن مياه هذه البحيرة الملحة أشد غصة فى حلق الظمآن من قذى السراب فى عينه

وقابلنى عند دخول مدينة « التاج » أصحابى القدماء . وكان السيد العابد ابن عم السيد ادريس وشيخ السنوسيين فى الكفرة مريضا بالروماتزم فتفضل بارسال تحياته الىّ مع سيدى صالح البسكرى القائمقام والسيد محمود الجدّاوى وكيل السيد ادريس وجمع من الإخوان

وصحبنى هؤلاء الى منزل السيد ادريس الذى أعدّ لاقامتى، وكانت اقامتى فى رحلتى الاولى الى الكفرة منذ سنتين فى نفس هذه الدار فأحسست كأنى فى دارى. وأراد السيد البسكرى أن يمازحنى

فقال « علِّم يابك رجالك دروب الكفرة فانى لأحسبك أخبر بها منهم جميعا بما فيهم السيد الزروالى الذى لم يطأها منذ ١٣ سنة»

وبدأت دلائل الضيافة فى الحال فقدم لنا الشاى قائد الجند. ولم اكد أستريح قليلا حتى جاءنى أحد العبيد يدعونى الى تناول الغداء فى دار السيد العابد . وكان نفسَ الرسول الذى قادنى منذ سنتين وسرت معه فى نفس الدروب ودخلت نفس الدار العجيبة التى يقيم فيها قائد السنوسيين . وأنا أشعر كأنى أعيش فى عهدى الماضى أو كأن العمر لم يتخطَّ بى السنين

ودار السيد العابد ذات طرقات متعددة متوشّحة ملأى بأبواب الغرف التى يقيم فيها أفراد أسرته وحشمه . ودخلنا الغرفة المعهودة التى زاد زينتها عن قبل ما أضيف اليها من السجاجيد الثمينة والوسادات ذات الالوان المزركشة . وقد علق على جدرانها تلك المجموعة من الساعات والبارومترات والترمومترات التى يحب جمعها صاحب الدار . وكانت الساعات سائرة بدقة وهى لا تقل عن اثنتى عشرة ساعة مختلفة الشكل والحجم

وجاء السيد صالح يسامرنى ويعتذر عن غياب السيد العابد القهرى . ووضعت أمامى مائدة تصلح للملوك وتهيج شهية مَن قضى الايام الطوال فى الصحراء . وتنوعت فيها ألوان الطعام



بدوي مع جاريته

والحلوى وختمت بثلاثة أكواب من الشاى معطرة بالعنبر وماء الورد والنعناع

وعدت الى داري بعد انتهاء الوليمة فلم أكد أتعهد حوائجى وأتحادث فى أمر الجمال اللازمة للرحلة الثانية حتى جاءنى عبد يصحبنى ثانية الى منزل سيدى العابد لتناول العشاء . فاستقبلني السيد البسكرى ذلك الشيخ الوقور الرضى فى جبة ذهبية اللون وكان قد خلع عن رأسه طربوش البدو الطرىّ ولبس كوفية بيضاء من الحرير وعقالا اختلطت فيه الخضرة بلون ذهبي . وبعد أن فرغنا من تناول الطعام أديرت أكواب الشاى المعطر وأحرق البخور وهنا بدأت ساعات الغرفة تدق أنغاما مختلفة مؤذنة بحلول الساعة الثالثة من الزمن العربى فأغمضت عينى لحظة وأحسست كأنى فى أكسفورد أسمع الدقات المتنوعة تنبعث من ساعات أبراج الكليّات والكنائس .

وخرجت فى ضوء القمر يغشانى عبق ماء الورد ويحيط بى نشر البخور فعلوت التل المشرف على مياه البحيرة وذكرت زيارتى الاولى أيام كانت الكفرة غاية رحلتى السالفة وفكرت فى شأنها اليوم وهى مبدأ القسم الشيّق من رحلتى الثانية

ووقفت أسمع أصوات الاخوان والطلبة ترتل الحزب فى سكون الليل فطفر عبد الله من بين الظلال ووقف الى جانبي ثم قال بصوت خافت عميق « هذه ليلة النصف من شعبان يحقق الله فيها أمل من يدعوه » : ثم سكت وظللنا وقوفا صامتين بضع دقائق وكان وجهى صوب الجنوب الشرقى حيث تقع سبل غير مطروقة وواحات مجهولة . ودار عبد الله بوجهه صوب الشمال الشرقى حيث توجد مصر وفيها أسرته وأولاده . ثم تمتم دعاء خافتا ولم تكن ثمة حاجة لان أسأله لم الدعاء

الاثنين ٢ ابريل :

أخبرنى أثناء إقامتى بالهوارى بدو القافلة المسافرة من واداى أن فرقة فرنسية سارت شمالا حتى وصلت بئر ساره متبعة فى سيرها الطريق التجارية الاصلية من واداى الى الكفرة : وكانت هذه الطريق هى التى صممت على أخذها بادىء بدء ولكنه وضح لى أن الذى لم يستكشف منها بعد هو الجزء الصغير الواقع بين ساره والكفرة . وكنت قد سمعت قبل ذلك بعض حكايات غامضة عن واحات مجهولة فى الطريق الجنوبى الذى دار بخلدى أن أستكشفه يوما من الايام رغم علمى أن الطريق المستقيم الى دارفور لم تطأه قدم بدوى أو سودانى لما توهم الناس فيه من الصعاب والمخاطر . وغيرت قصة الفرقة الفرنسية وجهة

تفكيرى صوب هذه الواحات وفضّلت أن أسمى لاكتشافها عن أن أتبع خطتى الاصلية

وكان عزمى من البداية أن أفرغ قصارى جهدى فى استكشاف الواحات المجهولة حتى اذا خبتُ فى هذا قطعت صحراء ليبيا سائرا فى الطريق المعروفة فاخترقت واجنجا وواداى ثم انحدرت جنوبا الى دارفور . وجاءنى السيد الزروالى وسليمان أبو مطارى يناقشانى فى أمر السفر الى الجنوب فكانت نصائح أبى مطارى مثبطة لهمتى اذ قال : « إن آخر قافلة طرقت هذا السبيل منذ ثمان سنين وكان قائدها أخى محمود ذبح أفرادها وقطعوا اربا على حدود دارفور. على أنهم لم يسيروا فى الطريق التى تريد اتخاذها أنت الآن وانما أخذوا الطريق الاسهل من العوينات الى واحة « مرجه » (وهى واحة صغيرة على بعد ٢٩٠ كيلو مترا من الجنوب الشرقى للعوينات) أما الرحلة التى تزمع القيام بها فترمى بك فى أصقاع لم تطأها قدم بدوى من قبل. والمرحلة بين العوينات وأردى بعيدة الشقة كثيرة المخاطر والله يلطف بالقافلة التى تقاسى حرها الشديد . وأكبر ظنى ان جمالك تسقط كالطيور فى الطريق أمام ريح السموم الجنوبية . ولو فرضنا أنك اجتزت تلك النواحى سالما فمن يدرى كيف يعاملك سكان تلالها الموحشة . ونصيحتى لك أن لا تدع شوقك الى السفر السريع

يتغلب على حكمتك فيمنعك اختيار الطريق الآمنة التى يأخذها التجار الى واجنجا « وابشه » . وكان بهذا يخلص لى النصح رغبة منه فى عدم تعريض حياتى للخطر فشكرته على نصائحه ولكنى كنت موطد العزم على تنفيذ خطتى

وبعد تناول الغداء الفاخر الذى قدمه لنا السيدالعابد ذهبت لزيارة ابنهالسيد شروفه . وهوشاب يتوقد ذكاء وتشوفا لتحصيل العلوم . وقد سافر الى بنغازى فكان رأيه أنها خير مدن العالم على ما بها من صغر الحجم وقلة انتشار المدنية . واعتذر لى عن مرض أبيه فعرضت أن أرسل اليه بعض الدواء الذى أتمنى فيه الشفاء له .

الثلاثاء ٣ ابريل :

كانت حرارة الجو شديدة والسماء ملبدة بالغيوم والريح تهب بقوة من الجنوب الغربى ؛ وذهبت بعد تناول الغداء كالعادة لزيارة السيد شمس الدين ابن عم السيد شروفه وزيارة أخيه الأصغر وكان اكبرهذين ذكيا ذا عينين براقتين تنمان عن حب الاستطلاع كما تبدو على أخيه الأصغر علامات النجابة والذكاء وقدم لى ثلاثة اكواب من اللبن ولوزا مقشورا ومربى فأشبعت نفسى اكراما لخاطر ضائفى وخرجت ممتلئا . ولم يمنعنى ذلك من تناول العشاء فى منزل السيد العابد

وتناقشنا مرة أخرى فى خطة السفر بطريق اركنو والعوينات فرأيتنى أثبت ما أكون على رأيى وانتظرت أن آخذ رأى أبى حليقة بعد عودته من الهوارى

الاربعاء ٤ ابريل :

أيقظنى السيد الجداوى فى الصباح وأحضر لى إبريقا من الشاى المعطر وأحضر لى أحمد أدوات الحلاقة فشعرت بشىء من عيشة المدن بعد حياة الصحراء . ولست أكتم القارىء أن هناك لحظات يشعر فيها الانسان بهشاشة الى ملاذ المدن وأسباب راحتها ولكن نفسه تطيب بالسفر الطويل فى الصحراء أثناء السير أكثر مما تطيب زمن الاقامة فى واحة من الواحات

ومضى القسم الأول من النهار فى تصغير أكثر الصناديق الخشبية وفي ترتيب الحوائج من جديد تحضيرا للمرحلة الطويلة الى الجنوب وكانت العناية الشديدة لازمة فى تحضير كل شيء لانه لم يكن هناك أى فرصة لاستبدال الجمال حتى نصل الفاشر وهى على بعد ١٥٠٠ كيلو مترا تقريبا

واهتممت باستحضار « اخفاف » جديدة لرجال القافلة لان الاخفاف التى شريتها لهم فى جالو قد بليت

وزارني قبل الغداء بعض شيوخ زوىّ يقدمون لى واجب الترحيب وهم مدفوعون فى الحقيقة بدافع الارتياب والتشوف الى

معرفة عدد القافلة وخوانجها والاهتمام بقدر الطاقة باستكشاف الخطط التى دبرتها للسفر الى السودان

وتغديت عند السيد العابد كالعادة وسرنى على ان الدواء الذى قدمته له نجع فيه . وقضيت بعد ظهر اليوم فى تهيئة الاسلحة والذخيرة وخرجت أتريض فى المساء لعمل بعض الملاحظات بواسطة بوصلتى عن النواحى المجاورة لبلدة « التاج »

الخميس ٥ ابريل :

كان الزروالى قد أطال فى محادثة أبى حليقة الذى وصل أثناء الليل من الهوارى وكان رأى الأخير الرفض الصريح فى تنفيذ فكرة السفر الى الفاشر بطريق العوينات وجاء لزيارتى وحاول أن يحملنى على السفر بطريق واداى ولكنى لم ألن لنصائحه فداخله اليأس لانى صرحت له أن لا شىء يزعزعنى عن تنفيذ رغبتى فى السفر الى الفاشر بطريق العوينات

ودار بيننا الحديث الآتى. قال أبو حليقة : «والله انها لطريق مخوفة وكم من قافلة اكلها سكان التلال الواقعة فى تلك الطريق. انهم قوم لا يخشون الله ولا يخضعون لسلطة انسان . وهم كالطيور يعيشون على قمم الجبال ولا محيص لك عن الوقوع فى مناوشات معهم» . فأجبته: « آنا رجال مؤمنون نوقن أن مصيرنا فى يد الله جل وعلا فان قدّر علينا الموت دهمنا فى طريقنا الى أقرب بئر »



مشايخ قبيلة زوى بالكفرة

فقال أبو حليقة: « كم من شيخ زوىّ وازاه التراب فى تلك الاصقاع المجهولة . ان سكانها خائنون لا يخافون الله ولا يخشون الناس »

فأجبته : « رحم الله من قضى فى تلك البلاد من شيوخ الزوىّ ان حياتنا ليست أعز وأغلى من حياتهم ولا يليق بنا ان نكون أقل منهم إقداما »

فقال : « ان الماء فى تلك الطريق نادر وردىء » وقد قال الله تعالى « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة »

فأجبته : « ان الله يطفىء ظمأ المسلمين المؤمنين ويلحظ بعنايته الصادقين من عباده »

وشعر أبو حليقة أني سأحجه فى المناقشة فغير مجرى الحديث وقال: «ليس بين رجالى من يرضى مرافقتك فى تلك الطريق وليس فى مقدورى أن أرمى بجمالى فى تلك المفاوز التى يدهمها فيها الموت المحتوم فان وجدت من يكرى لك جماله فانى مستعد لدفع الأجرة المطلوبة ولكن رجالى وأنا لا نرضى بمرافقتك فى تلك الطريق»

فأجبته وأنا ملآن حمية : « افعل ما بدالك انى سائر الى الفاشر من تلك الطريق وسيكون الأمر بينك وبين السيد إدريس حين يعلم انأبا حليقة لم يحافظ على كلمته»

وانتهت بيننا المناقشة عند هـذا وعلمت أن أبا حليقة دفع أصحاب الجمال فى الكفرة الى عدم الرضا بمساعدتى فى تنفيذ خطتى آملا بذلك أن يضطرنى الى قبول السفر الى وادای بالطريق المأمونة

وانتهت أيام الضيافة الثلاثة فى دار السيد العابد فأرسل لى الغداء من دار السيد الجداوى وكيل السيد إدريس فى الكفرة . وكان أبو حليقة على وشك الرحيل ولكنى دعوته الى مشاركتنا فى تناول الغداء فرضى آملا أن يحملنى على تغيير خطتى وكنت آملا من الناحية الأخرى أن أقنعه أن تلك الطريق لم تكن من الخطر بحيث تصور

وفرغنا من تناول أكواب الشاى وافترقنا وليس منا منتصر على أخيه ولكنى شعرت ان كلماتى الأخيرة كان لها تأثير شديد فى نفسه .

وجاءنى بعد الظهر عبد السيد العابد يحمل الىّ رغبة سيده فى رؤيتى ولم أكن أحدث نفسى باسراعه فى مقابلتى لانى علمت أنه يشكو نقرسا قاسيا وان من الصعب عليه أن ينزل لمقابلتى فى غرفة الزائرين ولكنه لم يرد أن يداخلنى الظن فى عدم اتباعه قواعد الضيافة بتأخير مقابلتى فسمح لى أن أراه بالرغم من تألمه . وكانت هذه أول مرة رأيت فيها السيد العابد فى هذه السفرة فشعرت

حين دخلت عليه انى أرى صورة حية لرسم فاخر من رسوم ألف ليلة وليلة . وكان يلبس قفطانا من الحرير الاصفر مطرزا بجدائل حمراء وبرنسا من الحرير الابيض ملق على منكبيه . وكان على رأسه عمامة بيضاء يتهدل على جوانبها غلالة ناصعة البياض هى شارة شيوخ الاسرة السنوسية . وأمسك فى يده عصا غليظة من الابنوس ذات قبضة من الفضة . وكان فى هيئته وقار البساطة واللطف لا يشعر من رآه أنه ذلك الفارس الباسل الذى تعرفه المواقع .

وكان يجلس حين قدمت عليه على كرسى كبير حسن التنجيد فحاول أن يقف ولكنى أسرعت اليه وأمسكت يده ورجوته أن لا يكلف نفسه مؤونة القيام لى . وكان يشكو مر الشكوى من داء النقرس فبدأنا الحديث فى أمر مرضه الذى لزمه السنين الطوال فقال: « انى لأضرع الى الله اذا اشتدت على وطأة المرض فى بعض الليالى أن يقصر أيامى فى هذه الدنيا لأنى لا أطيق أن أقوم بالصلاة كما يجب على ». ثم تناولنا أمر رحلتى الى السودان فرأيت من حديثه أنه يفضل لى أخذ الطريق المأمونة التى تمر بواداى . فقلت له : « ان السيد ادريس فى مصر الآن وأود أن أسرع بالانتهاء من

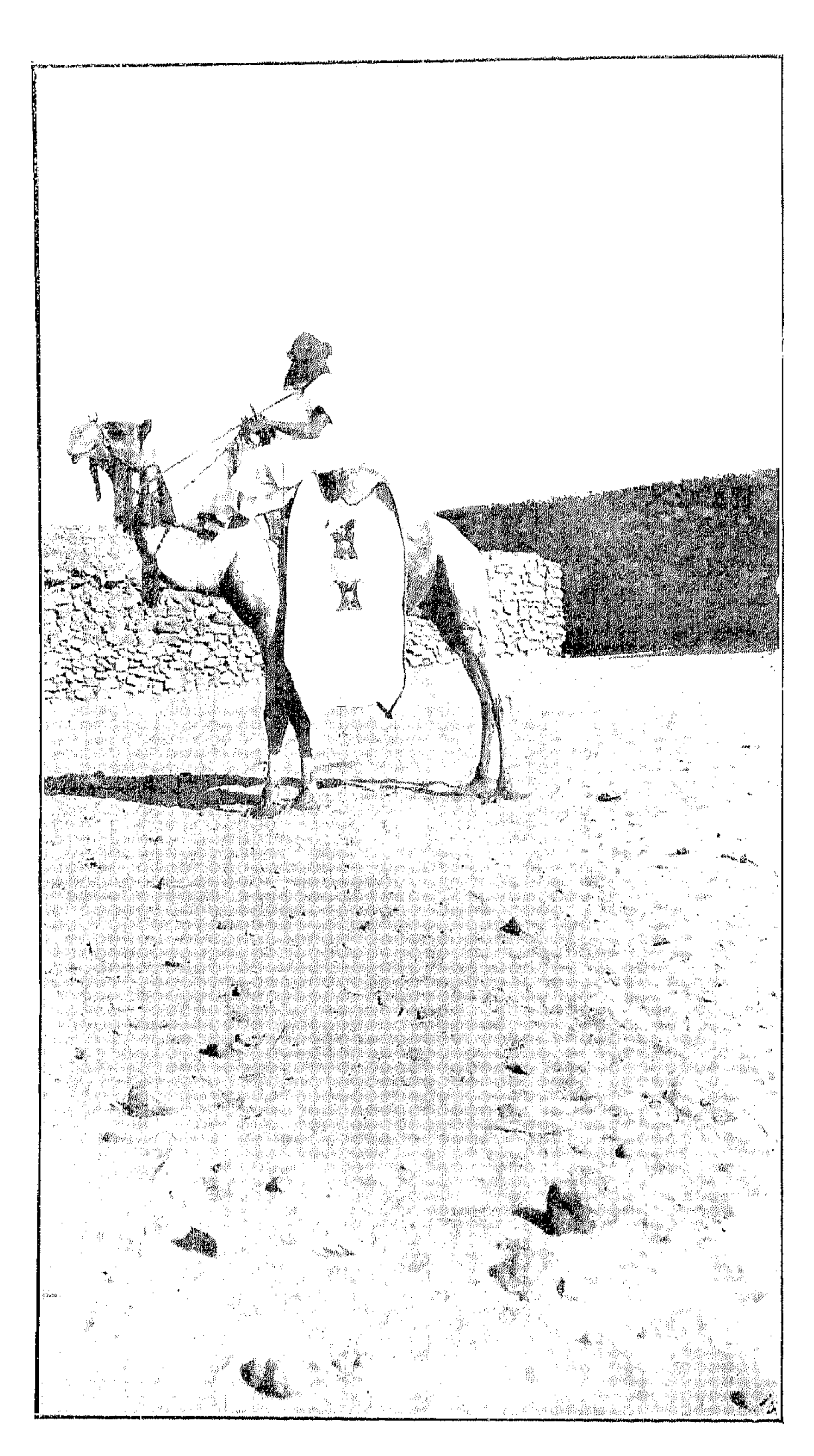
رحلتي والعودة الى وطني حتى ارد له بعض جميله فيما لقيت من كرم الاسرة السنوسية ولا يبلغني هذه الأمنية الا السفر الى السودان بطريق العوينات لانها الطريق الاقصر » فقال « انك صديق حميم لنا وأظن أن السيد إدريس يفضل لك أن تصل سالما الى مصر وان تأخرت عودتك عن أن يسمع باى أذى نالك »

فاجبته قائلا : « ان مصيرنا فى يد الله وقد قدر علينا مساعينا وانى لأحمل معى مباركة شيوخ السنوسيين »

وكان فى كلامى لهجة القطع فى الأمر ففكر قليلا ثم رفع رأسه ببطء وبسط كفيه الى السماء ثم قال: « نجح الله مسعاك وأرجعك سالما الى أهلك . لقد زرت قبر جدنا فى جغبوب ودخلت قبة سيدى المهدى فى الكفرة فنلت بركتهما والله فى عون من سعى وآمن » ثم قرأ الفاتحة وباركنى وتضرع الى الله أن يسدد خطاى وأن يهبنى ورجالى القوة والثبات

وتركته وسرت فى منعطفات الدار وأنا أحس فى نفسي سعادة عظيمة . وأراح بالى ان لى عضدا من السيد العابد وانه لا يكون عقبة في سبيل تنفيذ خطتى الجديدة فى السفر الى السودان بطريق العوينات .

ودخلت داري فلقيت جميع رجال قافلتى ورأيت فى وجوههم



طارقي بعداته الحربية فى الكفرة

من أول نظرة شوقهم الشديد الى معرفة ما قر عليه رأى السيد العابد فى أمر السفر . ودلفت الى غرفتى ثم ناديتهم لأسكن خاطرى أنا الآخر وأقر شوقى الى النجاح الذى أنتظره

ومرت بى برهة طويلة لزمت فيها السكوت قبل أن أتمكن من ضبط لهجتى وأظهر عدم الاهتمام بهذه المسألة الكبيرة ثم فاجأتهم بقولى « لقد بارك السيد العابد رحلتنا الى العوينات وقرأ الفاتحة ابتهالا الى الله بتوفيقنا » واشحت بوجهى عنهم غير مجترىء على توسم وجوههم وأردفت قائلا « ولقد حلت علينا بركة السنوسيين وزادها السيد العابد توثيقا والله يرزقنا الثبات والنجاح ويهدينا سواء السبيل »

الفصل الرابع عشر

الكفرة وموقعها على الخريطة

الجمعة ٦ ابريل :

أصبح الصباح فنفحنى أريج باقة من الورد تفضل باهدائها السيد العابد فعلمت عند انتشاقها كيف تكذب الصحراء اسمها أحيانا وكيف تزرى أزهارها بما يينع فى الرياض النضرة من مورق الاغصان .

وكان يوم جمعة فصليناها فى المسجد وكان حضور أمراء السنوسيين متوقعا . ودخل بعض البدو فى أبهى ثيابهم وغص المسجد بالمصلين الذين امتزجت فى صفوفهم قفاطين الحرير بمهلهلات الجرود . ووقفت اتفرس الداخلين الى المسجد فرأيت كبار تجار الزوىّ والمجابره وقد لبسوا الثياب الفاخرة التى لم تنبسط بعد غضونها من طول البقاء فى الصناديق ولمحت أعينهم المكحولة وشممت عرف الداخلين يعبق منهم ماء الورد المقطّر

فى الكفرة أو المسك وسائر الروائح العطرية المستجلبة من السودان .

وكان يأخذنى منظر الغنى الجليل اذا دخل فأخذ مكانه بين المصلين وتبعه اعرابى مهلهل الجرد أسمر الوجه مغضنه ولكنه لا يقل عن سابقه جلالا . ان الملابس لا تميز الرجال فى تلك المحافل فان قدر الرجل فى شرف النفس وكبر القلب . وهذه الصفات تنطق فى الجرود البالية بلسان أفصح عما تنطق به فى ثياب الخز ونفحات الطيب التى قد تضيع شيئا من شخصية أصحابها .

ويدخل أحد العبيد وقد يكون صفىّ أحد السنوسيين وموضع ثقته وتكون ثيابه الحريرية من بهاء اللون وجمال النسج بحيث تخفى مكانه من دائرة الرق ويشعر بقوة مركزه فيخترق صفوف المصلين تياها فخورا ويأخذ مكانه الى جانب أحد الوجهاء أو أحد الشحاذين

والغنى والفقير سواسية فى المسجد وربما ثأر الفقراء لانفسهم من الأغنياء فى بيت الله الذى لا يهيمن فيه غيره وشعروا بما يشعر به الأغنياء من العظمة أو فاقوهم فى هذا الشعور علاوة منهم بأنهم لا ينغمسون فى ترف الحياة ونعيمها فيلهيهم زخرفها عن الله تعالى .

وان البدوى ليدخل المسجد فى جرده المهلهل لاداء الصلاة كما يدخل الغنى فى ابهى ثيابه على شيوخ السنوسيين

ويستعد المصلون بعد فراغ المؤذن فيغشاهم السكوت ويدخل أمراء السنوسيين فيأخذون أماكنهم الخاصة وتلتفت اليهم الانظار فيظهر عليهم حياء الشباب ولا يقوم لهم أحد فى المسجد اذ لا مولى فى بيت الله الا الله وحده لا شريك له . ثم يصعد الامام المنبر ويلقى الخطبة التى تتفق فى مغزاها مع سائر الخطب التى سمعتها قبل ذلك فى صلاة الجمعة فى مساجد الواحات التى وقع لى أن دخلتها . ولا تخرج الخطبة عن النصح بترك حياة الغرور والترف والتهيؤ لأداء العمل الصالح للحياة السعيدة فى الآخرة فيقول الخطيب « اتركوا زينة الحياة الدنيا ومتاعها الغرور فأنهما سبيل الى الغواية وهما إن تملكا نفوسكم ضللتم سواء السبيل وحدتم عن سبيل الله . تقربوا الي الله بالعمل الصالح وأطيعوا أوامره . ان الحياة الدنيا فانية والآخرة خير وأبقى فاعملوا لآخرتكم تسعدوا فى دار الخلود »

والمسجد من الداخل جميل البناء رائعه وان كان بسيطا فى بنائه. نظيف الجدران البيضاء العارية . مفروش بالسجاجيد والحصر الرقيقة ويجلس المصلون بخشوع مولين الوجوه شطر الكعبة فى صفوف لا يقل عدد أفرادها عن مائتى مصلٍّ . يسبح بعضهم

بمسابح من حبات الكهرمان ويسبح الفقراء الذين لا يملكون مسابح بواسطة قبض الاصابع وبسطها . ومنهم من يظهر الغنى والثراء في جميع حركاته . ومنهم بدو الصحراء الضاربون بنظرات بعيدة يلوح فيها الهدوء والقناعة . ومنهم من تقلص وجهه وشحب لونه وفى هيئته السكينة والرضا بحكم الاقدار . يتوسم الناظر وجهه فيراه قاب قوسين من الموت جوعا . وهو لا يتمرد على القضاء ولا يتضجر من صروفه

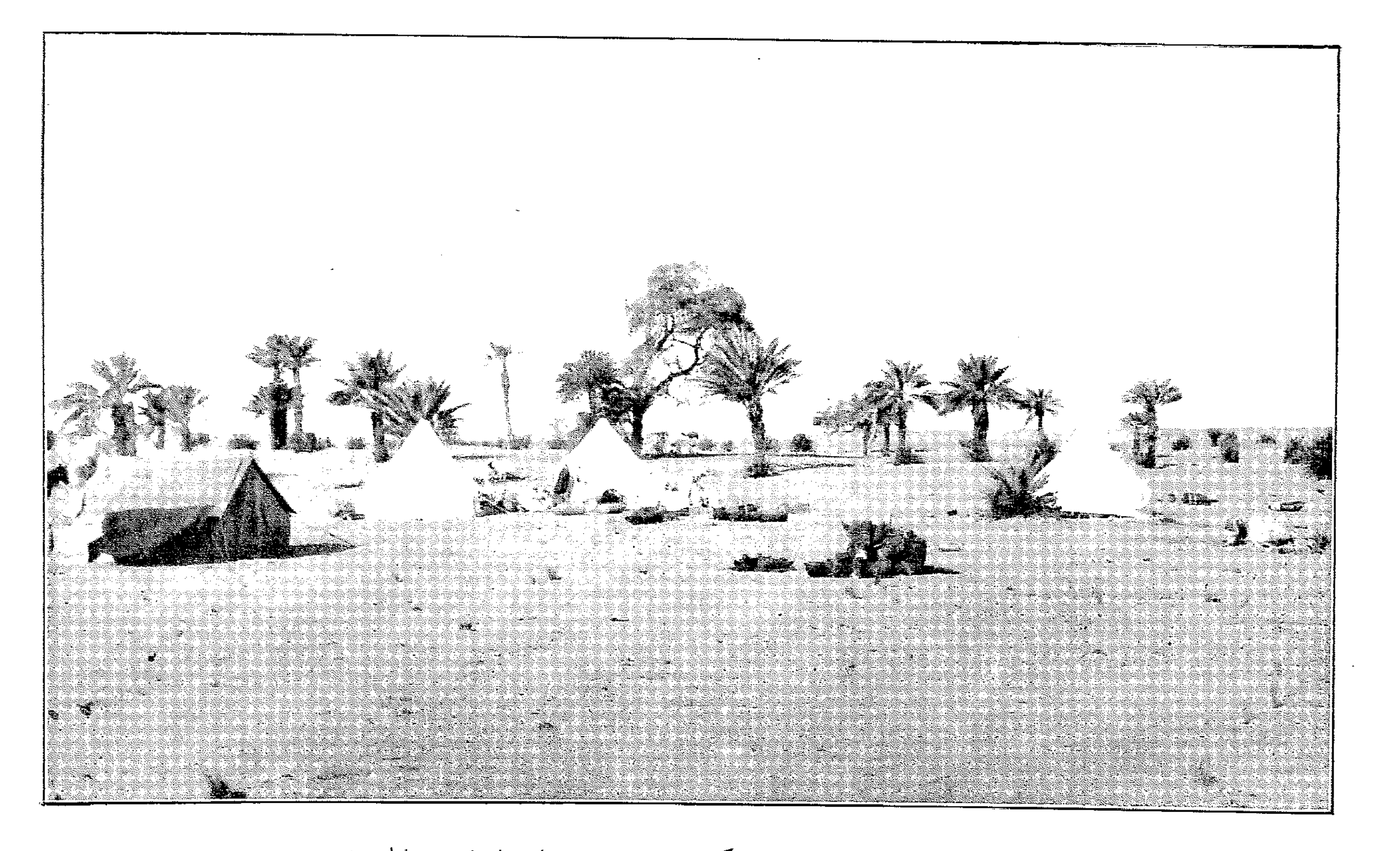
وجاءنى سليمان ابو مطارى بعد فراغى من الغداء فى منزل السيد العابد فتحادث معى فى أمر الرحلة . واخبرنى أن أبا حليقة ومحمدا الذى اخترناه دليلا قد تقابلا وأعادا الحديث فى الأمر ولم يزل أبو حليقة غير راض بالرحيل . وقضى عبد الله ذلك اليوم فى الجوف يجمع ما يمكنه جمعه من المعلومات عن طريق العوينات ويجتهد فى البحث عمن يرضى بتأجير جماله لنا من قبيلة التبو للسفر الى تلك الاصقاع المخوفة

وتعشيت فى منزل السيد العابد ثم قضيت ردحا من الزمن فى مكتبة السيد إدريس الذى أمر السيد الجداوى بفتح أبوابها لى

والمكتبة غرفة متوسطة الحجم ملأى بالصناديق التى تحوى الكتب المختلفة وسقفها مزين بالالوان الزاهية التى خطتها يد صانع

محب للسنوسيين جاء من تونس يؤدى خدمــة كما كان يقف المصــورون والنحاتون حياتهــم فى القرون الوســطى على تزيين الكنائس . وكان كل ما فى الغرفة من الاخشاب مستجلبا من مصر أو بنغازى. وكان فى الغرفة نافذة مفتوحة ليس فيها الا مصراعان من الخشب يدفعان عنها حرارة الشمس . والتنقل فى هذه الغرفة غير سهل لما صُف على جدرانها وفى وسطها من الكتب والصناديق . وكان فى الغرفة صناديق قديمة يتخذ منها خزائن ويسهل حملها على ظهور الجمال عند الحاجة لما وضع فى جوانبها من مقابض وحلقات والمكتبة قليلة النظام كدست فيها الكتب بغير عناية لان السيد إدريس هجرها طويلا . وفيها عدد عظيم من المخطوطات المحفوظة فى أغلفة من الجلد جميلة الصنع وعدد عظيم من الكتب الحديثة المطبوعة فى مصر والهند واكثر مخطوطات المكتبة مستجلبة من مراكش والجزائر وتونس وكل ما فيها مكتوب باللغة العربية الا القليل المكتوب بالفارسية . ومن بين المخطوطات بعض نسخ القرآن الكريم المزين بالذهب

وكانت لى ميزة عظيمة على سائر النــاس فى زيارتى لهــذه المكتبة لان الدخول اليها غير مباح . ووجدت فيها مخطوطات كثيرة كتبت على الرق وتنــاولت علوم الفلسفة واللغة العربيــة



معسكر الرحالة في العزيلة بالكفرة قبل السفر الى الواحات المجهولة

والفقه والتصوف والشعر وعلم النجوم والكواكب. وقضيت ساعات طويلة أمتع نفسى بتصفح هـذه المجموعة القيمة وأنعم بذلك الجو الهادئ البعيد عن العالم وأشعر كانى أتشبع بروح الافكار الشائعة فى هـذه المخطوطات والتقرب من الله عز وجل لما يحيط بى من السكينة والانقطاع عن جلبـة المدن التى يكفى من مظاهرهـا دقة تليفون تسمعه وأنت تقرأ هذه الكتب لتشعرك بقدم عهدها وعدم تمشيها مع الحاضر

السبت ٧ ابريل :

جاءنى حذاء بديع هدية من السـيد شروفه . وزارنى بعض شيوخ الزوىّ فتحادثنا عند شرب الشاى فى تاريخ قبيلتهم وعرفت من الحديث أنهـم لم يكونوا أول الفـاتحين للـكفرة وانما سبقهم الى أخذهـا من قبائل التبو قبـائل الجوازى والجهمه . وما اسما « الطلاب » و « الزّرق » وهما قريتان من قرى الكفرة الا اسمان لبعض اسر قبيـلة الجهمه . وأعطيت كلا منهم صـورة للجماعة الذين صورتهم قبل ذلك بأيام ففرحوا بها كثيرا

وتحققت فى ذلك اليـوم اخطار الكفرة فقد أضـاع رولف حياته فيهـا بفتك المهاجمين وكدت أضيع حياتى أنا الآخر ضحيـة

الضيافة باللطف واللين فقد تغديت كعادتى عند السيد العابد ذلك اليوم وأتبعت الغداء بالشاى المعطر واللبن المخلوط باللوز . وخرجت فأصر السيد شروفه على زيارتى له فى داره وقدم لى ثلاثة أكواب من الشاى المعطر وأردفها بمثلها من اللبن المخلوط باللوز ولم اتمكن من الرفض لان فى ذلك اهانة لرب الدار فابتلعت ما فى هذه الاكواب رغم ما كنت أحسّ به من تقزّز عند شربها

ولم ينته الامر عند هذا فقد دفعنى السيد شمس الدين الى داره ووضع أمامى شيئا كثيرا من البسكويت والبندق وكوبا كبيرة من الشراب الحلو ودعانى للاكل وليس لبشر أن يحتمل كل هذا ولكن الرفض اساءة لرب الدار فنلت منها وشربت ثلاثة فناجين من الشاى ثم قمت أترنح فى مشيتى بعد ذلك كما يتقدم الشهيد الى المشنقة نخورا وأتلوى من ألم التخمة كما يتلوى الشاب الاسبرطى من قرص الثعلب فى أحشائه

وانقلبت الى غرفتى أستريح واستعرض ما مر بى وفكرت فى أمر ذلك البدوى الذى انتخب رقم ثلاثة الغريب لاظهار الكرم البدوى ووددت لو انه مات قبل أن يبتدع هذه السنّة ثم رجعت فحمدت الله لانه لم يقع اختياره على الرقم سبعة

وقد أقبلت على الصحراء معرضا نفسى لفتك الطبيعة أو

البدو من بنى الانسان ولم يخطر ببالى لحظة فكرة الموت الذى ينشأ عن سوء الهضم وتكليف المعدة فوق طاقتها . ومع كل هذا فقد ذهبت فى الموعد المحدد الى دار السيد العابد لتناول العشاء كالعادة وكان بين المدعوين بعض شيوخ البدو فتناقشنا مرة أخرى فى أمر الرحلة الى الجنوب وكان أبو حليقة مصرا على رفضه الذهاب بطريق العوينات وقد قال « ان الشروط التى وضعها السيد إدريس تتناول رحلة الى واداى لا الى دارفور » ولذلك أبى أن يرمى برجاله وجماله فى تلك الطريق غير الآمنة

وأدليت بحجتى كما يناقش المحامى فقلت له « أما وقد اتفقت معى على قطع ٣٥ مرحلة من الكفرة الى الجنوب فما الذى يضيرك اذا كنت أنزلك على السير الى واداى أو الفاشر أو أطلب اليك العودة الى مصر

ولم تقنعه حججى ولكنه رأى اصرارى وعدم معارضة السيد العابد لخطتى وعرف رغبتى فى انقاص عدد الجمال المتفق عليها فرضى غير قاطع فى رضاه ولكنه أبى أن يرافقنى بنفسه أو يرسل معى أحد رجاله

الاحد ٨ ابريل :

حادثت أبا حليقة فى أمر جواده واشتريته بمبلغ ٣٣ جنيها

ذهبا وكان الجواد قويا صبورا على السفر يكفيه الشرب مرة كل يومين .

وبعد تناول الغداء صورت السيد العابد وحادثته طويلا فى أمر مرضه الذى يتحمله بصبر البدو وجلدهم وتكلمنا فى شؤون برقة ومصر وتناولنا ذكر رحلتى الى السودان

ولم أكن موفقا فى أعمالى الفنية بالكفرة فانى وجدت صعوبة شديدة فى عدم التعرض للانظار والانتقال وحيدا فى نواحى الوادى لاستعمال أجهزتى بدون إثارة الظنون . وكان من سوء حظى أن السماء ظلت كثيرة الغيوم أيام إقامتى فلم اتمكن من رصد الشمس والنجوم بواسطة التيودوليت وشعرت بتعب شديد بعد العشاء وكنت قد استنفدت الاقراص التى جئت بها لمكافحة سوء الهضم وانتظرت بفارغ الصبر خروجى الى الصحراء وتمتعى ببساطة العيش .

الاثنين ٩ ابريل :

كان يوما كثير الغيوم ولكن نسيما بليلا كان يهب طول النهار فقضيت يوما هادئا أقرأ فى مكتبة السيد إدريس واحمّض «أفلاما» جديدة واشترى قربا وشعيرا لأجل الرحلة . واهدانى السيد العابد نسخا بخط يده لبعض رسائل السيد المهدى الى كثير من

الاخوان وأهدانى سكينا مغربيــة فى قراب من الفضة وبندقيــة بديعة التطعيم

الثلاثاء ١٠ ابريل :

انقشعت السحب بعد الظهر فأخذت صورة الوادى واتفقت مع صانع الأحذية على صنع أحذية لى ولرجالى وعمل مناطق من الجلد لوضع الرصاص لان الرجال أصروا على حملها لما سمعوا من الاشاعات المخيفة . وقابلت محمد سكر الذى اخترته ليكون دليلنا فى طريق العوينات لاول مرة ومالت اليه نفسى

الاربعاء ١١ ابريل :

سمع السيد العابد بشرائى الجواد فاهدانى سيفا طارقيا وبندقية ايطاليــة . وأمكننى أخيرا أن أقوم بعمــل بعض أرصاد وابحاث بواسطة التيودوليت وكنت فى شوق شديد الى مقارنة نتائج بحثى بنتائج رولف الرحالة الألمانى الذى زار الكفرة منذ ٤٥ سنة

الخميس ١٢ ابريل :

أرسلت الى دار السيد العابد بندقيتى هدية وركبت مع السيد محمد أبى ثمانية والسيد الزروالى الى الجوف فقابلنا وجهاء المدينـة وزرت الســوق وكان يوم انعقاده كل أســبوع . وزرت الجامع والزاوية وهى أقدم مدارس السنوســيين فى الكفرة . والجوف

مركز تجارة الكفرة وقد شاقنى فى السوق رؤية ما اختلط فيها من البضائع من (خراطيش) تدل علامتها على صنعها منذ ٣٠ سنة وعلب تحوى توابل ايطالية مستجلبة من بنغازى وأقمشة منسوجة فى منشستر وواردة من مصر وجلودا وعاجا وريش نعام من وادای ودارفور . وحاصلات الجنوب قليلة فى الكفرة الآن الا اذا أحضرها أحد التجار من وادای ومنعه سبب من السفر بها الى الشمال لبيعها فى برقة أو مصر

ولم تكن الكفرة ذات تجارة عظيمة الا قبل فتح السودان فان سبيلها فى تلك الايام كانت أسهل لحمل محصولات وادای ودارفور من السبيل التى تفضى الى الشرق . ولا يزال يمر بطريق التهريب الى اليوم عاج إناث الفيلة والعاج الذى يقل وزنه عن ١٤ رطلا وهما شيئان منعت حكومة السودان تصديرهما

وليست الكفرة طريقا للتجارة فحسب وانما يقصدها من يملك العبيد من شيوخ الزوى لفلاحة الارض فيزرعون الشعير والذرة ويزرع السنوسيون البطيخ والعنب والموز والقرع وغير ذلك من أنواع الخضر التى يسر السائح رؤيتها ويلذه طعمها بعد حياة الصحراء . ويزرعون النعناع والورد فيستخرجون منهما ماء الورد وخلاصة النعناع الضروريين فى اظهار كرم الضيافة . ويستخرج

الزيت من أشجار الزيتون بواسطة معاصر عتيقة .

وحيوانات الكفرة الجمال والخراف والحمير وقليل من الجياد. واللحم مع هذا غالى الثمن لعدم وجود المراعى فى الوادى . وتعيش الحيوانات على نوى البلح المطحون وهو غذاء صالح الا أن إطعامها حشيشا أخضر واجب من وقت لآخر . ويربى السنوسيون ــ وهم أكثر تقدما من جيرانهم فى كل شيء ــ الفراخ والحمام .

وسمعت فى الكفرة ان أثمان العبيد ارتفعت ارتفاعا هائلا فى السنين الاخيرة لقلة من يرد منهم من جهات واداى نظرا لعين السلطات الفرنسية الساهرة فى تلك الجهات . ويحتال بعض البدو لاستجلاب العبيد فيعقدون الزواج على بنات واداى ثم يعودون بهن الى الكفرة فيطلقونهن ويبيعونهن .

وقد عرضت علىّ جارية أثناء سياحتى سنة ١٩١٦ بمبلغ ١٢٠ فرنك ولكن ثمن الجارية يتراوح الآن بين ٣٠ و ٤٠ جنيها وثمن العبد أقل من ذلك .

وقد يتزوج البدو من هذه الجوارى فاذا أنجبت احداهن ولدا أصبحت حرة طليقة . والبدو لا يهتمون بفوارق الالوان . فاذا ولدت جارية لشيخ قبيلة ولده البكر فان هذا الولد يصبح بحكم الواقع رأسا لهذه القبيلة بعد أبيه مهما كان اسود اللون

وأبناء العبيد عبيد كذلك . أما ابن الجارية من رجل حر فهو حر كذلك مهما كان فقيرا ولن يكون عبدا ولو تركه أبوه يتيما

واقتناء العبد المخلص شيء يفضله البدوى كثيرا فان العبيد أقوى من الاحرار وأصون لسر سيدهم وهم يعاملون معاملة حسنة ويصبحون أفرادا من الاسرة بعد طول العشرة

ويلبس العبيد ثيابا فاخرة لانهم مرآة تتجلى فيها صور أسيادهم وليس (على كجا) عبد السيد ادريس الصفى موضع ثقته فحسب ولكن له فوق ذلك قوة وسيطرة لا يملكها الكثيرون من أحرار البدو

والعبد صادق الكلمة فاذا حمل السيد العابد رسالة الىّ مع عبده أيقنت بصدقها عالما ان واجبه يقضى عليه بتبليغ ما حمّله . وكذلك اذا أردت أن أبلغ مسامع السيد العابد شيئا لا أريد اطلاع رجل آخر عليه أفضيت به الى عبده بدون تردد موقنا ان الرسالة لا بد مؤداة الى سيده دون غيره

وللعبد الحق فى شراء جارية وقد سألت (على كجا) ذات مرة عن أثمان العبيد فقال « ان أثمانهم غلت هذه الأيام غلاء فاحشا فقد اشتريت جارية دفعت فيها ٤٠ جنيها ذهبا وقد قال لى ذلك بلهجة لا يستشف منها انه كان عبدا فى يوم من الأيام . وأرثّ عبيد

الواحة ثيابا هم المطلقون وهم موضع ازدراء بقية العبيد وربما شعر العبد الطليق بالخجل لعدم وجوده فى حيازة انسان

والنخيل كثير فى وادى الكفرة وأكثره ملك للسنوسيين والسبب فى ذلك ان الزوىّ حين دعوا سيدى ابن على السنوسى الى الكفرة نزلوا للسنوسيين عن ثلث ما يمتلكون من أرض ونخيل . ولم تبق النسبة محفوظة بين ما يملكه الزوىّ من النخيل وبين ما يملكه السنوسيون فقد أسرع الأولون فى زيادة نخيلهم بما زرعوا من جديد ولا يزال يبدو لعين الرائى الى هذه الايام ذلك السور الذى يفصل أراضى السنوسيين من أراضى الزوىّ

ورأيت فى طريق عودتنا من الجوف حفلة زفاف وكان العريس قائد جيوش الكفرة ودعانى أبو العروس الى تفريغ البارود تشريفا للحفلة فسرنى أن أقوم بتأدية هذا الواجب للضابط لانه صديق قديم لى . ولما أطلق رجال الحفلة النار تحية ركضت بجوادى كما يفعل البدوى الصميم واتجهت صوب الجماعة ثم اوقفته دفعة واحدة أمام العروس وصوبت بندقيتى الى الارض قدامها ثم أطلقت النار . وقد أدهشنى جوادى «بركة» حين سمع طلقات بنادقهم وأسرع بالعدو ووقف بى مرة واحدة على المسافة

المقـدرة من العروس لإطلاق النـار ولا بدع فى ذلك فهذا شىء تدربت عليه خيول البدو

الجمعة ١٣ ابريل :

جاءنى عبد من عبيد السيد إدريس يطلب دواء لمرض لزمه شهرين وفحصته فوجدته يشكو سوء هضم يتخلله قىء وأعطيته بعض (الإتير) على قطعة من السكر وأمرته ان لا يتناول الا اللبن والارز فتحسنت حالته عن قبل

ووصل أبو حليقة من الهوارى ومعه ١٧ جملا فطلبت اليه أن يتمها خمسا وعشرين كما اتفقنا من قبل . وزارنى الضابط العريس وصهره يشكرانى على ما أديت من التحية فى حفلة الزفاف

السبت ١٤ ابريل :

أحضر أبو حليقة بقية الجمال وكان حائرا فى أمر ارساله رجلا يصحبنا فى الرحلة . وأبى أن يرسل ابنه أو عبده ظنا منه بانا مقبلون على سفرة قد لا نخرج منها أحياء . وكان يتوقع من الجهة الأخرى أن القدر قد يساعدنا وننجو من مخاوف الطريق فخيّره أن لا يمثله أحد فى تلك الاصقاع النائية فيعود بجماله أو يشرف على بيعها كما هى العادة بعد مثل هذا السفر الطويل ، وقضينا عصر اليـوم فى التحميل ومساءه فى عمل الأرصاد والمعاينات وكانت الليلة ثالثـة

الليالى التى امكننى فيها أن أرى نجم القطب الشمالى منذ هبوطى الكفرة وقد صممت أن لا أترك الكفرة قبل أن أضاعف ما أخذت من الملاحظات المتنوعة فى الليالى المختلفة .

الاحد ١٥ ابريل :

قضينا الصباح فى تحميل الجمال وما زال أبو حليقة مرتبكا فى أمر ارساله رجلا من رجاله ولكنى لم أهتم بأمره كثيرا بعد يقينى من استصحاب الإبل . وقد تحسنت صحة العبد الذى تعهدته تحسنا غريبا فجاء يشكرنى وكنت أشد الناس تعجبا مما وصلت اليه فى شأن معالجته .

وبدأت القافلة السير فى الساعة الثانية بعد الظهر قاصدة بئر العزيلة وهى آخر آبار وادى الكفرة فى الجغبوب حيث قررنا الاقامة أياما لاجراء الترتيبات اللازمة لتجهيز كل شىء قبل الاقدام على تلك الشقة الطويلة . واشتريت نعجتين لنحرهما طبقا لعادة «أبى الظفر» لانه لم يكن بين رجال القافلة من قام بهذه الرحلة من قبل . وكان جميع رجالى فى ثياب جديدة تبهر النظر وكانت بنادقهم التى أتقنوا تنظيفها تلمع فوق ظهورهم وكان يبدو النشاط والقوة على العدد الاكبر من جمالنا الجديدة .

الاثنين ١٦ ابريل :

أرسلت جوادى مع عبد الله الى الجوف لوضع « حدى » له لانى وجدت الارض الصخرية صلبة الموطىء يخشى أن تؤذيه . وبعثت بصينية نحاسية الى القائد هدية منى بمناسبة زواجه وأرسلت الزجاجات الثلاث الاخيرة من دواء (بوفريل) لعبد السيد ادريس وأجلنا سفرنا لان الدليل كان مشغولا بقضية جمل له

الثلاثاء ١٧ ابريل :

أفطرت فى دار سليمان بومطارى من كبار تجار زوى بالكفرة ومشهور بالكرم وكان معنا السيد الزروالى وعبد الله والقومندان وصالح ومحمد ابى ثمانية وقد تبادل الجلوس النكات حول العريس الجديد لامساكه عن الاكل من صحفة لحم مطبوخ بالبصل . وقال أبو ثمانية وهو يغمز بعينه « انهن لا يصفحن وهن شباب » اى أن زوجته الجديدة لا تسامحه اذا شمت فيه رائحة البصل . واشتريت هجينا لى خاصة ودفعت فيها تسعة جنيهات وهكذا انتهى كل شىء وأصبحنا على قدم الاستعداد للمسير

وكنت أرجو وأنا أرصد نجم القطب للمرة الاخيرة أن أوفق فى تعيين الموضع الحقيقى للكفرة على الخريطة وكان بى شوق شديد الى التحقق من الموضع الذى عينه رولف لهما حسب ملاحظات

رفيقه (ستيكر) فى بويمه . ولم تكن التاج قد بنيت بعد فى عهد
رولف فوضح لى بعد أن قمت بعمل ملاحظاتى الاولى فيها ان
النتائج التى وصلت اليها لا تتفق مع نتائج ملاحظات (ستيكر)
فى بويمه الواقعة على بعد كيلو مترين من التاج فى اتجاه ٥٤ درجة
شرق الجنوب الحقيقى . ولذلك صممت أن لا أترك الكفرة قبل
أن اتمكن من عمل ملاحظات عديدة تمنعنى من الوقوع فى الخطأ
ولذلك رصدت النجم القطبى ست مرات بواسطة التيودوليت فى
ظروف قرر الدكتور بول فى فقرته اللامعية المرفقة بهذا الكتاب
انها لا تترك مجالا لخطأ اكثر من دقيقة واحدة فى خطى الطول
والعرض . وكانت نتيجة هذه الابحاث عند الفراغ من فحصها بعد
عودتى الى مصر ان الكفرة تبعد ٤٥ كيلو مترا جهة الجنوب الجنوبى
الشرقى عن الموقع الذى قرره لها رولف بعد ملاحظات (ستيكر)
ووجدت ارتفاع الكفرة شديد الانطباق على ما قرّره رولف
وكان علو وادى بويمه ٤٠٠ متر وارتفاع التاج ٤٧٥ متر عند التل
المشرف على الوادى

تم المجلد الأول « فى صحراء ليبيا » ويليه المجلد الثانى محتويا على اكتشاف واحتى أركنو والعوينات وباقى الرحلة الى دارفور وكردفان ومزيلا بتقرير طبوغرافى عن الرحلة بقلم الدكتور بول مدير قسم مساحة الصحراء بمصلحة المساحة المصرية وتقرير جيولوجى بقلم الدكتور هيوم مدير قسم الجيولوجية المصرية والمستر مون وقصيدة لشاعر الشرق احمد شوقى بك

فهرست

مواضيع الكتاب :—

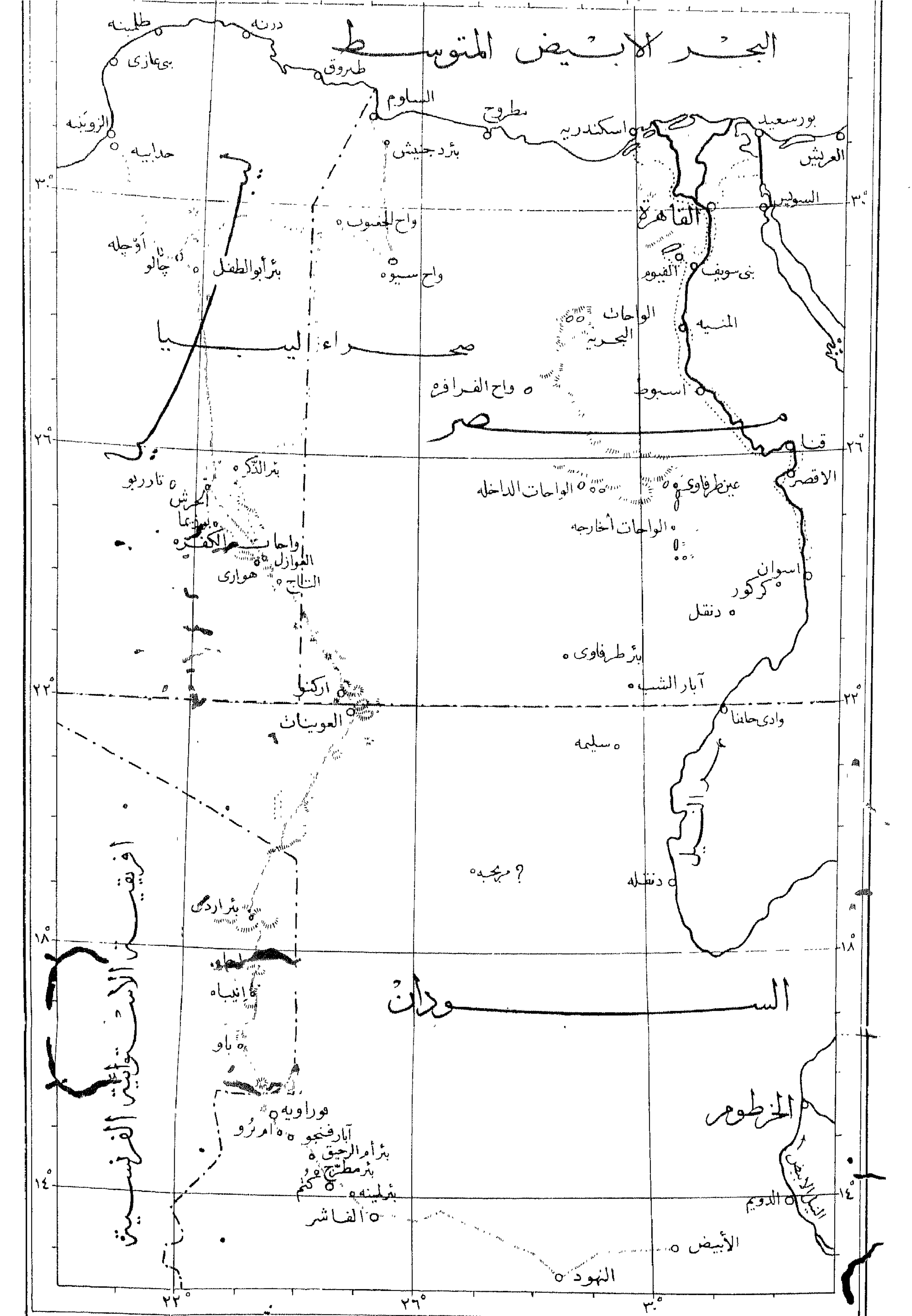
خطأ وصواب

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٢٦	١٥	ممن	من
٢٧	١	مجتازوا	مجتازو
٢٧	١٣	يوسع	يوشع
٤٣	٩	قافلة	قافلته
٤٧	٦	توافر	توفر
٨٠	٧	أنانيب	أنابيب
٨١	٣	متلاصقة	متلاحقة
٨٥	١٢	اعذارا	انحدارا
٩٥	١١	الاخوان	الاخوانى
١١٨	١١	مشد	مسد
١١٨	١٧	ساقنى	شاقنى
١١٩	٨	هات	هاك
١٢١	١٠	بلياقة	بلباقة
١٢٣	٦	لواحة	واحة
١٢٦	٧	صهيد	صيهد
١٢٧	١٦	يفخر	يغمز
١٣٨	١	الغينه	القينة
١٧٦	٩	متوشحة	متوشجة

فهرست

مما اشتمل عليه الكتاب من الصور

تابع فهرست الصور



البحر الابيض المتوسط
طلميته
درنه
بنغازى
طبروق
السلوم
الزويتنه
حدابيه
مطروح
اسكندريه
بورسعيد
العريش
بئر جبيش
السويس
القاهرة
واح الجغبوب
اوجله
جالو
بئر ابو الطفل
واح سيوه
بنى سويف
الفيوم
الواحات البحرية
المنيه
صحراء اليبيا
واح الفرافره
اسيوط
مصر
قنا
بئر الذكر
تازربو
الاقصر
الواحات الداخله
الواحات الخارجه
واحات الكفره
الهوارى
اسوان
كركور
دنقل
بئر طرفاوى
آبار الشب
اركنو
العوينات
وادى حلفا
سليمه
مرجبه
دنقله
بئر اردى
انيباه
السودان
باو
الخرطوم
وراويه
امرُو
آبار فنجو
بئر ام الرجيق
بئر مطمح
كتم
بئر بلينه
الفاشر
الدويم
النيل الابيض
الأبيض
النهود
افريقيا الاستوائية الفرنسية

فى صحراء ليبيا

أحمد محمد حسنين

المجلد الثانى

لهذا الكتاب رواية عن رحلة ... فى التيه أدعى من نزهة فى الغاب
صحراء فى طول الظنون وعرضها ... تُطوى وتُنشر فى فصول كتاب

شوقى

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

الفصل الخامس عشر

الواحات المجهولة . اركنو والعوينات

الاربعاء ١٨ ابريل :

وجد أبو حليقة فى آخر الامر رجلين يصحبان جماله وهما بوكاره وحامد وكانا فقيرين أغواهما المال فأنساهما الخطر . وأرسل السيد العابد ثلاثة مثلوه فى توديعنا وقد أحضروا لى خطاب توديع منه نال من نفسى كثيرا.

وجاء أبو حليقة يودّعنا كذلك وكانت عيناه نديّتين وما أظن ان ذلك كان اشفاقا منه على جماله أو رجليه فان رغم ما نجم بيننا من خلاف فى الرأى ظللنا صديقين مخلصين يحب كل منا الآخر ويحترمه .

وجاء أصدقاء رجالى لتوديعهم فأفرطوا فى ذلك حتى كأن ذلك الموقف كان لوداع أخير . وكان ذلك التوديع أحرّ ما رأيت فى رحلتنا وأفعله فى النفس وكانت كلمات الوداع الأخيرة « رافقتكم

السلامة . المقدر لا بد من وقوعه . هداكم الله سواء السبيل ووقاكم كل مكروه »

ولم يكن ذلك التوديع مما يشعر قلوب المقيمين والظاعنين بأمل اللقاء أو اليقين من العودة . وكان فى جُمل التوديع الأخيرة المتبادلة بين الفريقين تهدّج لم يخف عنى مبعثه فى نفوسهم لعامى بما حدث فى الايام السابقة للسفر ويقينى من الخوف الذى تملكهم أجمعين .

وكانت افكارى وأفكارهم فى ذلك الموقف متباينة فانى كنت أهش الى التفكير فى الواحات المجهولة والسير فى الطريق البكر والاندفاع صوب المجهول ، أما هم فكانوا يظنون ان هذا آخر مرة يشدون فيها على أيدى أصدقائهم وقد ارتسمت ملامح الاشفاق على وجوه بعض من جاءوا يودعونا كأنما كتب على وجوهنا الموت وارتسم على جباهنا الفناء ولكنهم كأهل البادية كانوا يشعرون بان ذلك الرحيل كان مكتوبا فى لوح القدر . وقرأنا الفاتحة ثم أردفها أحد الرجال بالأذان .

وصحبنا المودعون حتى شفا الوادى الذى تنتهى عنده الواحة وتمتد الصحراء . ثم تركونا غير ناظرين فى أثرنا فانحدرنا الى الصحراء المنبسطة وتلفتت أعيننا الى أجمات النخيل وكانت الشمس



الرحالة يرصد الشمس بآلة التيودوليت

تجنح للغروب والغسق ينشر غلالته على الكفرة التى أخذت تختفى شيئا فشيئا فى ذلك النور الآخذ فى الانطفاء وكأنَّا ننظر الى المدينة من ثقب آلة تصوير

وكنت أتوق الى الابتعاد عن الكفرة حتى ينمحى شبحها فى أعين الرجال فينسوا وداعهم الماضى ويفكروا فى المستقبل ويفرغوا الى تأدية واجبات السفر . واختفت الكفرة فانبسط أمامى المجهول المملوء أسرارا وسحرا يتصورهما الفكر فى كل بقعة من أرض لم تطأها قدم غريب عنها .

وكان قيامنا فى منتصف الساعة الخامسة ووقفنا الساعة الثامنة وربعا وقطعنا ١٥ كيلو مترا . وكان الجو صحوا جميلا لا ريح فيه والارض رملية صلبة قليلة التموج مغطاة بحصى دقيق

وتركنا نخيل العزيلة والكفرة فاجتزنا منطقة من الحطب تشابه منطقة الطيغن ودخلنا السريرة الساعة السادسة الا ربعا وفى منتصف السابعة مررنا بتلال تمتد على الجانب الجنوبى لوادى الكفرة وفى الثامنة الا ربعا وصلنا (حطية الحويش) الكثيرة الحطب . وخلفنا رجلين فى حراسة حملين تركناهما على أن يحملهما جملان لعبيد التبو .

وكانت قافلتنا مؤلفة من ٢٧ جملا و١٩ شخصا أنا والسيد

الزروالى وعبد الله واحمد وحمد واسماعيل والسنوسى أبى حسن والسنوسى أبى جابر وحمد الزوىّ وسعد الاوجلى وفرج العبد وبوكاره وأخيه الأصغر وحامد الجمّال وحسن ومحمد الدليل وثلاثة من عبيد التبو .

الخميس ١٩ ابريل :

قمنا فى الساعة الثانية الا ربعا بعد الظهر ووقفنا السابعة وربع مساء وقطعنا ٢٤ كيلو مترا . أعلى درجة للحرارة ٣٢ وأقلها ١١ . الجو صحو جميل قليل السحاب والنسيم هابّ من الجنوب الشرقى قارّ عند الظهيرة

ودخلنا السريرة مرة أخرى بعد اجتياز حطب الحويش وكانت منبسطة صلبة الرمال مغطاة بحصى دقيق وكان شرق الحطيّة سلسلة من التلال الرملية المغطاة بحجارة قائمة يقابلها مثلها جهة الغرب على بعد أربعة كيلو مترات

وفى الساعة الثانية وربع وصلنا نهاية «حطيّة الحويش» وعرضها كيلو متران وفى الساعة الرابعة الا ربع رأينا جارة على بعد كيلو مترين من اليسار وفى الساعة الخامسة رأينا جارة أخرى على بعد أربعة كيلو مترات من اليمين وفى الساعة السادسة أصبح الرمل

اكثر نعومة وعليه اكوام متناثرة من الحجارة السوداء وصفحة الصحراء متجعدة . وقد تأخر رحيلنا لانتظار الجملين اللذين خلفناهما . فقضينا وقتا فى جمع الحطب وكان الجو شديد الحر بعث التعب بسرعة فى أوصال الجمال . وهذه الارض مشابهة للمسافة الواقعة بين بو الطفل والظيغن . وقد امكننى بفضل هجينى أن أتأخر عن القافلة فأقوم بعمل بعض الملاحظات دون أن أهيج سوء ظن رفقائى فيما أفعل واضطررنا لحط الرحال فى ساعة مبكرة نظرا لحال الجمال

الجمعة ٢٠ ابريل :

قمنا الساعة الثانية صباحا ووقفنا فى منتصف الساعة العاشرة صباحا ثم سرنا فى منتصف الرابعة وانتهينا من السير الساعة الثامنة فكان ما قطعناه ٤٨ كيلو مترا . أعلى درجة للحرارة ٣٢ وأقلها ١٠ وذلك بعد منتصف الليل بنصف ساعة . وكان الجو صحوا جميلا وهبت ريح باردة من الجنوب الشرقى فى الصباح. وسكنت عند الظهر وسارت فى الساعة الرابعة وفى المساء تغير اتجاهها الى الشمال الشرقى

وفى الساعة الرابعة اخترقنا جهة متجعدة منثورة بالحجارة وفى الساعة السادسة دخلنا السريرة مرة أخرى فانبسطت الارض

وطلعت الشمس الساعة السادسة فرأينا ذات اليمين وذات اليسار تلالا رملية تبعد عنا من ١٠ الى ١٢ كيلو متر . ورأيت خُطّافا فى الصباح وصقرا فى العصر . وفى الساعة الرابعة وثلث قطعنا أكواما منخفضة من الرمل ورأينا جارة سوداء ممتدة قليلة الارتفاع على بعد ١٠ درجات من جنوب الجنوب الشرقى . وكانت هذه المرحلة أردأ مراحل السفر لاشتداد الحر والبرد فقد زاد الحر فى الظهر حتى عاقنا عن السير واشتد البرد فى الليل فصعب علينا المسير ولذلك قسمنا المرحلة قسمين فكنا نبدأ السير بعد منتصف الليل ونستريح فى حمارة القيظ وضايقنا ذلك لعدم تمكننا من اتقان حزم الحوائج فى الظلام . وتحسنت حال الجمال اليوم . وكان رابع أيام الشهر العربى والبدو يقيسون الجو على ذلك اليوم معتقدين ان جو بقية أيام الشهر يطابق جوه وقد صدق هذا القياس هذه المرة .

السبت ٢١ ابريل :

قمنا فى منتصف الساعة الثالثة صباحا وفى الساعة السادسة دخلنا جهة صخرية امتدت بنا الى مسافة ١٢ كيلو مترا . واجتزنا الى اليسار جارة (كودى) ودخلنا السريرة فى الساعة التاسعة تكتنفنا عن بعد تلال الرمل ذات اليمين وذات اليسار

ومرض أحد الجمال عقب بدئنا فى المسير ورفض أن يستمر

جبال أركنو

فى سيره رغم رفع أثقاله وتركنا بدويين يحجبانه ولكن مساعينا فى مداواته ذهبت أدراج الرياح فاضطررنا الى ذبحه . وحظرت على البدو أن يأكلوا لحمه ولكن اثنين من التبو انتهزوا فرصة وقوفنا ظهرا ورفعا الاحمال عن جمليهما ثم رجعا لتجفيف لحم الجمل وتركه حتى يعودا من العوينات فكان ذبح الجمل وانتظارنا العبدين سببا فى تأخيرنا ساعة .

ولم ينم رجالى الليلة السالفة الا قليلا وظهر عليهم التعب بعد شروق الشمس ولكن الذى أنهك قوى الرجال والجمال لم يكن فى الحقيقة الا اشتداد الحرارة بين الظهر والساعة الرابعة . وبدأنا السير فى منتصف الساعة الخامسة وكل أفراد القافلة متعبون بطيئو الخطو . ورأيت صقرين ومراقد حديثة للطير فوق الرمال .

الأحد ٢٢ ابريل :

كان سيرنا فى أرض منبسطة صلبة الرمال نعثر فيها من وقت لآخر ببعض التلال الرملية المغطاة بالصخور السوداء التى يتراوح ارتفاعها بين ثلاثة أمتار وعشرة . وفى منتصف الساعة السادسة رأينا سلسلة من التلال على يسارنا تقطع سبيلنا فى امتدادها من الشمال الى الجنوب الغربى وفى الساعة الثامنة دخلنا أرضا جميلة

ظللنا نسير فيها عامة اليوم وعثرنا فيها على بيض نعـام مهشم واسم هذه الناحية (وادى المراحيج)

وقد أتقنا تحميل جمالنا . ذلك اليـوم ولكن الرجال ما زالوا مجهودين وقـد تخلف الـكثيرون عن القافلة ليغنموا نصف سـاعة يغفـون فيها ثم يلحقون بهـا عند استيقاظهم . وأحضر لى بوكاره نسرين صغيرين لقطهما من عشهما فى قمـة جارة فأمرته أن يرجعهما وأشرفت على ذلك بنفسى .

ومرضت هجينى فاضطرتنى الى رفع حملها وسرجها طول بعد ظهر اليوم . وحططنا الرحال عند الظهر فنام رجالى ملء جفونهـم وغط غطيطهم ولم يرقنى هذا النـوع من السفر الممل ولكننا كنـا مثابرين على كل حال .

الاثنين ٢٣ ابريل :

قمنا فى منتصف الساعة الثالثة صباحا ووقفنا السـاعة التاسعة وربع صباحا وقمنا ثانيا الساعة الرابعة الا ربعا ووقفنا الساعة التاسعة مساء فقطعنا ٤٦ كيلو مترا . وكانت هذه المرحلة أشد المراحل انها كا لقوانا فأنا لم نم فى اليوم اكثر من أربع ساعات مدة ثمانية أيام ولم نكد نبدأ السير حتى تخلف الرجال دفعة واحدة لاغتنام نصف ساعة اغفاء تاركين جمالهم تتبع النور الضئيـل الذى ينبعث من مصباح

الدليل . ولم اتمكن من الاستمتاع بهذه الغفوة خشية منى على أجهزتى أن يصيبها شيء . وكنا قد حملنا الجمال فى الظلام فلم أكن واثقا من دقة التحميل وخفت أن تنحل بعض الاربطه فيتكسر من حوائجى جهاز علمى أو آلة تصوير .

وحدث فى فترات متتابعة أن تقف الجمال واحدا بعد الآخر فتبرك وترفض النهوض فيأتى أحد عبيد التبو ويضغط بإبهامه على عرق خاص فى جبهة الجمل فيعيد اليه قواه ويبعثه على السير . وكنا نجهد فى قطع تلال الرمل العالية الشديدة الانحدار فرأينا أمامنا بغتة جبالا قائمة كقصور القرون الوسطى وقد أحاط بها ضباب الصباح حتى كاد يخفيها عن الابصار . وسطعت الشمس بعد قليل على هذه الجبال فصبغت لونها الرمادى بلون الورد . وتخلفت عن القافلة فجلست مدة نصف ساعة على تل رملى ثم تركت عقلى وقلبى يشربان حسن هذه الجبال البديعة .

لقد وجدت ما كنت أنشده فقد كان ما رأيت جبال «اركنو» وكانت تلك الساعة مشهودة فى تاريخ رحلتى . فيها نسيت ما لقيت من المصاعب وما أتوقعه من المخاطر . فى تلك الساعة بل فى تلك اللحظة نسيت ساعات طويلة من الألم بل أياما عديدة أضنانى فيها الجهد والتعب . فى لحظة واحدة نسيت الأهوال التى تجشمتها والعقبات

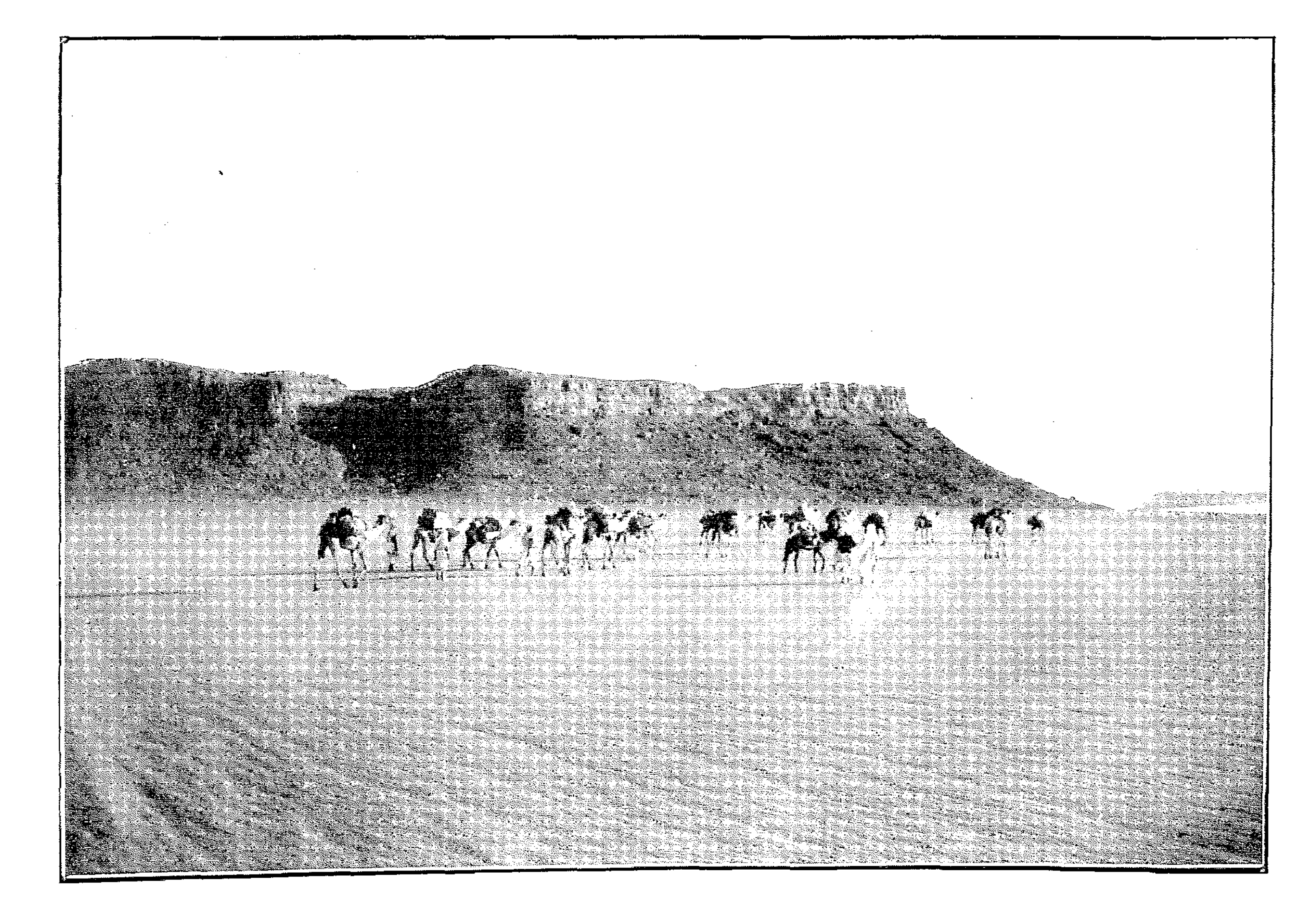
التى ذللتّها لأصل الى تلك الواحة المجهولة المفقودة . الى تلك البقعة الصغيرة المنيعة الضائعة فى هذه الصحراء الفسيحة القاسية الجافة القاحلة .

رأيت جبال «اركنو» عن بعد فرأيت طلائع النجاح والتوفيق فقد كانت واحتها إحدى الغايات التى رميت الى اكتشافها

وظللنا نتصعد ونتصوب بين تلال الرمل فى ساعات الليل الباردة السابقة لطلوع الفجر . حتى اذا بان خيطه وأصبحنا عند آخر تل من تلال الرمل اختفت جبال اركنو بغتة كأن ستارا أسدل عليها دفعة واحدة فزال باختفائها عن عينى ذلك المنظر الرائع الذى لم تر عينى مثله فى صحراء ليبيا منذ تركت السلوم . فقد كانت جبال اركنو فريدة فى جمال مناظرها خلبت لبي حتى خيل لى إننى لا أسير فى الصحراء .

الثلاثاء ٢٤ ابريل :

كان اليوم الحادى عشر بعد المائه من تركنا السلوم والاربعين بعد المائة من تركنا القاهرة وكان سيرنا فى أرض حرّة متموجة وفى الساعة الخامسة صباحا اجتزنا تلالا رملية ثم سرنا فى أرض حجرية صلبة منطاة بالحصى . وكان على بعد مائة متر من شمال اركنو تل عظيم من الخراسان يبلغ طوله كيلو مترين وارتفاعه زهاء



جبال العوينات

المائة متر . وبزغت الشمس فكان شروقا بديعا امتزجت فيه الظلال النهبيــة بقطع من السحاب رمادية اللون وهــدأت ريح الصباح الباردة فدفىء الجو .

وجبــل اركنو كتل من الجرانيت خالط سطحه الرمادى اسمرار يضرب الى الحمرة . وهذا الجبــل قائم فى مدى طــوله على ارتفاع واحد يبــلغ ٥٠٠ متر من سطح الصحراء وهو مكوّن من سلسلة كتل مخروطية الشكل متلاصقه القــواعد . وقربنا منه من أقصى جهاته الغربية . وكنا فى تقدمنا اليه لا نستطيع معرفة مدى امتداده . وكانت أبعد نقطة نراها منه فى ذلك الاتجاه قنة مرتفعة وسرَنا حوله من جهــة الركن الشمالى الغربى فاصبنا مدخل الوادى الممتد الى جهة الشرق . وكان فى هذه الناحية من الصحراء شجرة منفردة من النوع الذى يسميه الجرمان « اركنو » ويسميه البــدو «صرخه» ومن هذه الشجرة اتخذت الواحة اسمها

ونصبنا خيامنا على مقربة من الشجرة ولم يكن ذلك بالموقع الحسن نظرا لكثرة «قرد» الجمال التى تعيش فى ظل الشجرة والتى وفدت علينا أسرابا عند اقتراب الجمال . واضطررنا الى ضرب خيامنا على مسافة من الشجرة تفاديا من « القرد» وان آثرت البقاء فى ظل الشجرة عن الفتك بالجمال . وقد لقطت ذات مرة قرَدة من هذا

القرد فكانت كقطعة من الخشب المتحجر وضربتها بعصا فتكت كأنها قطعة من الحجر . أوشحت بوجهى عنها مدعيا الانشغال بشىء آخر فمضى عليها زهاء الاربع دقائق حتى بانت الحياة فى حركتها لان القردة تعلم بغريزتها ان سلامتها فى ادعائها التحجر ثم انتهزت فرصة غفلتى عنها فرقت فى سرعة البرق . وتغنى القردة عن الجمال اذا عز الوصول اليها لانها تمتص دم الجمل حتى تنتفخ ثم تعيش على ذلك سنينا كما يقول البدو ولكنى لا أظن ذلك يتجاوز بضعة أشهر .

وما كدنا نستقر حتى أرسلت الجمال الى الوادى لتشرب وتحمل الينا الماء وكنا فى حاجة شديدة اليه ولحقنا بعد ساعتين من ضرب الخيام ذانك العبدان اللذان تخلفا . وأحضرا جانبا من لحم الجمل المذبوح فكان منه عشاء شهى لرجال القافلة . وهبت ريح شديدة ساخنة استمرت طول النصف الثانى للنهار

وحدث لى انى بينما كنت أستريح فى خيمتى شعرت بغتة بشىء يلمس أذنى فحاولت أن أذوده دون أن أتعرفه وبعد ذلك بدقائق هبت عاصفة ريح من خلال جوانب الخيمة وكنت قد رفعت جانبا منها بقصد التهوية فأحسست شيئا يعرق محتكا بجسمى فقبضت

عليه ولكنه أفلت من يدى لحسن حظى وراحة بالى فقد كان ثعبانا طوله زهاء الأربعة أقدام . وقد أمسكه رجالى بعد ذلك وقتلوه

وأقام الرجال بعد ظهر اليوم مسابقة فى اصابة الاهداف بدأت تسلية وصارت كبيرة الأهمية حين وضعت ريالا مجيديا للفائز . ونال الجائزة السنوسى أبو جابر على قصر نظره . وعبّر حامد عن شعور المتسابقين حين قال عن نفسه « لقد كان للمجيدى تأثير شديد فى نفسى وهاج أعصابى فلم أصب الهدف الذى لم أخطئه من قبل » . وقمت بعمل بعض ابحاث وأخذت صورا فتوغرافية وداويت أسنان الدليل

وبغتنا منظر الجرعان وهم قبائل السود الذين يعيشون فى تلك النواحى فقد ظهروا فجأة من الوادى وتقدموا الينا فحجزناهم للعشاء

ولم يكن أحد منا يحلم بوجودهم قبل أن يظهروا فان الجبل يبدو موحشا خاليا حتى لا يظن أحد أنه يحوى واديا خصبا مأهولا والحقيقة ان اركنو لا تظل مسكونة طول السنة لأن واديها يحوى خضرا يانعة ترعاه الابل بلا راعى . وتفسير ذلك ان البدو وعبيد التبو والجرعان يحضرون جمالهم الى ذلك الوادى فى فصل الكلأ فيسدون منافذ الوادى بالصخور ويتركونها ترعى مدة ثلاثة أشهر بغير رعاة . وقد قال لى محمد الدليل « ان أصحاب الجمال اذا عادوا اليها

بعد تركها فى ذلك الوادى كان شحمها فى سمك قبضتى اليدين »

الاربعاء ٢٥ ابريل :

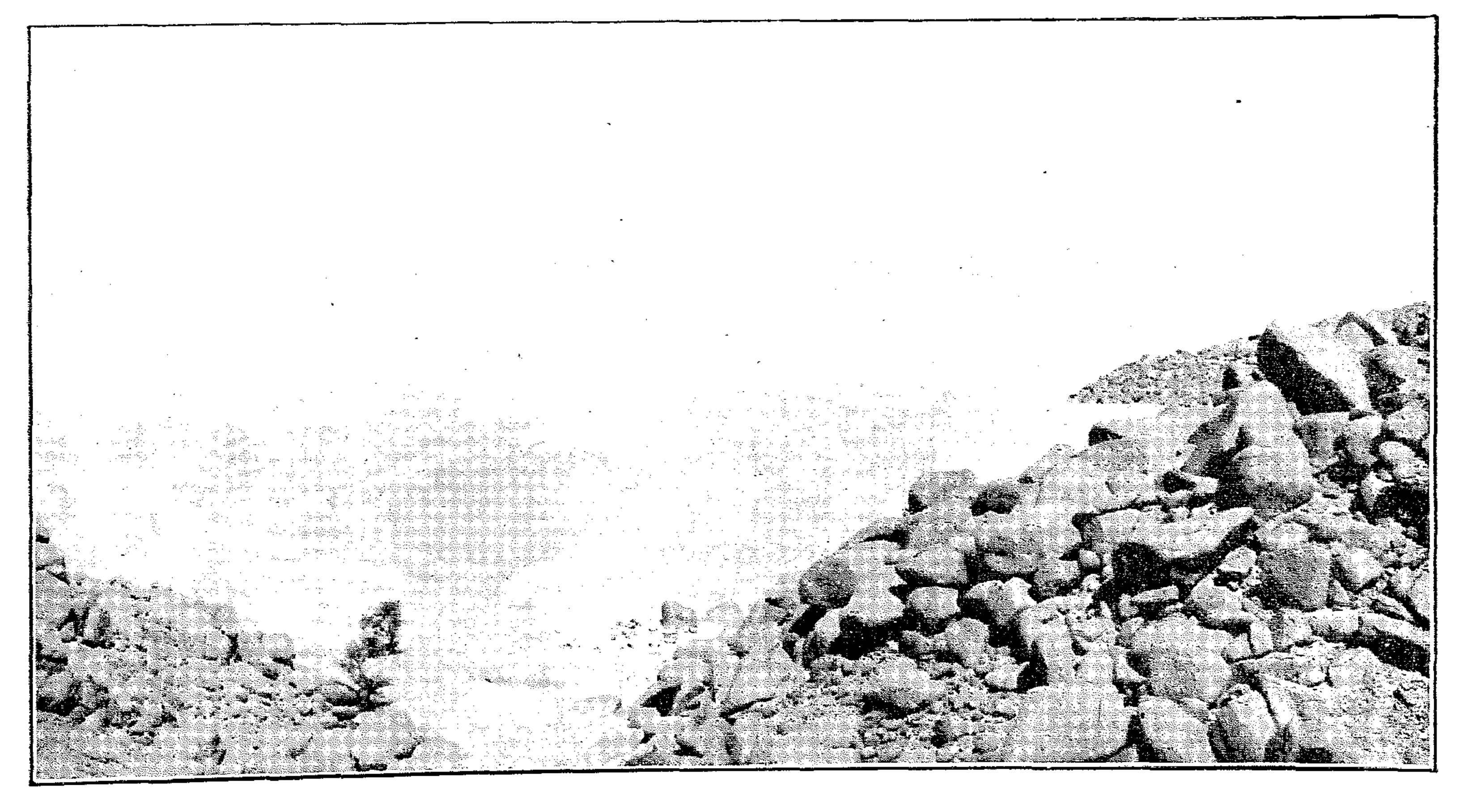
أحضرت لنا قبيلة الجرعان التى تعيش فى الوادى نعجة ولبنا وسمنا بمثابة ضيافة وجاءوا بقطيع أغنامهم الى مضرب خيامنا حتى يحلبها الرجال . وركبت بعد الغداء مع السيد الزروالى و بوكاره الى وادى اركنو وهو (كركور) أعنى واد ضيق متعرج يمتد فى الجبال مسافة ١٥ كيلومترا ويحوى الحشيش والعوسج وبعض الأشجار وزرنا كوخ الجرعان حيث صورت بنتا وولدين من أفراد الأسرة وكان الولدان فى ثياب بيضاء وهى شارة أبناء الشيوخ . وعدت الى خيامنا فأرسلت قماشا ومناديل وأرزا هدية منى للاطفال الثلاثة

وعزمت على الاقامة ثلاثة أيام أخرى فى اركنو لأن المرعى كان خصيبا والجمال لم تزل متعبة من ذلك السفر الشاق الا هجينى فانها كانت على ما يرام .

والتقطت بعض الحجارة كعينات جيولوجيه فهجت بذلك ريبة بعض رجالى لانهم ظنوا أن هنالك ذهبا فيما التقطت من الحجارة والا لما كلفت نفسى مشقة حملها الى وطنى .

الخميس ٢٦ ابريل :

فى اركنو . أعلى درجة للحرارة ٣٦ وأقلها ٩ . الجو صحو معتدل



معسكر الرحالة بالعوينات

والريح ساخنة قويه تهب من الجنوب الشرقى وقد هدمت الخيام مرتين . وأرسلنا الجمال ترعى وتشرب وكان يوما شديد الحر بلغت درجته داخل الخيمة ١٠٠ درجة فهرنهيت . وكان قيامى بالابحاث والارصاد صعبا نظرا لاشتداد الريح . ولم أمل الى القيام بها مستترا خلف الخيام خوفا من اثارة الفضول والريبة وسكنت الريح فى المساء فاعاضتنا الطبيعة عن اليوم الحار المحرق ليلة رطبة النسيم باهرة القمر . ورقص بوكاره وبقية الرجال وغنوا حتى منتصف الليل .

الجمعة ٢٧ ابريل :

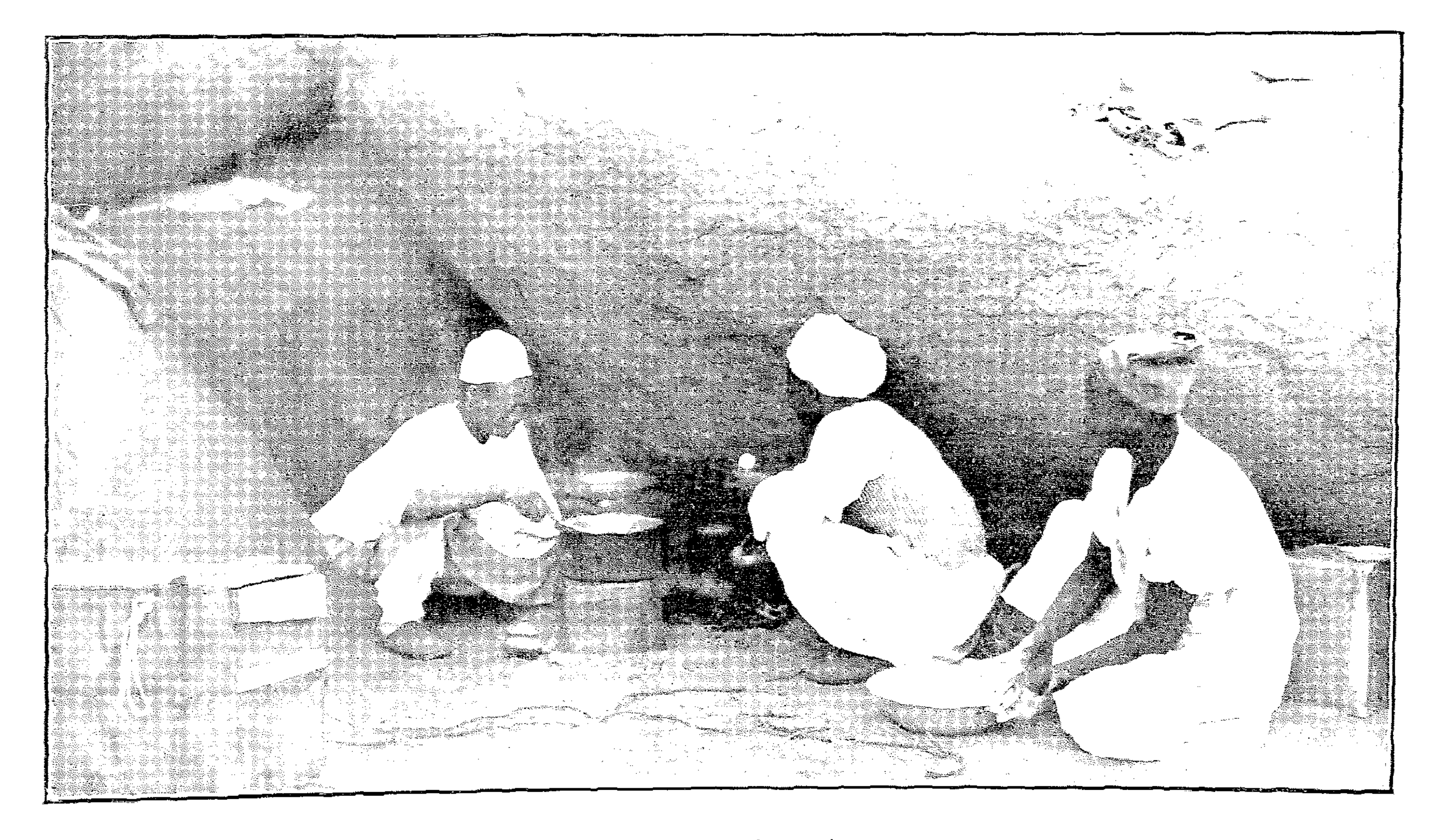
ان اركنو أولى الواحتين المجهولتين اللتين كان من حسن حظى أن أحدد موقعهما على الخريطة . وكان هنالك قبل ذلك أشاعات متواترة بوجود واحتين قريبتين من ركن مصر الجنوبى الغربى ولكن المكان الذى وضع لهما بالحدس والتخمين كان بعيدا عن موضعهما الحقيقى بمسافة تتراوح بين ٣٠ و١٨٠ كيلو مترا . ولم يكن حدد موضعهما أحد بعد أن رآهما رأى العين

وقد أظهرت ملاحظاتى ان اركنو تقع على درجة ٢٠ درجة ١٢ دقيقة ٣٢ ثانية من خط العرض الشمالى وعلى درجة ٢٤ درجة ٤٤ دقيقة ١٥ ثانية من خط الطول الشرقى . وان ارتفاعها عن سطح البحر ٥٩٨ مترا عند سفح الجبل. فهى والحالة هذه داخلة فى الحدود المصرية والاهمية العظيمة لهذه

الواحة — ولواحة العوينات كذلك — فيما تمهده فى سبيل استكشاف الركن الجنوبى الغربى لمصر الذى لم تكن وصلته بعد أية دورية حربية أو قافلة مسافرة . ولم يكن أحد يعلم بالتحقيق بوجود موارد للماء يعتمد عليها فى قطع ذلك الجزء من الصحراء .

ويظهر ان مياه اركنو دائمة وصالحة للشرب وان لم تكن من الجودة بحيث يتمنى واردها. ولأركنو ميزة حربية يمكن الاستفادة منها فى مقبل السنين نظرا لوقوعها فى ملتقى خطى الحدود الغربية والجنوبية لمصر . واركنو والعوينات تختلفان عن بقية واحات الصحراء المصرية الغربيــة فى أنهما ليستا منخفضتين فى الصحراء يتسرب اليهما الماء من باطن الارض لانهما بقعتان جبليتان تجتمع مياه الأمطار فى حيضانهما الصخرية

وسلسلة جبال اركنو حسب ما رأيتها تمتد ١٥ كيلو مترا من الشمال الى الجنوب و٢٠ كيلو مترا من الشرق الى الغرب . ولكن الفرص لم تتح لى فاستكشفها من الجهة الشرقية ولذلك لا يمكننى أن أجزم بعدم امتدادها فى تلك الجهة الى أبعد مما ذكرت لانى عاينتها بقدر ما وصل اليه بصرى من موقفى فى الصحراء عند سفح الجبل الغربى . وربما كانت جبال اركنو من جهة الشرق مستمرة الامتداد على شكل سلسلة من التلال تبدأ جبال العوينات عند



مطبخ القافلة فى مغارة فى العوينات

نهايتها من الجنـوب . وقد تمكن الفرص غيرى من استكشاف الاجزاء الشرقيـة لهاتين الجهتين الصخريتين اكثر ممـا امكنتنى حين زرتها مزودا بما كان معى من الوسائل .

وأقرب الاصقاع المعـروفة الى اركنو والعوينـات من الجهة الشرقية — أو الجهة الشمالية الشرقية على الاصح — هى الواحات الداخلة على بعد ٥٠٠ كيلو متر أو ما يقرب من ذلك . ويزعم الناس أنه كان هنالك طريق قديم بين مصر وتينك الواحتـين ولـكن السفر من الواحات الداخـلة الى اركنو والعوينـات مشروع كبير يستغرق ١٤ يوما تقريبا

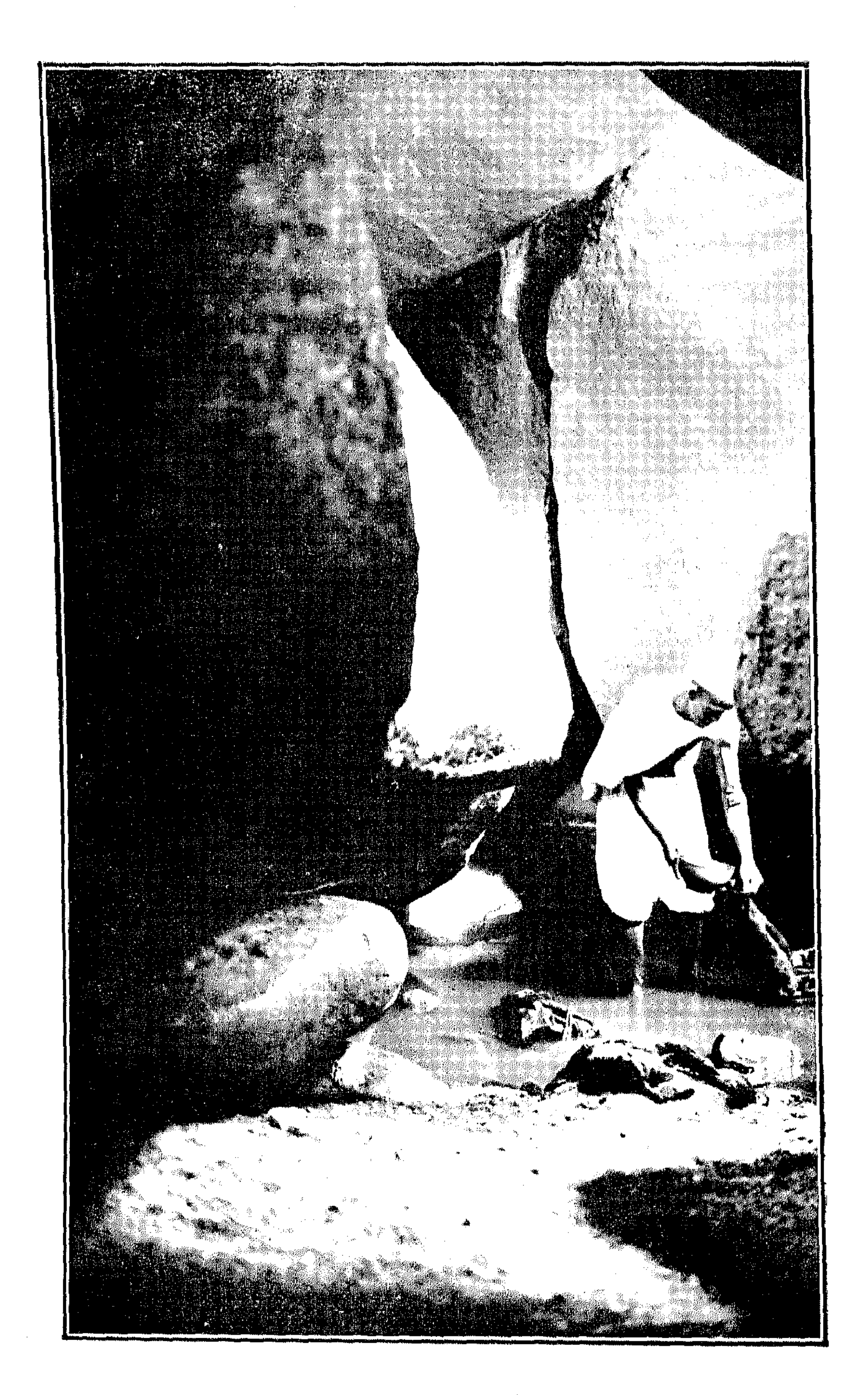
الفصل السادس عشر

الى واحة العوينات

السبت ٢٨ ابريل :

قمنا فى منتصف الساعة العاشرة مساء وقضينا لأول مرة طول الليل فى السير وحططنا الرحال الساعة السابعة من صباح يوم ٢٩ ابريل فقطعنا ٤٠ كيلو مترا . وكان الجو صحوا جميلا وهبّت ريح ساخنة قوية طول النهار من الجنوب الشرقى واستمرت الريح تهب من هذه الناحية طول الليل . ولكنها كانت دافئة وكانت الارض سريرة كثيرة الحجارة الكبيرة فآذت الجمال فى السير . وفى الساعة السادسة صباحا وصلنا الركن الغربى لجبال العوينات وحططنا الرحال بعد ساعة .

قضينا اليوم هادئين فاسترحنا استعدادا لمرحلة الليل وأرسلنا فى المساء رجالا يجلبون الجمال من مراعيها . واستأجر بوكاره جملا من أحد العبيد التبو وكان قصده من ذلك أن يريح جمله الذى أراد أن يبيعه بثمن غال فى نهاية الرحلة . وقد استخدمت ثلاثة من



بئر في العوينات

عبيد التبو . واستأجرت جمالهم لمرافقتنا فى هذه الرحلة لانى رأيت وسائل النقل غير وافية فقد لاحظت ان حوائجنا كانت ثقيلة أنهكت قوى الإبل بعد تركنا الكفرة .

وجاءت الجمال فى الساعة الثامنة مساء و بدأنا السير بعد ذلك بساعة ونصف ساعة . وكانت الاحمال خفيفة على الجمال هذه المرة لأنا لم نحمل ماء من اركنو لانه ردىء الطعم عسر الهضم أحدث ثلاث اصابات من الدوسنتاريا بين رجال القافلة . وقد امتطى المرضى ظهور الجمال منذ بدء المرحلة وتناوب بقية الرجال الركوب أثناء الليل و بدأنا المسير أمرح ما نكون خاطرا وانبعث الغناء من نفس طروبة فانضم الى صاحبها بعض الرجال وغنى الجميع ورقصوا وصفقوا بأيديهم متوافقين بينما كانت الإبل تجد فى المسير . وكانت الاغنية كلمات مرددة ترجع بصوت قوى النبرات تختلف أنغامه فى الشطرين وهى

ان كان عزيز عليه الانظار   حتى لو باعد بالدار

وظل الرجال يطيلون فى ترجيع هذه الاغنية حتى انتهوا منها بصرخة فجائية . وكنت أنصت الى انشاد الرجال وأنا أوقع ضربه بسوطى فلما فرغوا صحت على الرجال « فرّغوا بارود » أى أطلقوا النار اعلانا للسرور ثم أخذنا بعد ذلك مواضعنا من القافلة وسرنا مبتهجين

وللسفر بالليـل ميزات خاصة فان المسـافر ان لم يكن منهوك القوى يشعر بسرعة فوات الوقت اكثر مما يشعر به أثناء النهار . والنجوم رفقـاء مسلّون لمحب الطبيعة . و بدت لنا بعد ذلك عنـد الافق قطع جبال العوينات القـائمة . وانه لأسهل على المسافر أن يسير الى قصده وهو ماثل أمامه من أن يضرب فى ذلك المنبسط من الصحراء الذى تتشابه فيه جميع الجهات ويظل فيه الافق على بعد سحيق لا يقرب مداه

وظللنا نقترب من تلك الجبال حتى بزغت الشمس فصبغت قممها وذهّبت حواشيهـا والقت خلفها من ناحيتنـا ظلا كثيفا أخذ يتقاصر ويرتد الى سفحها شيئا فشيئا بينا كنا نتقدم اليها

وبعد طلوع الشمس بقليل كنا أمام الركن الشمالى الغـربى لهذه الجبـال وبعد ذلك بسـاعة حططنا الرحال فى ظل جوانبها الصخرية . وامكننا فى هذه الجهة من الجبل أن نتحقق وجود بئر فى نهاية أحد الكهوف فنصبنا الخيام فى مدخل ذلك الكهف ولم تمض منا عشر دقائق حتى كنا غارقين فى سبات عميق لأنا كنا فى حاجة شديدة الى النوم بعد سفر استغرق منا طول الايل . ومع هذا فانا لم ننل من النوم بقدر ما انتظرنا لانا صحونا عند الظهر نهيء

أسباب الغداء . والمثل الفرنسى « من ينم يغن عن العشاء » ينطبق فى بعض الاحوال ولكننا نحن أهل الصحراء نظن أن النوم والتغذية معا أمتع للنفس اذا نالهما الانسان فى وقت واحد . وكان لنا شغل شهى فى الاهتمام بشئ قطع من الشاة التى ضافنا عليها الدليل محمد احتفالا بالوصول الى العوينات .

وقضيت اليوم فى زيارة البئر الواقعة فى الكهف الموجود على جانب الجبل وفى عمل بعض الابحاث والاستطلاعات والتفرج على الجهات المجاورة . وفى هذه الجهة يزيد ارتفاع الجبل حتى يصير صخرة قائمة قد تكدست عند قاعدتها الحجارة المتناثرة من كبيرة وصغيرة وقد توالت على هذه الحجارة لطمات الرياح ومياه الامطار فى ماضى السنين وتتابعت عليها سافيات الرمال حتى أصبحت ناعمة الملمس مستديرة الاشكال أحق بها أن تكون فى مقاليع رماة القرون الخالية يصيبون بها ضاريات الوحوش أو يتقاذفون بها فى ألعابهم الخشنة

وتقع عين الماء على بعد أمتار من مضرب الخيام فى ثغرة اتخذت من الصخور العظيمة التى تحيط بها حوائط وسقفا . وهى منبع عذبُ الماء أبرده الظل فكان برودا زلالا

وفى الصحراء نوعان من موارد الماء . العين . وهى المنبع الفياض . والبئر وهى المكان الذى ينبجس منه الماء بعد الحفر فى

الرمل . وقد أطلق على منـابع العـوينات كلمة عين وان كانت أحواضا تجتمع فيها مياه الامطار ويقال إن بجبال العـوينات سبع عيون رأيت منها أربعا قبل استئناف السفر . وسمعت كذلك أن بهذه الناحية بئرين ولكنى لم أرهما . وحل المساء فكانت القافلة أنعش ما يكون وأبهج فرقص الرجال وغنوا كأن ليس أمامهم أيام مجهدة يشقون فيها بصهيد الرمل ولفح السموم .

الاثنين ٣٠ ابريل :

صحوت مبكرا وذهبت مع السيد الزروالى وعبد الله ومحمد ملكنى التبوى الى العين الكبيرة فى قمة الجبل بعد أن صعدنا ساعة ونصف ساعة فوق أرض صخرية . والعين ثرّة بالماء القراح يوشـع جوانبها قصب رقيق قطّعت منه قليلا واتخذت منه مقابض لمباسم التبغ تحيل الدخان باردا لذيذا . وفى المساء امتطيت هجينى وصحبنى ملكنى والسنوسى أبو حسن وسعد لاستكشاف الواحـة وكانت ليلة مقمرة يهب فيها نسيم دافىء من الجنـوب الشرقى . وسرنا فى السرية أربع ساعات ونحن ندور حول الركن الشمالى الغربى للجبل ثم دخلنا عند منتصف الايل واديا امتدت فيه سلسلة من التلال عن يسـارنا . وقام عن يميننا ذلك الجبل ذو المناظر الغريبة بأشكال صخـوره وأوضاعها . وأرض الوادى من الرمل النـاعم تتناثر فوقه



إعداد قرب وقناطيس المياه للسفر من العوينات لأردى

حجارة كبيرة كانت تعوق فى بعض الاحيان سير الجمال .

ورأيت الرجال قد فترت عزائمهم فأوقفتهم بضع دقائق تناولنا فيها بعض اكواب من الشاى الذى حملته معى فى زجاجة (ترموس) ثم اندفعنا فى السير وقد انتعشت قوانا وكان فى سحر الليل وضوء القمر وجمال الجبال ما هاج خيالنا وسما بأرواحنا

وفى الساعة الخامسة صباحا انبسط الوادى فصار سهلا من الرمل المنداح قامت على جانبه الشمالى الشرقى تلال يتراوح ارتفاعها بين ١٠ أمتار و١٥ مترا . وملنا دفعة واحدة صوب الجنوب حول قاعدة الجبل فطلع الفجر ووجبت صلاة الصبح فبركنا الجمال وتيممنا ثم وقفنا فوق الرمال مولّين الوجوه شطر البيت الحرام

وليست الصلاة فى الصحراء اطاعة عمياء لتقاليد الدين وانما الغريزة هى التى تدفع الانسان اليها إعرابا عما تشعر به النفس نحو الخالق من شكر واسترحام . والصلاة فى الليل تبث الهدوء والسكينة فاذا طلع الفجر ودب الانتعاش فى الاوصال ارتفعت الرؤوس الى الخالق شكرا على ما أودع الكون من جمال واستدرارا لرحمته وهديه فى اليوم الجديد ولذلك يؤدى الانسان صلاة الصبح لانه مندفع اليها لا مسوق . وفى الساعة السابعة دخلنا واديا واسعا يمتد الى الجنوب الشرقى وتقوم الجبال على جانبيه . وأرض هذا الوادى

منبسطة انتثرت عليها الحشائش التى ظهرت بينها أشجار (الميموزا) وشجيرات أخرى ينبعث منها عند سحقها رائحة زكية تشبه رائحة النعناع . وكانت الارض تكتسى من وقت لآخر بساطا من النباتات الزاحفة ومن الحنظل وهى مساحات ممتدة من الاوراق الخضراء ترصعها كرات صفراء شديدة اللمعان كانها نوع كبير من الليمون الحلو ومن الحنظل يصنع التبو والجرعان ما يسمونه (عبره) وهى أهم أنواع طعامهم الذى يعملونه بغلى حبات الحنظل حتى تضيع مرارتها وسحقها بعد ذلك مع التمر والجراد فى هاون من الخشب .

وظللنا نتقدم فى الوادى مدة ثلاث ساعات ثم حططنا الرحال فى الساعة العاشرة مجهودين ولكن غير ساخطين فأكلنا أرزا شهيا وشربنا الشاى وتفيأنا ظل مرتفع من الارض نريغ غفوة قصيرة . وكان نوما متقطعا لما أصابنا من لسع أسراب الذباب وانتقال ظل ذلك المرتفع مما اضطرنا الى تغيير مواضعنا من وقت لآخر

وفتحت عينى فأبصرت شبحا قائما بالقرب منى كأنه طيف حلم لذيذ . وكانت صبية فتانة من بنات الجرعان هيفاء القد بديعة القسمات لم ينقص من رشاقة قدها ما كان عليها من ملابس بالية وكانت تحمل جرّة لبن فقدّمتها الىّ وجلال الخجل فى نظراتها ولم

يسعنى الا أن أقبل الهدية فجرعت منها شاكرا حتى اذا انتهيت من شربى سألتنى دواء لأختها العاقر . فأظهرت عجزى ولكنها لم تعتقد صحة قولى ظنا منها انى أحمل فى حوائجى أنجع الأدوية ولما ضاقت بى الحيلة فى سبيل الخروج من هذا المأزق لم أجد مخرجا غير تلك الأقراص من اللبن المركّز الذى يشفى من العلل ما لا يصل اليه علمى وأعطيتها بعد ذلك مجيديا ومنديلا من الحرير هدية منى اليها .

وجاءنى أحد التبو بجزور من لحم الودّان وهو ضرب من الأغنام البرّية فأعطيته شيئا من المكرونة والارز فمضى راضيا

وذهبت بعد الغذاء أشاهد بقايا تدل على اقامة الانسان فى العصور القديمة بهذه الجهات . وكنت أثناء اقامتى فى اركنو قد حادثت أحد الجرعان فخرجت من حديثه بمعلومات وافية عن سكان العوينات الحاليين ثم سألته بعد ذلك ان كان يعلم شيئا عن سكانها الاقدمين فأجابنى إجابة أدهشتنى إذ قال : « لقد عاش حول هذه الآبار شعوب مختلفة يرجع عهدها الى ما تعيه الذاكرة . ولا يهولنك قولى ان الجن سكنت هذه النواحى فى قديم الزمان . »

فسألته : « وكيف استدللت على إقامة الجن هناك »

فقال: « أو ما ترى آثار تصويرهم على الصخور ؟ »

فكتمت دهشتى وسألته : « وأين ذلك ؟ »

فقال: « لقد وجدت فى وادى العوينات تصاوير على الصخور »

وحاولت ان أجره الى وصف أتم من هذا : « فقال يوجد هناك كتابات ورسوم لجميع الحيوانات الحية ولا يدرى أحد أى قلم استعملوا لان كتابتهم فى الصخور عميقة لم يقو الزمن على محو آثارها »

وظللت أحاول كتمان تأثرى ثم سألته أن يصف لى مكان هذه النقوش فقال : « انها فى أقصى الوادى عند تعرجه فى نهايته »

ووعيت ذلك وبعد أن قضيت زمنا قليلا فى الحصول على الماء وهو ألزم شىء للقافلة وبعد أن علوت قمم التلال أرتاد بنظرى ما أحاط بها من الجهات رأيتنى فى شوق شديد الى الطواف حول الواحة أملاً منى فى العثور على تلك النقوش حتى أزيد معارفى القليلة عن تاريخ تلك الواحة . وكنت اعلم ان العوينات كانت محط قبائل التبو والجرعان فى طريقهم شرقا الى مهاجمة الكبابيش والفتك بهم . وكان موقع اركنو والعوينات صالحا لهذا الغرض لما غزر فيهما من الماء الذى تحتاجه هذه القبائل المغيرة . وكانت هاتان الواحتان من البعد عن الكبابيش بحيث لا يجسرون على محاولة الانتقام او استرداد ما ابتز من اشيائهم

وتملكت رؤية تلك النقوش من نفسى فصحبت ملكنى الذى انضم الى القافلة فى اركنو وقادنى عند الغروب الى أماكن تلك النقوش وكان موقعها فى جزء الوادى الذى ينحنى قليلا فى نهايته وكانت النقوش على الصخور قريبة من سطح الارض وقيل لى أنه توجد نقوش أخرى تماثلها على مسيرة نصف يوم ولكنى لم أزرها نظرا لضيق الوقت وخوفا من اثارة الشكوك . وكانت النقوش رسوما لحيوانات خالية من الكتابة وظهر لى أن راسمها كان يحاول أن يصور منظرا من المناظر ولم تكن من الدقة على شىء ولكنها تنم عن ذوق فنى فقد كان مصورها يميل الى الزخرفة لانه أظهر مهارة فى نحتها وان لم يبن فيها أثر كبير لدقة الصنع

وتناولت هذه الرسوم صور الأسود والزراف والنعام والغزلان والبقر وكانت واضحة رغم فعل السنين بها . وعمق هذه النقوش فى الصخر يتراوح بين ربع بوصة ونصف بوصة وقد قل عمقها فى نهاية بعض الخطوط حتى إنه ليسهل مرور الاصابع على قرارها وسألت عمن عساه يكون صانع هذه النقوش فكان الجواب الوحيد الذى تلقيته من ملكنى ابداء اعتقاده انها من صنع الجن وسأل : «أى انسان يستطيع فى هذه الايام محاكاتها ؟ »

ولم اتمكن من استقاء الأخبار عن منشأ هذه النقوش الشيقة ولم يتيسر لى العثور بما يفسر أصل وسر وجودها ولكن شيئين شغلا بالى وهما ان الزراف معدوم فى تلك الناحية فى هذه الأيام كما أنها لا تعيش فى أى منطقة صحراوية كهذه . ولم أجد صورا للجمال فى هذه النقوش والجمل هو الدابة التى ينتقل عليها الانسان هذه الايام فى تلك الاصقاع التى تبعد الآبار فيها مسير بضعة أيام عن البعض فليت شعرى أعرف سكان هذه النواحى القدماء الزرافة دون الجمل الذى يرجع عهد دخوله أفريقيا من جهات آسيا الى حوالى ٥٠٠ سنة قبل الميلاد ؟ .

و بدأنا عودتنا الى الخيام فى منتصف الساعة السادسة فصعدنا طريقا متعرجا فى جبل شديد الانحدار لا تتسع دروبه فى بعض المواضع لأكثر من رجل واحد . والخطر شديد لمن يجتازها على ظهور الإبل. ووصلنا قنة هذه الطريق الجبلية ثم انحدرنا الى الصحراء المنبسطة عند سفح الجبل . وقد رأينا من القنة التى صعدنا اليها بعض قنن أخرى انتثرت حولها وارتفعت عنها بقدر يتراوح بين ٢٠٠ أو ٣٠٠ متر . وقد أظهرت الجمال مهارة شديدة فى الصعود الى هذه القنة والنزول عنها رغم الظلام .

ووصلنا سفح الجبل فى منتصف الساعة الحادية عشرة فرأينا من الصلاح أن نريح الجمال وحططنا الرحال فى الساعة الحادية عشرة فاسترحنا ساعتين وتناولنا الشاى وزارتنا أسرة من التبو كانت تعيش بالقرب من مناخنا . وغفونا قليلا ثم صحونا منتعشين وكان النسيم رطبا والسير فى الصحراء المنبسطة استرواحة طيبة بعد الجهد الشديد فى تسلق تلك الصخور . ووصلنا مضرب الخيام فى الساعة العاشرة صباحا من يوم ٢ مايو فاستقبلنا رفقاؤنا بطلقات البنادق .

الاربعاء ٢ مايو :

وجدنا عند وصولنا الى الخيام الشيخ هرى وهو شيخ الجرعان الذى يطلق عليه لقب ملك العوينات وشعبها المكون من ١٥٠ نفسا . وكان قد جاء بالامس يزورنى فانتظر عودتى وكان شيخا لطيفا مهيب الطلعة هادئها . وأحضر لنا شاتين ولبنا و« عبرة » بصفة ضيافة . وكان في ذلك اليوم صائما رمضان فالححت فى بقائه لتمضية الليل معنا حتى أقوم بحق الضيافة نحوه أنا الآخر . وحادثته طويلا وكان لا يزال يحن الى وطنه فى شمال واداى يتنهد عند ذكره فى حديثنا . وهرى من أسرة الرزّى احدى قبائل الجرعان الحاكمة فى شمال واداى وقد اختار الكفرة منفى له عند دخول الفرنسيين واداى وأقام فى العوينات بعد ذلك . ووجدتنى متعبا

ويجمل بى قبل أن أفرغ من وصف العوينات أن أقول شيئا عن بوكاره وهو من أمتع رجال القافلة صحبة واكثرهم شاعرية

كان بوكاره طويل القامة منسرحها صلب القناة دائم المرح والطرب مثالا للبدوى الصميم لا يسكت عن الغناء فى الاوقات العصيبة من اليوم سواء أكان ذلك فى بكرة الصباح بعد سير الليل أم فى آخر الليل حيث يجهد السير رجال القافلة فيكونون فى حاجة الى ما يرفه عنهم ويشجعهم على المضى . ولم أعلم انه يدخن حتى رأيته ذات يوم بينما كنت أمتطى جوادى يجمع أعقاب السجاير من الموضع الذى قامت فيه خيمتى . فشاطرته سجائرى بعد ذلك وكان يروق لى أن أراه يغنى ويرقص طربا كلما قدمت اليه علبة من تلك اللفائف الثمينة

وبوكاره من اكثر البدو الذين رأيتهم أسفارا فقد جاب واداى وبركو وبرنو ودارفور وهو لم يعدُ الثالثة والثلاثين من عمره وقد ساعده الحظ فى ماضيه فذاق الغنى ولكنه لا يملك اليوم الا جملا واحدا . وقد أراغ المكسب حين انضم الى القافلة واتفق مع أبى حليقة على أخذ شطر من أثمان الجمال عند بيعها فى نهاية الرحلة . وهو يجيد اكثر لهجات القبائل السود ويعرف الكثير عن هذه

القبائل . كما انه مقلد مدهش اذكر ذات مساء يوم انه التحف بقطعة من القماش الاخضر الذى يُكوّن قسما من خيمتى واتخذ منها (برنسا) وتبعه سعد وحامد وهما يقلدان ثغاء الشاة ثم تقدم الى مضرب الخيام مدعيا انه شيخ بدوى قد أحضر شاتين بمثابة ضيافة فضحكنا ضحكا عاليا ونضا بوكاره تلك الخرقة الخضراء وانتزع حربة من أحد التبو ثم طفق يرقص رقصا حربيا تبويا وساعده أحد التبو على الرقص بالايقاع على أحد الفناطيس الخالية وتبع هذا المنظر الغريب مجلس غناء ترددت فيه أغانى البدو الشائقة فى برقة وفزان وطرابلس

ورأيت بوكاره ذات يوم يرفض امتطاء جمله فى ساعة لم يتمالك فيها اخوانه أن يصبروا على السير فسألته « لماذا لا تركب والجمال غير المحملة عديدة ؟ »

فأجابنى وفى صوته نبرة سخرية وتعنيف : « وماذا عسى تقول زوجى اذا سمعت انى ركبت بين اركنو والعوينات »

وأخبرنى انه وكل اليه ذات مرة أن يصحب خمسين جملا الى العوينات لترعى وكان وحيدا ونفد منه الزاد فقضى اثنى عشر يوما لا يذوق طعاما الا حب الحنظل الذى أضر بجهاز هضمه ثم قال : «ووصلت الكفرة وكان الرجال الذين أرسلونى بجمالهم قد نسوا أن



فتاة تبوية بملابس البدو

يتركوا لى طعاما لانهم توقعوا وصولى قبل ذلك » .

فسألته : « وما الذى منعك من ذبح جمل تقتات به ؟ »

فقال لى بشمم : « وكيف أسمح لرجال الكفرة أن يقولوا ان بوكاره لم يصبر على الجوع فذبح جملا من جمالهم ؟ »

و بوكاره شديد الوله بزوجه وقد قال لى عند وصولنا « انى لأشعر الآن أنى أحسن حالا ولكنى بكيت بكاء الاطفال عند توديعى امرأتى فى الكفرة . وهذه حالى دائما عند البدء فى أسفارى غير انى اذا أنست الى رفقائى واستطبت صحبتهم سهل علىّ ذلك ألم الفرقة »

الفصل السابع عشر

السير ليلا الى (اردى)

الأحد ٦ مايو :

قمنا فى الساعة السابعة الاربعا مساء وسرنا ١٢ ساعة قطعنا فيها ٥٤ كيلومترا وكان سفرا متعبا وكان هذا أمرا متوقعا فى أول ليلة نقطعها فى السير ولم يكن الرجال قد تمكنوا من النوم أثناء النهار بل كانوا أكثر اشتغالا من العادة بتجهيز أسباب الرحيل . وكان علينا بالرغم من هذا التعب أن نتعهد الأحمال ونصلح وضعها من وقت لآخر . وطلع الفجر فدب الكرى الى اجفان القوم فأغفوا قليلا

وهرب منا أحد الجمال فعدا الى العوينات واضطر ملكنى أن يترك القافلة عند منتصف الليل وينطلق فى أثره . وكانت ليلة مقمرة فى هزيعها الاخير وهب نسيم بليل فى الثالثة صباحا

ورعت الجمال وهى سائرة ما نجم فى تلك الجهة من الحشائش التى يسقيها الماء المنحدر من الجبال وحططنا الرحال فوجدنا قربة من أجود قربنا قد تمزقت وضاع منها نصف الماء الذى تحويه .



تباوى بمعطف من الفرو

وكان ذلك من سـوء حظنا لانه لم يكن معنا ما يفيض عن حاجتنا من الماء فى قطع هـذه المرحلة التى كان علينا أن نسـير فيها عشرة أيام قبل أن نصل الى اول بئر فى الطريق ولم يظهر ملـكنى مع الجمل الهارب أثناء النهار.

الاثنين ٧ مايو :

كانت السماء ملبدة بالغيوم طول النهار وهبت ريح قوية من الشمال الشرقى وقرت عنـد الظهـر . اعلى درجـة للحرارة ٣٨ ولم اتمـكن من معرفة أقل درجة نظرا لسفرنا بالليـل والجو أبرد ما يكون فى الساعة الثانية أو الساعة الثالثـة صباحا و بدأنا السـير فى منتصف الساعة السابعة مساء ووقفنا قبل منتصف الليـل بنصف ساعة قطعنا ٢٠ كيلو مترا . وكانت الارض ناعمة الرمل متموجة كثيرة (السبط) الجاف الصالح لرعى الإبل

ولحقنا بعد الظهر أحد عبيد التبو على جمل يحمل الحوائج التى كانت على ظهر الجمل الهارب واخبرنا ان جمل ملـكنى رمى بحمـله على الارض وجرى الى مراعى العوينات وان ملـكنى جادّ فى طلبه وحططنا الرحال ننتظر المتخلفين فى جهة ناعمة الرمل متناثرة الصخور والمراعى بالقرب من (جارة شزّو) ولحق بنا ملـكنى بعد وقوفنا

بقليل ولـكنى صممت على عدم السير تلك الليلة لانا كنا فى حاجة الى الراحة .

الثلاثاء ٨ مايو :

قمنا فى الساعة الخامسة الا ربعا مساء فى جو مقبض وسحاب كثيف وأمطرت السماء قليلا بعد ذلك بساعتين فهلل البدو سرورا وغنوا بجمالهم لان عماد حياتهم الأمطار .

وكانت الأرض متموجة صلبة مغطاة بالحجارة والزلط الكبير واجتزنا غرودا صغيرة بعد قيامنا بقليل ثم انبسطت الارض بعد ذلك ونعم رملها وفى منتصف الساعة الرابعة صباحا دخلنا جهة تكثر فيها كثبان الرمل العالية فقطعناها فى ساعة ونصف وبعد ذلك انبسطت الصحراء ودخلنا السريرة ووجدت فى تلك الجهة قطعا من بيض النعام .

وفى بكرة اليوم أخذ (ارامى) أخو ملكنى كيسا وذهب يلتمس الحطب واسمه ينم عن قصته لان قبائل التبو والجرعان تطلق اسم (ارامى) على من قتل آخر . وكان قد أخبرنا أنه سيلحق بنا بعد ذلك فلم ينشغل بالنا عليه وزاد طمأنينتنا أنه يعرف الطريق حق المعرفة .

ولكنا بعد أن سرنا ساعتين وأخذ الظلام يرخى سدوله شغلنا

أمره ووقفنا ننتظره وأطلقنا بنادقنا مرات عديدة ننبهه الى موضعنا ونادى الرجال باسمه بصوت عال فكان كل ذلك بلا جدوى فالتفتّ الى ملكنى وسألته ماذا يزمع أن يعمله ؟ فقال : « ان أخى مجنون ولم يكلفه أحد بجمع الحطب وقد ترك مضرب الخيام بدون أن يتناول فطوره وربما دعاه الله الى جواره . وانى اذا طلع القمر تركت احمال جملى وعدت أبحث عنه فان كان حيا جئت به وان وجدته ميتا دفنته ثم لحقت بكم »

وكان يقول ذلك بلهجة طبيعية كأنما يتكلم عن أمر عادىّ . ورفعنا أثقال جمله فوضعناها على ظهر جمل آخر ورجع يلتمس أخاه

وكان ارامى قد تخلص من بين براثن الموت مرات عديدة فأمّل الرجال أن يسلم هذه المرة كذلك ولكن محمدا كان يشك فى سلامته اذ قال : « ان الله رحيم ولكنى أظن أن أرامى قد سعى الى حتفه » . وأشفقت أن يكون محمد صادقا فى نبوءته لان أرامى كان غريب الاطوار منذ بدء الرحلة . وسمعت ان ماءه نفد فى بعض رحلاته من اردى الى العوينات فأحس عطشا قاتلا ووصل العوينات نصف ميت . ومثل هذه الحادثة تترك أثرا فى صاحبها لا ينمحى فلا يعود الى حالته الطبيعية الا بعد زمن طويل .

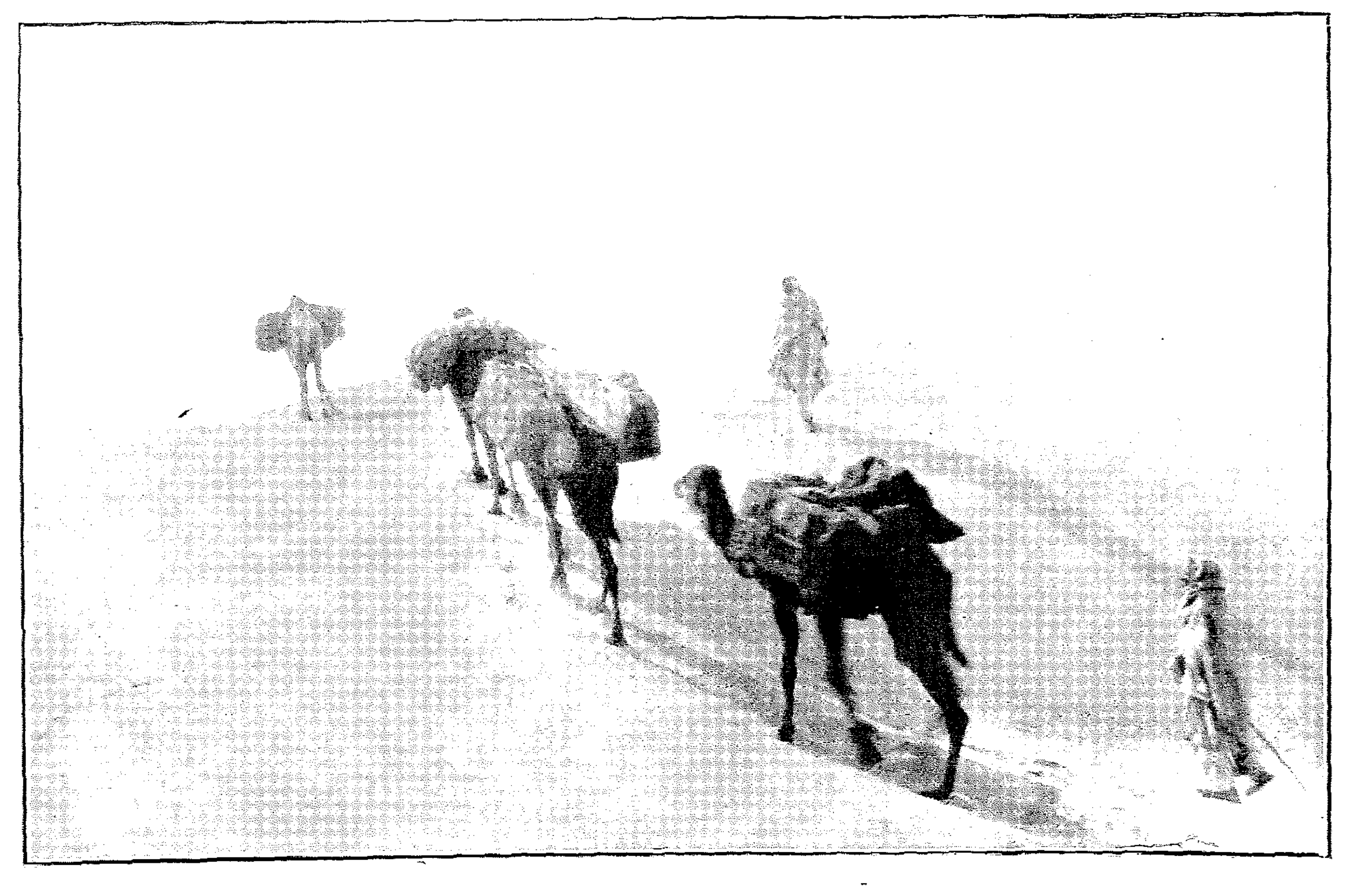
وكنت قد لاحظت نظرات أرامى الغريبة الحائرة فعجبت من

أمره وخفت إن لم يعد أن تكون الصحراء قد تملكتها القسوة فطالبت بحقها منه .

وقد تطيح رؤوس الرجال فى السفر الطويل الخالى من الماء من أثر الكلال والعطش والتعب والارق فيسعون الى حتفهم كما يقول البدو . ومعنى ذلك أنه اذا غفل عنهم أصدقاؤهم ولم يسهروا على ابقائهم منضمين الى القافلة ضربوا فى أحشاء الصحراء غير آبهين حتى بالغريزة التى تدفع الجمل الى الالتصاق ببقية جمال القافلة . فاذا عاد الهائم بعد ذلك بغتة الى رشده جلس حيث صحا ولم يتحرك علما منه بان أصحابه اذا التمسوه فلم يجدوه تعقبوا أثر القافلة ثم أثره وسعوا لانقاذه . وكنت قد قابلت فى الكفرة رجلا انقطع عن القافلة وهام على وجهه مدة ١٨ ساعة ثم أنقذ غائب الرشد شديد التألم من العطش . قال لى ذلك الرجل « ان الله كريم فانى لم أكن من القوة الا بحيث أديت صلواتى مبتهلا اليه جل وعلا قبل أن يدهمنى ما توقعته من الموت المحتوم» ثم أضاف باسما «ولكن الحياة والموت بارادة الله»

الاربعاء ٩ مايو :

قمنا الساعة الرابعة وربعا مساء ووقفنا الساعة العاشرة وربعا وقطعنا ٢٤ كيلومترا . أعلى درجة للحرارة ٣٧° . سحاب صبير وريح ساخنة قوية من الشمال الشرقى تهب طول النهار ثم تنقلب عاصفة



القافلة تجتاز غرود الرمال بين العوينات واردى

رمل شـديدة فى الليل . رذاذ فى الساعة السـابعة مساء واستمرت العاصفة من الساعة الثامنة الى الساعة العاشرة وكانت الارض سريرة ناعمة الرمل فى بعض المواضع خالية من الاعلام والحشيش الجاف . ورأينا فى بكرة الصباح أكوام رمل بعيدة عن يميننا . سرنا ½ ١٤ ساعة فى الليـلة الماضيـة ولـكننا لم نكن شديدى التعب ثم أفطرنا وغفونا أربع ساعات فانتعشت قوانا وأراد محمد أن نسير مبكرين نظرا لوجود (غرد) وعر فى سبيلنا لا يمكننا اجتيازه فى الظلام فقمنا الساعة الرابعة وربما نسـير فى سريرة منبسطة ويهب علينـا نسيم بليل من الشمال الشرقى . وشعرت فجأة فى الساعة الثامنة بريح تهب فى وجهى فذعرت لان الريح لا يتغير اتجاهها فى العادة بغتة بهـذه الصفة . أضف الى ذلك أن درجة حرارة الريح لم تتغير وبالرغم من هبوبها من الجنوب فانها لم تكن دافئة . وهكذا كان فى الامر شىء من الغرابة فرفعت بصرى الى النجوم ولـكن السماء كانت متلبدة بالغيوم من جميع نواحيها فاخرجت بوصلتى وفزعت اذ رأيت أننـا نسير صوب الشمال الشرقى بدلا من الجنوب الغربى فوضح لى أن محمدا طاحت رأسه كما يقول العرب فقادنا فى الاتجاه المضاد . وكانت ساعة عصيبة تتطلب حذقا وحسن تصرف فان من الخطر أن تهدم الثقة فى نفس الدليل. ونزلت عن جملى ثم امتطيت جوادى وعدوت

الى محمد فى طليعة القافلة وادركت فى طريقى اليه أن رجال القافلة وبينهم الكثيرون ممن اعتادوا المسير فى هذا النوع من الصحراء وألفوا هذا الضرب من الطقس كانوا يشعرون باننا أخطأنا الطريق. ولكن آداب الصحراء تقضى أن لا يتداخل أحد فى شأن الدليل باية حالة من الحالات لأن الدليل فى الصحراء كربان السفينة. مطلق التصرف فى اختيار وجهة السير ويجب استشارته كذلك فى تعيين أوقات السير والوقوف .

وكنت لحسن الحظ قد سألت محمدا قبل تركنا العوينات عن الاتجاه الذى سنتخذه وضبطت البوصلة على ذلك . وتقدمت الى الدليل فوجدته مضطربا تنقصه ابتسامته المألوفة ولا يبدو عليه ما اعتدنا رؤيته من مظاهر ثقته بنفسه واعتماده عليها . وأريته البوصلة ثم أفضيت اليه بشكى فى صحة الاتجاه فلم يجبنى وذرع السماء بعينين متفرستين يتعرف موقع (الجدى) بلا جدوى لان السحاب كان يغطيه .

وفى هذه اللحظة أطفأ سراجه هبوب العاصفة الآخذة فى الثوران . وكانت القافلة قد لحقت بنا وعرف كل رجل فيها انا ضللنا الطريق . ورُدّ الرجال والجمال من بعضهم الى بعض والعاصفة تسفى الرمال فى وجوهنا .

وكانت الريح شديدة لا يكاد الانسان معها يسمع صوت نفسه فما بالك ببقية الأصوات . وتلاشت الثقة من نفس محمد وانعدمت انعداما تاما ولحظت أثر ذلك من وجوه رجال القافلة . فقد كانوا جميعا ممن ألفوا السفر فى الصحراء وعرفوا معنى فقد الطريق فى سريرة منبسطة من الصحراء خالية من الأعلام فقال الجميع بصوت واحد: «لا بد أن نحط الرحال حتى تصفو السماء».

ولكنى كنت أعرف خطر هذه السياسة فان الحائرين فى مثل هذه الحال يقضون الساعات يفكرون فى حتفهم و يزدادون ضعفا و يأسا . وكان رأيى أن لا نقف فقد كنت أثق ببوصلتى وتحققت مرات عديدة إذ ضبطتها على الاتجاهات التى أشار اليها محمد .

وسكنت الريح لحظة فقلت بصوت هادىء فيه نبرة اليقين «ان هذه الريح تهب من الشمال شأنها فى الأيام الماضية لانها لو كانت تهب من الجنوب لوجب أن تكون دافئة وهذا هو نجم القطب وهذا طريقنا السوى » . وأشرت الى الموضع الذى يجب أن يكون فيه الجدى ما لم تكن البوصلة غير صادقة . ثم درت وأشرت الى الطريق التى يجب اتباعها . فجمع محمد ما تفرق من نفسه وقال « جزاك الله خير الجزاء ان الصدق ما تقول »

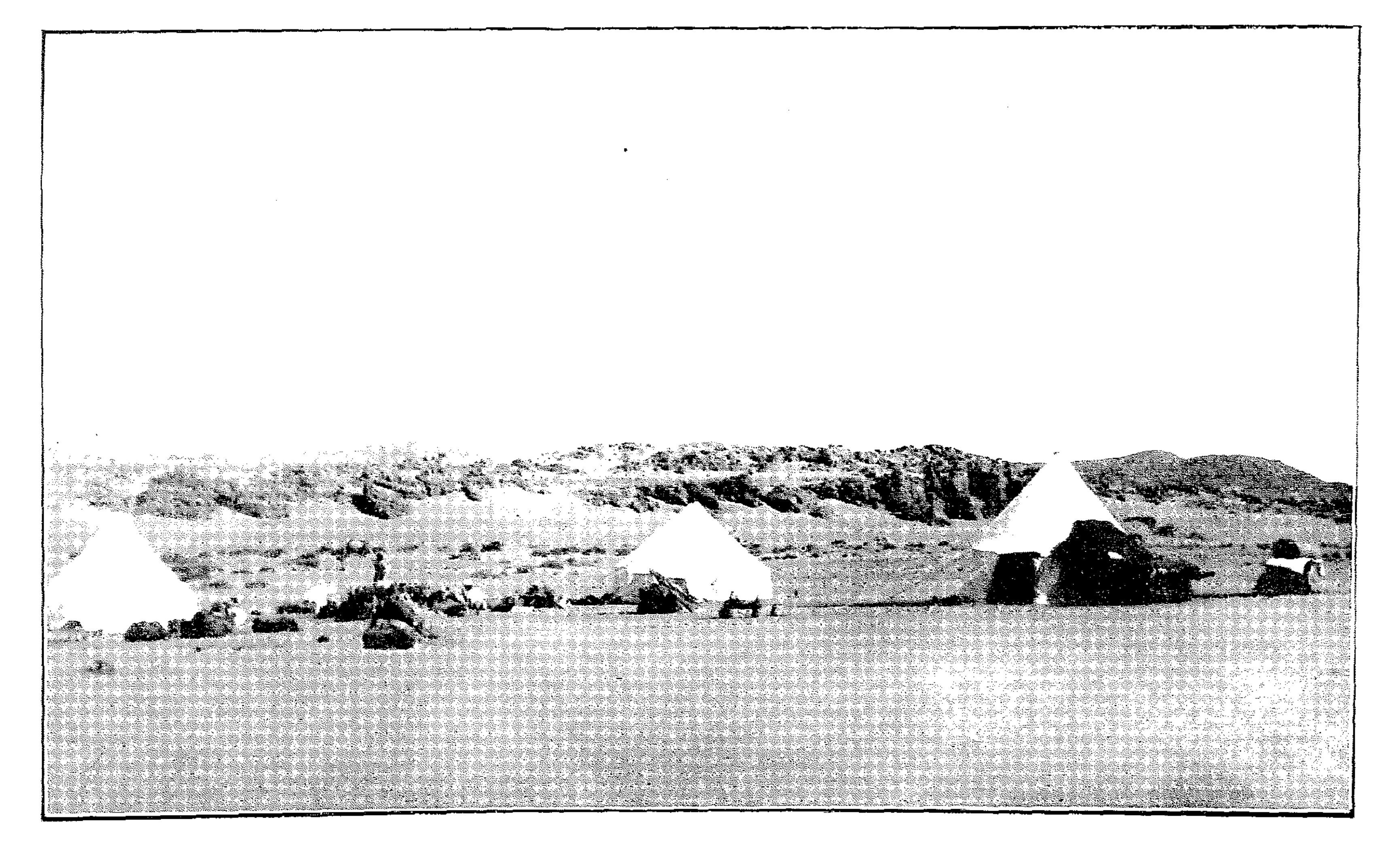
وتقدم الىّ السنوسى أبو حسن الذى كان دليلنا الى الكفرة

واكدما قررته بصوت عال قائلا « والله انك لتقول الصدق وقد فكرت فى هذا ولكنى لم أجسر على الجهر به لعدم وجود الدليل على ذلك نظرا لاحتجاب الجدى خلف السحاب » واكتفينا بهذا وأضأنا السراج بصعوبة شديدة وتقدمتُ القافلة بين محمد وأبى حسن .

وانبعث من الظلام صوت يقول « فى أى اتجاه نسير ؟ » .
فاجابه بوكاره وهو يضحك « دع الريح تلطم قفاك الاسود فانك لن تحيد عن الطريق السوى »

وبعد قليل من الساعات قبض محمد على يدى وصرخ فرحا وهو يشير الى تلال الرمل التى واجهتنا ثم قال « ها كم (الغرد) الحمد لله ان الله رؤوف رحيم » وهكذا عاد للرجل طربه وسروره

وقرت العاصفة بعد قليل وكنا بين تلال الرمل وصفت السماء الى حد لم يعد يتمالك معها أشد رجال القافلة تشاؤما أن يشغل باله باى خطر . ولكن ما أصابنا فى هذه العاصفة من الحيرة والخوف أظهر لنا ما يتعرض له قاطع الصحراء من الأخطار . ولم يكن الفضل فى نجاتنا من هذا المأزق الا للبوصلة التى كنت أحملها . ولم ير محمد الصلاح فى قطعنا هذه التلال فى الظلام فحططنا الرحال حيث وقف بنا المسير .



تلال صخرية فى الصحراء بين العوينات واردى

الخميس ١٠ مايو :

قمنا الساعة الرابعة وربعا صباحا ووقفنا الساعة التاسعة الا ربعا ثم استأنفنا المسير فى منتصف الساعة الخامسة مساء ووقفنا الساعة السابعة من صباح ١١ مايو فقطعنا ٧٥ كيلو مترا . الجو صحو معتدل وهبت ريح باردة قوية فى بكرة الصباح ثم ضعف هبوبها بعد ذلك. أعلى درجة للحرارة ٣٨ . الأرض ملأى بتلال الرمل الناعم الخطرة فى بعض المواقع ويمتد مسافة كيلو مترين ثم تنبسط الصحراء وفى منتصف الساعة السادسة مساء دخلنا منطقة تتناثر فوق أرضها ركام الحجارة سوداء وبيضاء شأن الصحراء قبل الكفرة .وفى الساعة الثالثة صباحا من اليوم الحادى عشر دخلنا منطقة من الحشيش الجاف فى أرض منبسطة من الرمل الناعم وفى منتصف الساعة الخامسة صباحا اجتزنا جهة تكثر فيها تلال الرمل . وقد تحققنا حين قطعنا (الغرد) فى الصباح من الخطر الذى كنا نستهدف له لو أننا حاولنا قطعها فى الظلام فقد كانت هذه التلال شديدة الانحدار ناعمة الرمل وكانت الجمال تغوص الى ركبها فيضطر الرجال الى تخفيف أحمالها ومساعدتها على النهوض . وقضينا فى قطعها ثلاثة أرباع الساعة ثم وقفنا عند الساعة التاسعة صباحا وقد فتك بنا الجوع لأننا لم نذق شيئا منذ غداء البارحة . وكانت حاجتنا الى الطعام أشد من حاجتنا الى النوم

نظرا للراحة التي نعمنا بها بضع ساعات فى الليلة الماضية .

وكان الطقس حارا عند ما بدأنا السير فى منتصف الساعة الخامسة ولكن نسيما بليلا كان يهب من الشمال الشرقى فلطف من تلك الحرارة . وسألنى هرى أن أعطيه بضعة أمتار من القماش الأبيض يتخذ منها عمامة لان حرارة الشمس آذت رأسه فأعطيته ما أراد . ولا يلبس الثياب البيض فى قبائل التبو والجرعان إلا شيوخها .

وشعرت تلك الليلة بالميل الى المشي فركبت جملى أقل من العادة . وكنت منذ تركى العوينات أمشى بين ست ساعات وسبع ساعات كل ليلة ولكنى مشيت تسع ساعات تلك الليلة وسرنا سيرا حثيثا حتى الساعة الثالثة صباحا ثم شعرت فجأة بحفيف عند قدمى فتحسست ذلك فكان حشيشا .

وتغيرت معالم الصحراء وكانت الجمال جياعا لأننا تركنا العوينات ولا نحمل من علفها إلا ما يكفيها يومين آملين وجود المراعى فى طريقنا ولذلك تركناها ترعى وهى تسير بدل أن نستحثها فى سبيلها . وكان سير تلك الليلة متعبا للجميع فقد كنا مفتقرين الى النوم. وملاحظة سير الجمال فى أرض ذات مراع عمل

لا يستهان به . وركب محمد وهرى معظم الطريق وكان حسن يحمل المصباح . ثم ترجل محمد قبل الفجر بقليل لحمله عنه وأراحه ولم أرَ دلائل التعب على الرجال كما رأيتها صباح اليوم عند ضمنا الجمال لتأدية صلاة الفجر .

الجمعة ١١ مايو :

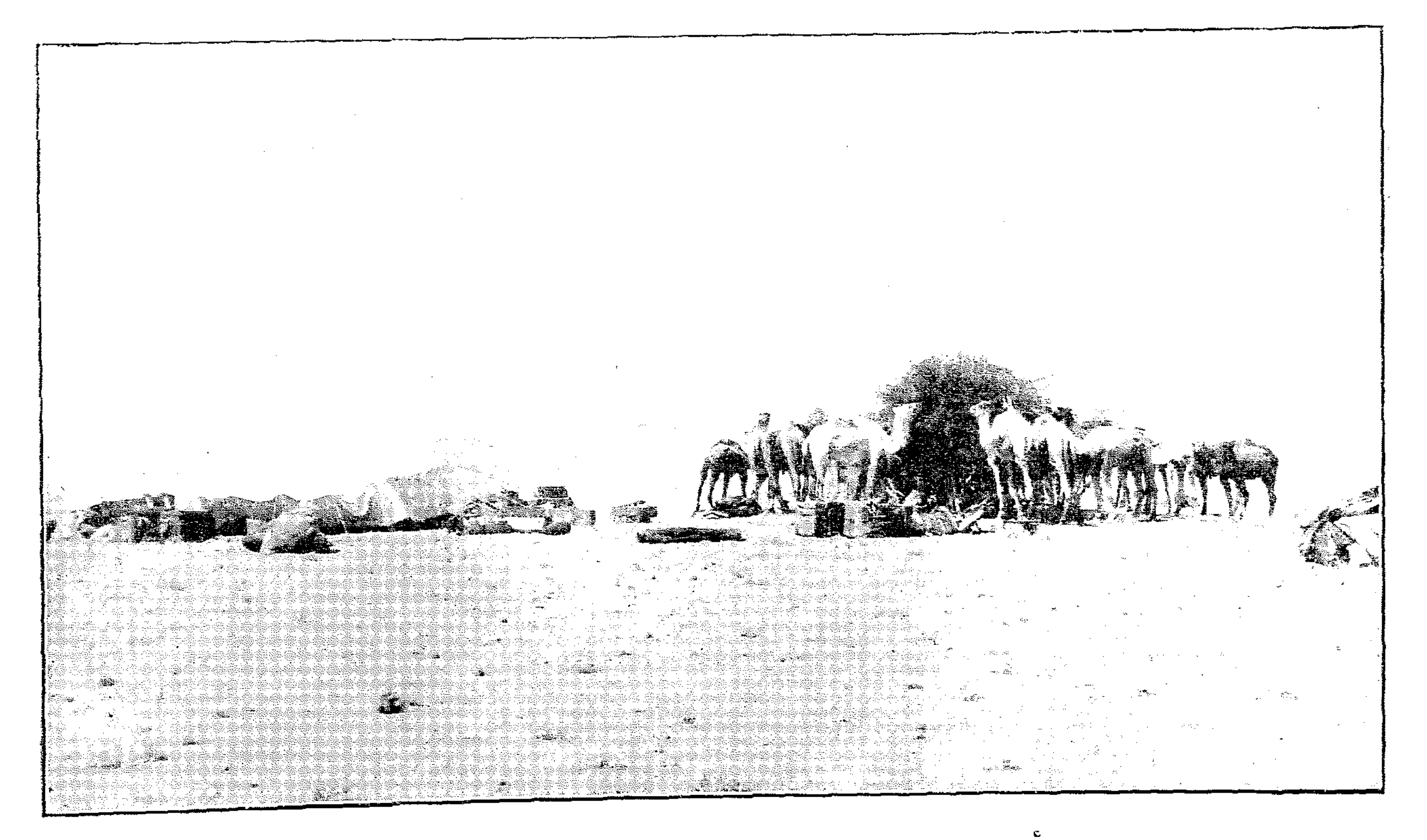
قمنا عند الساعة الخامسة الا ربعا ووقفنا الساعة الثالثة وربما صباحا من اليوم التالى وقطعنا ٤٢ كيلو مترا . الجو صحو لا ريح فيه . حار فى النهار والليل . أعلى درجة للحرارة ٣٩ . الارض رملية مغطاة بحشائش جافة تشبه حقلا من القمح الناضج . وفى الساعة الواحدة الا ربعا صباحا مررنا بغرد عادىّ وفى الساعة الأولى دخلنا أرضا منبسطة خالية من الحشائش وفى الساعة الثالثة وربع وقفنا عند تلال من الخراسان

وقضينا اليوم فى النوم والاكل ثم بدأنا السير فى الساعة الخامسة الا ربعا مساء قاصدين أن نسير طول الليل . ولم تحن الساعة العاشرة حتى كنا جميعا متعبين ناعسين . ولم ينِدّ عنا محمد الذى كان يمتطى جمله . وقد غلبه النعاس بعد ذلك فكان يغفى فى فترات ونال منه التعب فكان لا يتحقق من طريقه بملاحظة نجم القطب وهو عماد الدليل ومن الخطر أن يهمل ملاحظته . وتحققت

أنا والسنوسى أبو حسن ان محمداً لم يكن سائراً بنا فى الطريق السوىّ ولكنا لم نرد أن نتداخل معه فى الامر بعد تلك الليلة السابقة . وفى الساعة الثالثة وربع صباحا وصلنا مرتفعا من التلال فوقف محمد بغتة . وكنت سائراً حينذاك فى مؤخرة القافلة أتحقق من صحة اتجاهنا من وقت لآخر فلاحظت أنا كنا منذ الساعة العاشرة نميل فى السير صوب الجنوب أكثر من ذى قبل. ووقفت القافلة فتقدمت الى محمد وسألته عن سبب وقوفنا فأجاب وهو يشير أمامى « إنى لا أتعرف هذه الطريق بين التلال ولا أدرى كيف تكون الارض التى تليها »

وكان فى ذلك صريحاً مقراً بخطئه . ولم أرد أن أهيج الحيرة فى نفوس الرجال فقلت له « لنحط الرحال حتى يطلع النهار فانا متعبون هذه الليلة » .

ولم أكد أفرغ من قولى حتى بركت الجمال ورفعت عنها الاثقال ولم أر النوم يستولى على الرجال بالسرعة التى نالهم بها هذه المرة فقد التحف كل منهم بجرده واتقى الريح الباردة الهابة من الشمال الشرقى بقطعة من حوائج السفر ثم نام . واعتلى محمد ذلك المرتفع ليتعرف النواحى فتبعته وقلت له « أظنك كنت تبالغ فى اتباع نجم القطب » وانما أردت بذلك أن أقول إنه بالغ فى المسير



أول شجرة قابلتها القافلة فى الصحراء بين العوينات واردى

صوب الجنوب ولم أشر الى نومه فوق جمله لأنى لم أرد أن أزعزع اعتقاده فى نفسه أو أن أخجله . فأجاب متمتما وهو يذرع الافق بتشوف « حفظك الله لا بد أن اكون قد فعلت ذلك والا لما كنا وصلنا هذه الجبال فى هذه الساعة المبكرة فقد قدرت أنا نصلها عند الفجر ومع هذا فعند الصباح يأتينا الفرج من عند الله »

وتركته وأنا أشعر بالحيرة فقضيت بضع دقائق فى أرق وأنا آمل أن لا نكون قد بعدنا كثيرا عن الطريق السوى واستولى علىّ التعب فلم أفكر طويلا فى ذلك وغشينى النعاس .

السبت ١٢ مايو :

علا صوت محمد بالدعوة الى الصلاة فى منتصف الساعة الخامسة فاستيقظنا جميعا ولم تمض بنا ساعة حتى كنا على قدم الاستعداد للمسير .

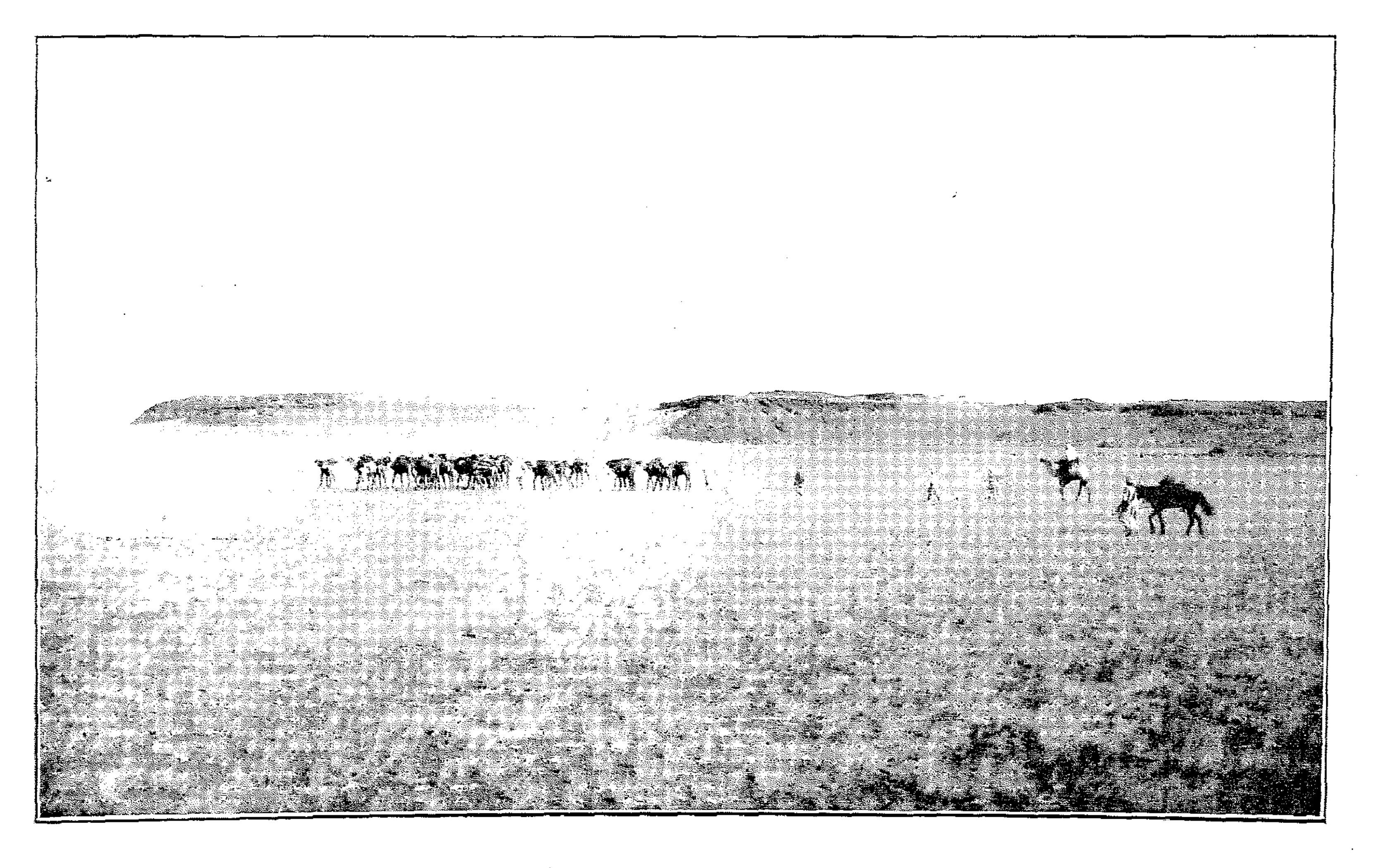
وتقدم محمد القافلة وصحبته وكان لا يزال مضطربا حتى إذا درنا حول التلال قال وفى لهجته رنة تشعر بالراحة « الحمد لله هذه طريقنا » . ثم أشار الى الركن الشمالى الغربى لسلسلة التلال فسرنا الى حيث أشار وفى الساعة العاشرة الا ربعا صباحا وصلنا ركن التلال وضربنا الخيام وأرسلت الجمال ترعى بين التلال على بعد كيلو متر أو كيلو مترين .

وكان الرجال والجمال فى حالة سيئة وكان الماء قد نزر .

وبعد ظهر ذلك اليوم تقدمنا محمد وهرى الى الجبال يخطون السبيل فى الرمال بطنب الخيام حتى نقتفى أثرهم . وفى الساعة الخامسة تبعناهما بين أكوام الرمل ثم وصلنا التلال. ولم تكن التلال كثيرة لحسن الحظ وان كانت من شدة الانحدار بمكان. غير ان الارض الجبلية التى كانت تليها أنهكت قوانا فقد ظللنا نتعثر بين الحجارة فى الظلام ولا يقينا أذى هذه الصدمات ما كان فى أقدامنا من الاحذية البدوية . والتعثر بالاحجار مؤلم فى تلك الساعة المبكرة من الصباح لان رجال القافلة يكونون ناعسين ويمشون مغمضى الاعين .

وقد كنت فى الليالى السالفة عمدت الى تجربة موفقة هى أن أطلق فى الجو طلقتين أو ثلاث طلقات لأبعث النشاط فى نفوس الرجال وكانت هذه التجربة ذات نتائج حسنة فانهم كانوا يردون بصرخات الفرح ويجدون فى السير. ولكن النظرية قدخابت هذه الليلة فقد أرسلت الطلقات العديدة فى الساعة الثالثة وهى أعصب ساعات السفر بالليل ولم يجبنى أى صوت من رجال القافلة

وكان لى تعزية صغيرة فى وسط ذلك الفضاء الساكن الباعث على التعب والوجوم فقد طلع الهلال فى الصباح الباكر كخيط



القافلة قرب بئر اردى وقد تبدلت الصحراء الى ارض مرعى

مقوس من الفضة وتلألأ فوقه نجم متألق فكان من هذين قطعة جميلة من حلى السماء . وتركت عينىّ تنعمان بهذا المنظر فنسيت ما كان يصيب قدمى من ألم التعثر بالاحجار .

ووصلنا بعد ذلك بقليل الى جهة كثيرة الحشيش الجاف فتركنا الجمال ترعى قليلا ووقفنا نريح أجسامنا المنهوكة وحططنا الرحال فى الفجر لتأدية الصلاة ولم نكد نفرغ منها حتى التحف اكثر الرجال بجرودهم وتهالكوا على ذلك الرمل الاحمر الجميل كأنهم حجارة بيضاء .

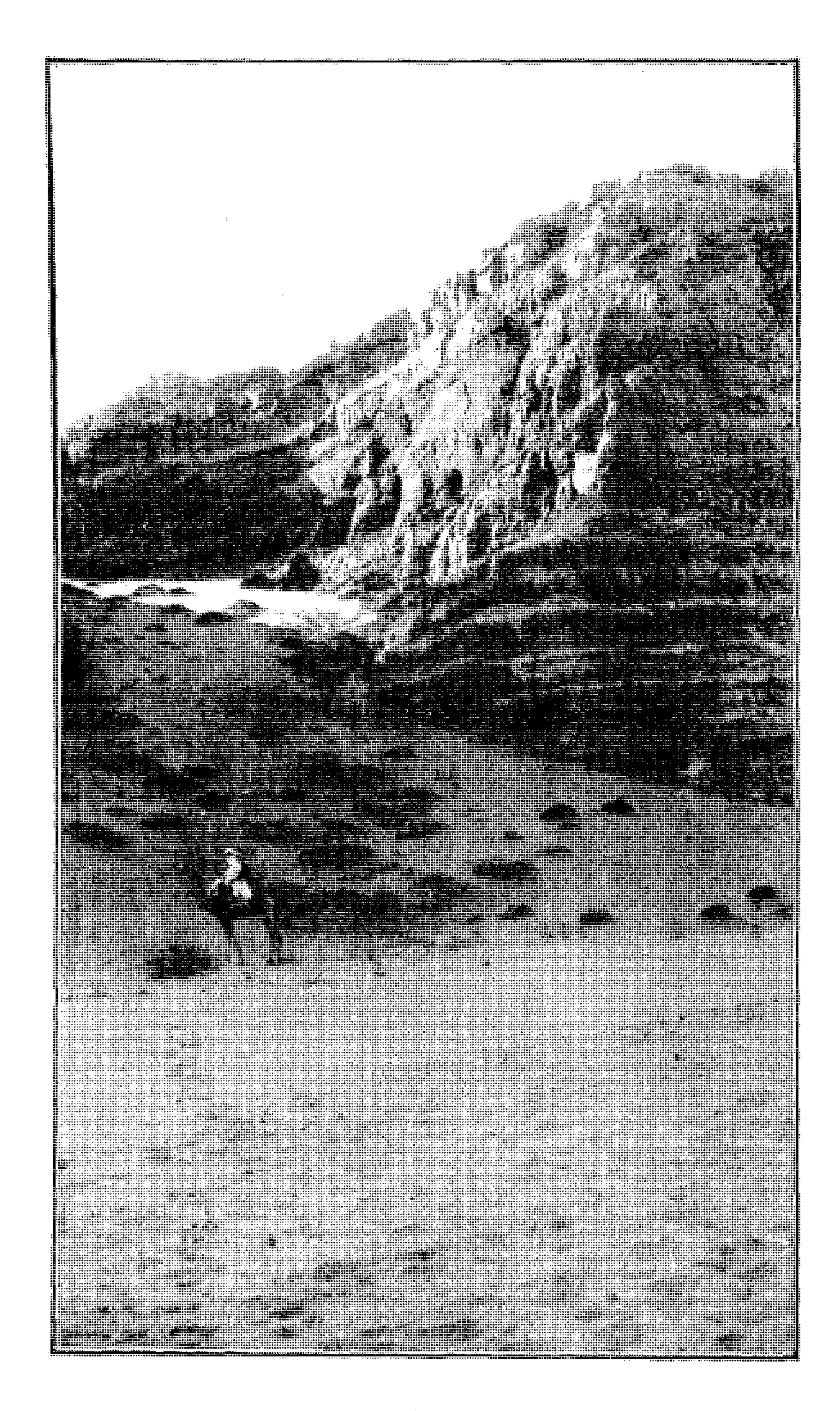
وسارت القافلة بعد ذلك متثاقلة ثم لحق بنا الذين تخلفوا يخلسون اغفاءة قصيرة وأرجو أن يكونوا قد انتعشوا قليلا . أما أنا فان أعضائى آلمتنى هذا الصباح ولم أتمكن من استعادة قواى ولم أجد سبيلا للراحة على ظهر جملى رغم تجربة كل طريقة من طرق ركوبه وسواء كنت مسرعا أم متباطئا وثقلت أجفانى .

وفى الساعة السادسة ساعدنا الحظ فوصلنا جهة كثرت فيها الحشائش الخضراء ونصبنا الخيام بعد مسير ١٣ ساعة مجهدة . وكانت أعيننا فى حمرة الدم ودب التعب فى جميع الاوصال فلم تمض بنا نصف ساعة حتى غشى مضرب خيامنا سكون شامل .

الاحد ١٣ مايو :

صحونا لتناول الفطور فى الساعة العاشرة صباحا ثم عاد الرجال فناموا ولم يتح لى النوم . وبدأنا السير الساعة الخامسة وربما بعد الظهر وقد ساءت الاحوال هذا المساء عن ذى قبل فقد كانت الارض شديدة التموج كثيرة الحجارة وآذت الرجال والجمال كثيرا . وكانت الجمال تضل بنا فى حلكة الظلام وتتخلف من وقت لآخر عند ما كنا نتعرج فى سيرنا بين اكوام الرمل وتلال الصخور . ولم تعدم الإبل بعض الحشائش فكانت ترعى وكان من الصعب علينا أن نميزها فى تلك الرمال الحمراء ذات الصخور القائمة المتناثرة . وسكتت أصوات الرجال عن الغناء تلك الليلة فى ساعة مبكرة وفى هذا دليل واضح على تعب الرجال .

وجاءنى السيد الزروالى يقول إن محمدا يفضل لنا حط الرحال مبكرين عن السير الطويل فى الليل . وكان السير فى الحقيقة مجهدا اضطرنا كثيرا الى تغيير اتجاهنا تفاديا من المرتفعات واكوام الصخور . وخيف علينا فى هذا التغيير المستمر أن نضل الطريق . ولكن الزروالى كان يعلم نفورى من التأخر فقال للدليل انى أريد السير عامة الليل فسرنا ولكن الطريق كانت من الوعورة بحيث كنا نترك الجمال وراءنا من وقت لآخر فلم أر فائدة فى استمرار السير



وادی اردی

ولم أر دليلا على تعب الرجال أنصع من أن حسنا الواجنجى وهو من أصبر البدو على السير كان قد امتطى جمله منذ بدء المسـاء فلم يتركه بعد ذلك

وضربنا الخيام فى الساعة الحادية عشرة ونصف والتحفت بجردى وأخبرت الرجال انى لست بحاجة الى اقامة ما يدفع عنى الريح واكبر ظنى انى لم أغير موضعى الذى أخذته عند ما رقدت حتى الساعة الخامسة واستيقظت موجع الظهر والاقدام . وكان نسيم الصباح وانيا منعشا وكانت رؤيتى الرجال مهتمين متشوفين للسفر سببا فى نسيانى آلامى الجسمانية ورغما من روح الانشراح التى سببها طلوع الصباح فان الامور لم تكن مشجعة فقـد كانت الارض وعرة المسالك وظهر على الرجال تزعزع ثقتهم بمحمد وهرى وكانت حال الجمال سيئة وكان الماء آخذا فى النقصان بدرجة عظيمة.

الاثنين ١٤ مايو :

قمنـــــا الساعة الســادسة صباحا ووقفنا الســاعة التاسعة واستأنفنا السير فى منتصف الساعة السادسة مساء ووقفنا الساعة العاشرة فقطعنا ٣٠ كيلو متر وكان الجو معتدلا صحوا وهب نسيم بليل من الشمال الشرقى فى الساعة السابعة صباحا وقرّ عند الظهر وكان المساء والليل هادئين . أعلى درجـة للحرارة ٣٢ . وكانت

الارض ناعمة الرمل مغطاة بالحشائش بين ناضر وجاف . وتغيرت معالم الارض بعد استئنافنا المسير بعد الظهر فأصبحت كثيرة التموج متعددة الأودية ذات المراعى «والنشا» الجاف. وكان ذلك دليلا على اقترابنا من اردى .

وفى منتصف الساعة التاسعة صارت الارض كثيرة التلال على امتداد أربعة كيلو مترات . ثم قطعنا بعد ذلك واديا كبيرا تكثر فيه المراعى والاشجار . وكان فى عزمى عند البدء فى الوحيل أن نسير أربع ساعات أو خمسا . ولكن الحر اشتد بسرعة فحططنا الرحال فى الساعة التاسعة واسترحنا أربع ساعات فكان لذلك تأثير حسن اذ ظللنا يقِظين حتى تناولنا فطور الصباح .

وتقدمنا محمد وهرى بعد الظهر لاستكشاف الطريق السوى لأن السبيل كانت وعرة المسالك وسارت القافلة فى منتصف الساعة السادسة وقل الماء وبدأ يأسنا وظهر على الجمال الضعف والكلال . وكنا فى شوق شديد الى الوصول الى وادى اردى بأسرع مايمكن

ولم نكد نبدأ المسير حتى وجد بوكاره وأرامى (وهو غير ذلك الذى هام فى الصحراء واختفى ولكنه مثله قتل رجلا آخر) أثر ورن (برص) كبير فتتبعناه الى جحره واشتغلنا بالبحث عنه

فكان فى ذلك تسلية لنا ولكنا وجدنا الجحر خاليا من ساكنه فتتبعنا أثره الى كوم من الصخور وظللنا ننبش الارض عنه عشرين دقيقة حتى أمسكناه .

وتتخذ البدو والعبيد من دهن الورن دواء للروماتزم ويزعمون أن من يحمل رأس هذه الزاحفة يأمن شر السحر وان جلدها اذا علق فى بيت لم تدخله الثعابين . والورن لا يعض ولا يلدغ ولكن ذيله الذى يشبه السوط يؤذى كثيرا . وقد سلخ أرامى ذلك الورن وأعطانى جلده .

وتبعنا الأثر الذى تركه دليلنا ولكننا فقدناه مرات عديدة فى الظلام وأضعنا وقتا فى ايجاده .

ورأيت أخيرا ان خط ذلك الاثر لم يكن مستقيما فاستدللت من ذلك على ان محمدا لم يكن واثقا من صحة الاتجاه الذى اتخذه فأمرت الرجال أن تحط الرحال وتطلق النار فى الفضاء . وبعد ذلك بقليل انضم الينا محمد وهرى وكانا فرحين بتقريرى الوقوف

وأخبرنى الدليل انه لم يكن فى مقدوره تعرف الطريق فى الظلام وإنا بالرغم من هذا لم نكن بعيدين عن البئر .

وكانت هذه أول مرة منذ تركنا العوينات نمنا فيها نوما عميقا متواصلا مدة خمس ساعات .

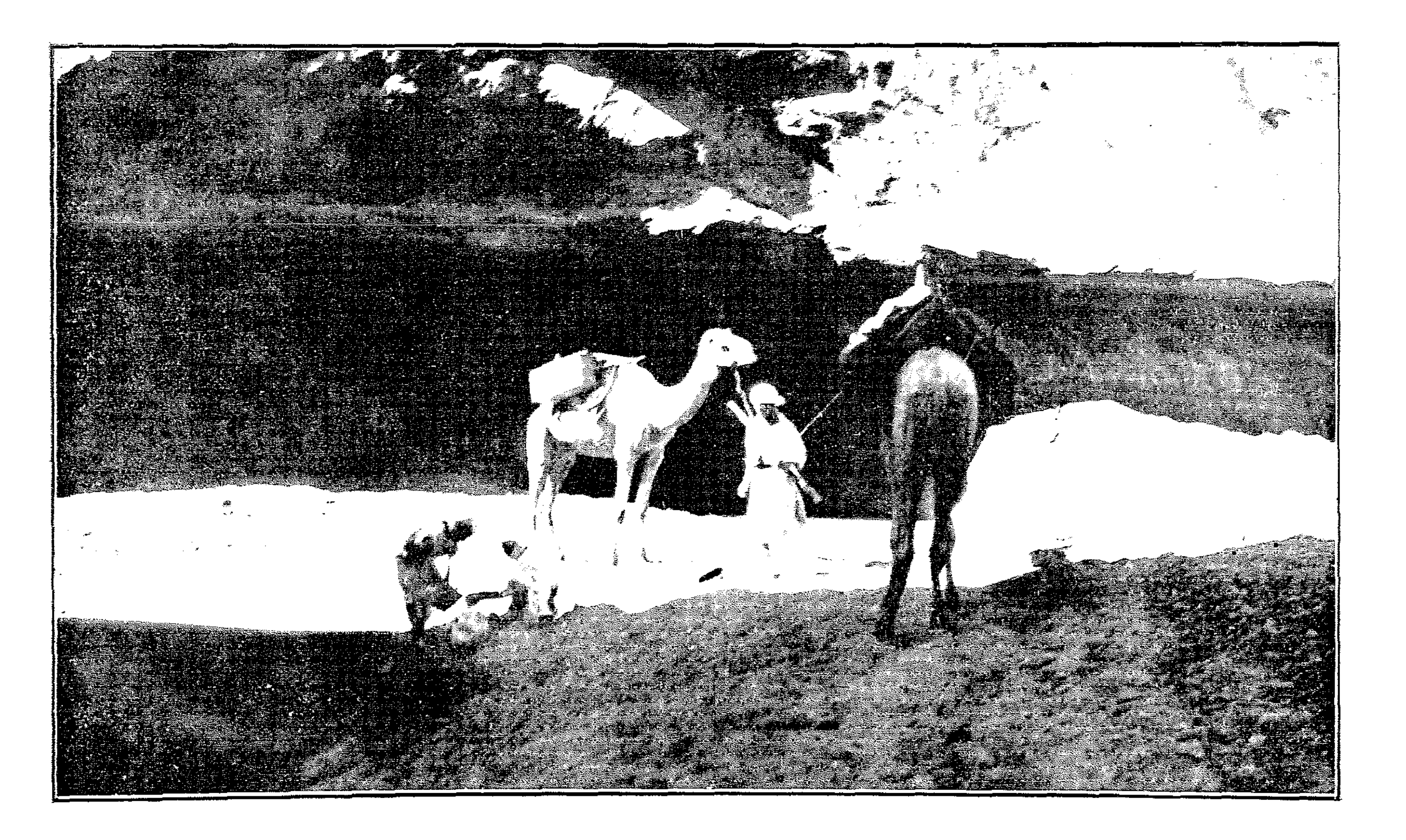
وقد حادثت أرامى قبل أن أنام عن اردى وآبارها فقال « ان

محمدا دليل ماهر فى النهار ولكنه مسنّ لا يرى جيدا فى الليل زد على ذلك أنه لم يطأ هذه البلاد منذ سنين وكان يجب أن نصل البئر الأولى هذا المساء ولكننا أخطأنا موقعها والله أعلم »

فطلبت منه أن لا يخبر الرجال شيئا من هذا حتى لا يفزعوا ويلوموا محمدا .

وجهزت كيس النوم وجلست أفكر فقد كانت هذه اللحظة أكثر لحظات الرحلة بعثا على اليأس فقد أضاع الرجال الثقة وقاسوا كثيرا من اشتداد الحر . وكانت الجمال منهوكة القوى لهذا السبب كذلك ولم يكن الدليل واثقا من طريقه . وكان الماء نزرا آسنا . وأى ظرف من هذه الظروف كاف وحده لانشغال البال ولكن مجموعها يهد الأعصاب ويفتك بالعزيمة والثبات والجلد أشد فتك

وبينما أستعرض هذه المصاعب والمخاطر خطر بفكرى أن أرامى المجنون وأخاه ملكنى الذى ذهب يلتمسه لم يظهرا بعد . فوجدتنى فى حيرة وعجب وخشيت أن تكون الأقدار قد ازمعت أن تحرمنى ما كنت قادرا على عمله . وكانت هذه خير فرصة مناسبة للاقدار تفتك بى ان كانت من القسوة بحيث تريد هلاكى . فانى لو كنت أخطأت موقعى اركنو والعوينات لما كان فقدى لهما بهذه الشدة علىّ . أما وقد قطعت أكبر شق من رحلتى ووصلت الى غاية



بئر اردى

ابحاثي وحصلت على جل النتائج التى أردتها منها فقد دب فى نفسى الحنين الى وطني وتعلقت باهداب الحياة خشية على تلك النتائج أن تقبر معى ورغبة فى العودة بهـا الى بلادى وفكرت طويلا ثم قلت لنفسى الله أعلم وعجبت كيف يغشانى النوم تلك الليلة ولكن سحر الصحراء بدأ يفعل فى نفسى فثقلت أجفانى وحلا لي النوم .

الثلاثاء ١٥ مايو :

صحونا الساعة الرابعة فصحبت محمدا وهرى وانطلقنا نتعرف الطريق على قلة تحققنا السبيل فأخذ أبصارنا بغتة منظر تلال اردى الحمراء وتأكدت ذلك بواسطة منظارى ولم تمض بنا ساعة حتى سرنا صوبها : وتناقشنا قبل البدء فى السير فيما اذا كان الأوفق لنا أن نضرب الخيام فوق التـلال المشرفة على الوادى الذى توجد فيه البئر أو ننحدر الى ذلك الوادى فنقيم فيه . وكان الانحدار الى الوادى متعبا للجمال ومع ذلك فقـد قررنا أن نحط الرحال فوق أرضه . فان ذلك على الأقل يقينا من موارد الماء اذا هاجمنـا قطاع الطريق .

وأخذنا نتسلق دروبا وعرة بين الصخور الحمراء حتى وصلنا قنة صخرة عالية فبدأ لعيوننا وادى اردى البديع ممتدا تحت أقدامنا

وهو واد ضيق يبلغ طوله عشرة كيلو مترات وعرضه مائة متر . وتكتنفه صخور من الحجر الاحمر . وكان ذلك الوادى مثلا طيبا للواحة الواقعة فى الصحراء فان أشجاره وحشائشه الخضراء تبعث السرور والطمأنينة بعد قطع تلك الصحراء العارية ذات الصخور الوعرة التى قاسينا فيها الاهوال منذ تركنا العوينات

وبينما كنا نتقدم الى البئر سبقنا محمد وهرى لتعرف الارض والعبيد شديدو الاحتراس اذا وصلوا بئرا فانهم لا يهرعون اليها دفعة واحدة بل يرسلون رجلا أو رجلين للتحقق من وجود أحد بالقرب منها والتأكد مما اذا كان صديقا أو عدوا ولذلك لم يكن تقدم الدليلين لتعيين الطريق التى يجب اتباعها فحسب ولكنه فوق ذلك للتحقق مما اذا كنا فى حاجة الى التأهب للدفاع عن أنفسنا عند اقترابنا من البئر .

وانحدرنا بعد جهد شديد فى الطرق الوعرة الى الوادى ثم ضربنا الخيام فى طرفه الشمالى .

وتقع البئر فى أقصى الجنوب ولا طريق سهلة اليها من رؤوس التلال الا التى أخذناها . وتناولنا طعاما شهيا من الارز والخبز الطازج فأضاف ذلك الى بهجة الجهات المجاورة وشعرنا بطرب شديد كأنا فى حفلة زفاف .

وبانت لى الافكار السوداء التى تملكتنى الليلة الفائتة كأنها كابوس شديد وان لم تخل من حقائق كثيرة . فان الحد الفاصل فى الصحراء بين النجاة والهلاك كثيرا ما يكون دقيقا جدا .

وبعد أن احتسينا ثلاثة اكواب من الشاى فى بطء واستمتاع، ذهب الرجال بالإبل الى البئر يسقونها ويستجلبون الماء للقافلة . وعادوا بالماء فحلقت ذقنى واستحممت وغيرت ملابسى فاطمأن بالى وهدأ خاطرى وبسم لى وجه الحياة مرة أخرى .

وفى الساعة الخامسة بعد الظهر تسلقت حائط الوادى مصطحبا التيودوليت وقمت بعمل بعض الملاحظات . وذهب السيد الزروالى مع السنوسى أبى حسن وأرامى لاصطياد الودّان وهو غنم الجبال ولكنهم عادوا غير موفقين فى صيدهم . وقد سألت أرامى عما اذا كانت خيبتهم فى عدم احسان الرماية فأجابنى « أبدا والله لقد أحكمنا الرماية ولكن الله رأف بالودّان »

وأرخى الليل سدوله على قافلة تضم جمالا مستريحة ورجالا طربين مردّدى الغناء فشعرت انى لا بد حالم تلك الليلة أحلاما لذيذة .

الفصل الثامن عشر

دخولنا السودان

صحوت مبكرا لفتح صندوق الافلام (الشرائط) ووضع أفلام جديدة فى آلات التصوير والجو ما زال باردا وفى الساعة السابعة قصدت زيارة البئر مع محمد وحمد . ووادى اردى من النوع الذى يسمونه « كركور » وهو منخفض طويل ضيق بين التلال متعرج كالثعبان . ويمتد صوب الجنوب على مدى سبعة أو ثمانية كيلو مترات وينتهى بعطفة مسدودة توجد فيها البئر فى شق مظلل تحت الصخور . والعين على شكل نصف دائرة يبلغ طولها ١٢ مترا وعرضها ٦ أمتار . وهى كعيون العوينات على انى أظن أنها فوق ما تتلقاه من مياه الأمطار يمدها نبع خفى . والطريق اليها صخرية لا تخلو من الخطر فقد عثر فيها أحد الجمال التى أرسلناها فى الليلة السالفة فناله ضرر لا يستهان به .

وتسلقنا الصخور الى العين فاسترحنا وشربنا الشاى وعدنا تحت شمس محرقة . والوادى بديع بجدرانه القائمة من الحجر



الطريق الصخرى الوعر بعد بئر اردى

الاحمر والحشائش الخضراء والأشجار المنتشرة فى سفحه .

وقال لى محمد أنه أوعر أودية هذه الجهات فدخوله شاق ولذلك كان الدفاع عنه سهلا هينا . وعند العصر تسلقت حائط الوادى لأرقب الغروب الجميل وأرى لعب الأضواء على الرمل الأحمر والصخور الوردية اللون .

وقص الرجال شعورهم وأصلحوا الحمام واغتسلوا ورتقوا ثيابهم التى كادت تبلى . وكانت المراعى كافية لجمالنا فرأينا من الحكمة أن نستريح ذلك اليوم ونستعد للرحيل . وأخبرنى محمد وهرى ان السفر بعد ذلك لا يحسن فى الليل لان اجتياز التلال فى الظلام غير مأمون . وأثنى البدو على محمد لما رأوا أمس من قيادته الجمال من قنة الصخور العالية الى الوادى .

واكثر الكلب من النباح فى المساء فظننا قرب أحد منا وأطفأنا النار بغتة وجمعنا الجمال وأعددنا البنادق ونصبنا العسس حول الخيام ولكن انذار الكلب كان كذبا . وقد تبدو هذه الاستعدادات — التى يتخذ مثلها عند الاقتراب من بئر — سخيفة بعد زوال الخطر ولكن القافلة التى لا تتخذ هذه التدابير فى أرض مجهولة تكون قافلة خطلة الرأى فان مهاجمة البدو المعادين أو اللصوص أمر فى حكم المحتمل .

الخميس ١٧ مايو :

صحونا الساعة الرابعة وسرنا فى منتصف الساعة السادسة وكان خروجنا من الوادى أمر لا يقل صعوبة عن نزولنا اليه فقد سقط أحد الجمال ولم يصبه ضرر كبير لحسن الحظ . وقد أدرت بصرى الى الوادى عند وصولنا الى نهايته فتحققت الفرق بين أودية هذه الجبال وأودية اركنو والعوينات فان أرض تلك الأودية على مستوى السهل الخارجى ويسهل على المسافر أن يدخل الوادى من مضيق يشبه ممرا ولكن أودية هذه الجهات منخفضة عن المستوى العام للارض ولا ينزلها المسافر الا بالهبوط المتعرج فى طرق صخرية .

وقضينا ساعة فى الخروج من الوادى ثم سرنا صوب الجنوب الشرقى وكنا فى جهة جبلية تكثر فيها الصخور السوداء والحمراء فوضح لنا استحالة السير فى هذه الارض فى الظلام .

وفى منتصف الساعة العاشرة نزلنا واديا ضيقا مخترقين طريقا سحيقا فوقع جملان ورميا باحمالهما الى الارض وكان أحدهما يحمل الماء فكفانا عبد الله انبثاق القرب بحضور ذهنه لانه أخرج سكينة بسرعة وقطع حزام قتب الجمل . وسقطت سدادة أحد الفناطيس فسال من مائه مقدار ثلاثة الارباع ولكن البئر التالية كانت لحسن

الحظ على مسير ثلاثة أيام وكان معنا من الماء ما يكفينا لأطول من ذلك شقة . وربما كانت هذه الحادثة كارثة عظيمة لنا اذا كنا فى مرحلة طويلة المسافات بين الآبار .

وحدث لنا هذا الصباح حادث فجائى كاد يجرنا الى نتائج وخيمة لولا أمران ساعدنا فيهما الحظ فقد كان أحمد وهو ذلك الطاهى الذى جاء معى من مصر راكبا جملا بلا رسن وقد سأل حامدا جمال أبو حليقة أن يحضر له رسنا فأبطأ هذا اعتمادا منه على معرفته بالجمال واعتقادا بان الجمال كانت منهوكة القوى وانها كانت فى حاجة شديدة الى الرعى وهى سائرة فرأى جمل أحمد بعض الحشائش وأسرع اليها ومر فى طريقه تحت شجرة تكثر فيها الاشواك . ولم يسع احمد أن يتفادى هذه الاشواك الحادة فخدش وجهه خدوشا كثيرة وآلمه الوخز فصب لعنته على الجمل وصاحب الجمال . فأجابه حامد فى الحال بالمثل وطلب منه أن لا يعود الى لعن صاحب الجمال الشريف . وكنت قريبا منهما فلم يسعنى الا الاعجاب بالجمال لوفائه لسيده أبو حليقة .

ونزل احمد بسرعة البرق عن جمله ثم تقدم متهيجا الى حامد والدم يسيل من وجهه . واندفع السنوسى أبو حسن وحامد الآخر

وسعد الاوجلى فانضموا الى جانب أخيهم البدوى ووقف عبد الله الى جانب احمد يعاضده .

ولم تكن هذه أولى المشاجرات التى رأيتها بين رجال الصحراء فدفعتنى خبرتى الى أن أتبين قبل كل شىء موضع البنادق لاطمئن من وجودها بعيدة عن ايدى الرجال وقد أراح بالى انى رأيتها مربوطة فى مواضعها الى ظهور الجمال . ولم يكن فى ايدى الرجال الا العصى يتضاربون بها . ومع ذلك فقد كانت الحاجة ماسة الى التداخل السريع قبل أن يتفاقم الخطب . فحثثت جوادى بين الرجال ووقفت بين عصبتى المتخاصمين وأمرت عبد الله واحمد أن يرجعا القهقرى . وكانت ساعة عصيبة أحسست خطرها وأنا أقف بين رجالى ورجال القافلة .

والتفتُ الى السنوسى أبى حسن وحامد فلحظت أنهما يصوبان نظراتهما الى موضع البنادق .

وكانت تكفى كلمة تشجيع واحدة منى لرجلىّ فيهلكا لأن البدو كانوا أكثر عددا ولكن الوقت لم يكن مناسبا من الوجهة الأخرى لأذلال رجلى امام البدو وان كانا مخطئين فالتفت الى الفريقين وقلت غير متحيز الى جانب : « ماذا تعنون بهذه الافعال الصبيانية . ألا تخجلون من هذا العمل وأنتم رجال »

فبدأ حامد الكلام وقال « انه أهاننى » . وقاطعه احمد فقال



امرأتان من قبيلة البديات

« انه البادىء بالتحدّى » . فاجبتهما بحدة « لا يعنينى من القاذف ومن المهين فانتم جميعا رجالى ومن العار أن تتخلقوا باخلاق الاطفال » .

وهنا تقدم السيد الزروالى فالتفتّ الى عبد الله ثم الى السنوسى أبى حسن وقلت بشدة « وأنتما أيها الشيخان العاقلان تنضمان الى هذه المشاجرة المزرية بدل أن تسعيا فى التوفيق بين المتخاصمين . وبعد فقد يكون الذنب ذنبي لانى أخترت لقافلتى أطفالا بدلا من الرجال .

وكانت ثورة الفريقين قد أخذت فى الهدوء وضعفت تلك النظرات الحادة التى كانت تشعر بالتحفز للوثوب . ورأى الزروالى عدم تحيّزى لرجلىّ وأحسبه كان يتوقع عكس ذلك فلم يجد ما يأخذه علىّ وفعل ما لم اكن أنتظره منه فانه آمر فرجا العبد ان ألق حامدا أرضا حتى أضربه بسوطى فلم تمض غمضة عين حتى ألقى فرج حامدا على الأرض وركز عليه بركبته . فصب السيد الزروالى سوطين على حامد قبل أن أتداخل فى الأمر ولكنى ترجلت بسرعة وأمسكت ساعد الزروالى وقلت له « ان الأمر لا يحتاج الى انزال عقابك فانا لا ندرى من الملوم وسأتفحص الأمر وأعاقب بنفسى من تظهر إدانته . . ثم التفتّ الى الرجال وأمرتهم أن يتبعوا الجمال .

وأشرت بعصاى الى محمد وهرى وكانا بمنجاة من التداخل فى هذه المشاحنة وأمرتهما أن يهديانا السبيل .

وانتهى كل شىء وسرت وحيدا محاولا أن استبق لمصلحة الجميع إعرابى عن عدم الرضا بما حدث .

واقترب منى السيد الزروالى ثم سألنى وفى صوته رنة أسف « أظن ان غضب البك مما حدث قد انصرف ويعلم الله انى منذ استيقظت هذا الصباح وأنا أحس شيئا يضايق أنفاسى فتوقعت حدوث أمر كريه وقد رأيت ذلك الاحساس فى نفسك عند ما رددت علىّ تحية الصباح »

وذكرت أنا الآخر انى كنت أشعر باحساس غريب لا باعث له لان كل شئ كان على ما يرام .

ولم يمض زمن طويل حتى شعر الفريقان بما يشعر به الاطفال الاشقياء بعد لوم لائم. ولاحظت أن الرجال تخلس النظرات الىّ ليروا ان كانت ثائرة غضبى قد قرّت ولكننى ظللت عابسا حتى ساعة الغداء. ولا يخفى على من اجتاز الصحراء تلك النتيجة السيئة التى تسببها مثل هذه الحوادث فان لفظا قاسيا يشتمّ منه رائحة الاهانة يكفى لتبادل الطلقات ان كانت البنادق فى متناول الايدى واكبر ظنى أنها لو كانت فى أيدى الرجال وكنت على بعد قليل منهم كما هى الحال فى أغلب الاحيان لسالت



حسناء من قبيلة زغاوه

الدماء وخرج الامر من يدى وقضى البدو على احمد وعبد الله وفى هذه الحال أسائل نفسى ماذا عسى يكون تصرفى وأنا المصرى الا أن أثأر لنفسى من قاتلى مواطنىّ مهما كلفنى ذلك من النتائج الخطرة. ولكنى حمدت الله على ان البنادق كانت مربوطة الى ظهور الإبل وانى كنت على مقربة من المتشاحنين .

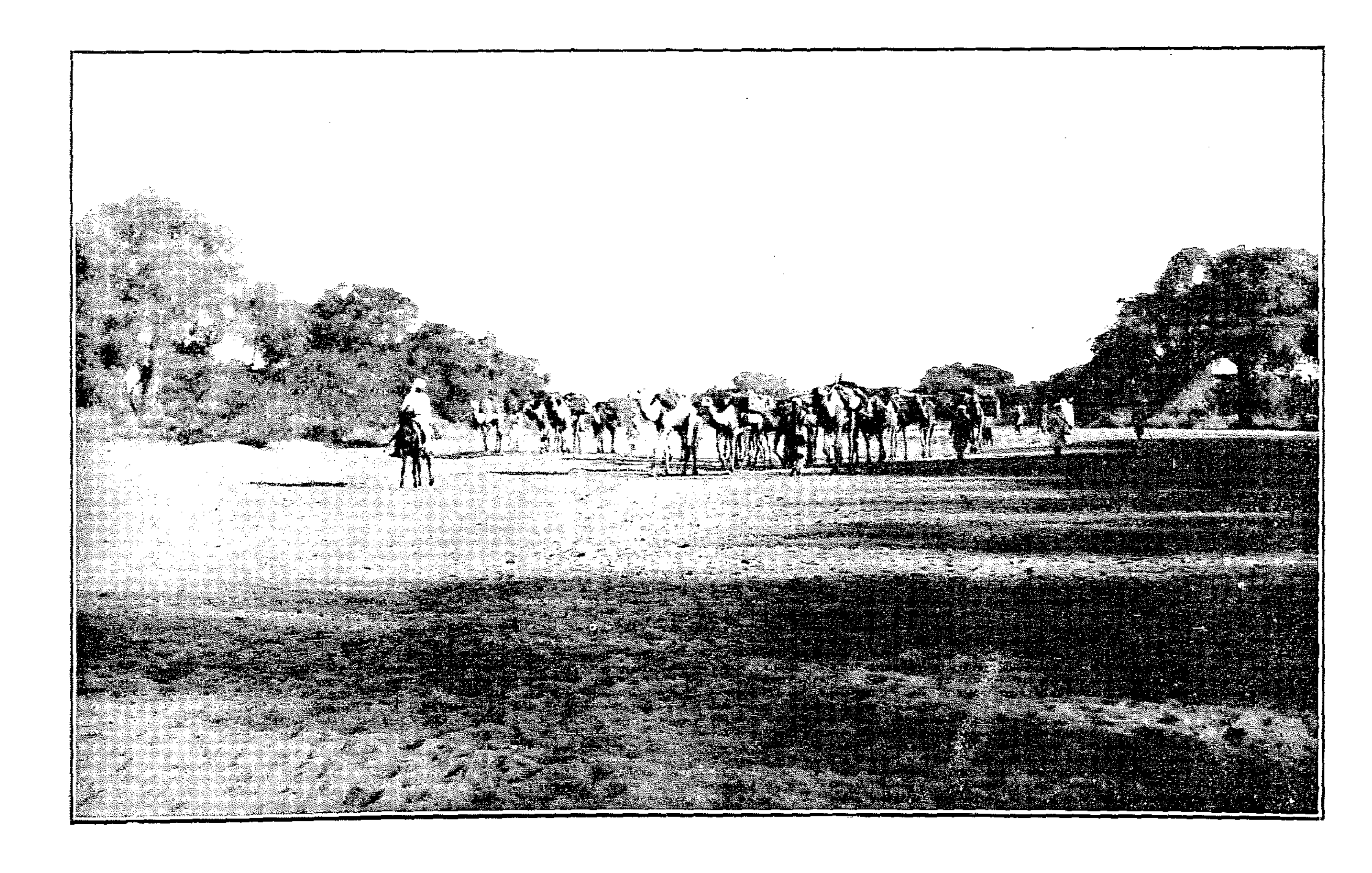
ولم يفت السيد الزروالى أن يهوّن الأمر علىّ فقال « انا نقترب من نهاية الرحلة والرجال عادة فى هذا الموقف ميالون الى الشجار » ولم تكد تنتهى هذه الحادثة الخطرة حتى اشتدت حرارة الشمس فحططنا الرحال فى الوادى فى ظل بعض الاشجار اليانعة . ورعت الجمال بينما كنا نأكل ونستريح . وجاءنى بعد الظهر قبل البدء فى السير محمد والسنوسى أبو حسن وبوكاره وحامد الجمال يسألوننى أن أسامح حامدا على مهاجمته احمد مدفوعا بغضبه . وسامحت حامدا على الفور فتقدم الى احمد وقبل رأسه وجاو به احمد بالمثل فانتهت تلك المشاجرة كما تنتهى مشاجرات البدو على أصفى ما يكون .

وانحدرنا الى الوادى الكبير فى ثلاث ساعات ثم ضربنا الخيام عند مدخله فى الساعة السابعة وربع ورأينا قدامنا قبل حط الرحال جبال « اجاه » البعيدة حيث توجد البئر التاليــة . وكانت الارض أمامنا منبسطة فبعثت الراحة فى نفوسنا فقد خيل لنا فى

الصباح عند انحدارنا الى الوادى ان حوائجنا لا بد محطمة اذا كثرت تلك المنحدرات السحيقة . وكانت المنحدرات فى بعض الاماكن من الوعورة بحيث اضطررنا الى رفع الاثقال عن ظهور الإبل خوفا عليها من التحطيم . وكان على الرجال أن ينزلوا بالحوائج فوق الصخور المنحدرة التى يرتفع بعضها عن بعض فى كثير من المواضع نحو ثلاثة أقدام .

وطلع الهلال ونحن ننصب الخيام وكان عيد الفطر فى الغد . وجاءنى السيد الزروالى يبلغنى رغبة الرجال فى الاحتفال بالعيد جريا على العوائد الاسلامية فرضيت كل الرضا لان جبال «أجاه» كانت على مرأى منا وكان زادنا من الماء كافيا . وكانت مراعى الوادى كثيرة الحشائش المغذية للجمال .

وصحونا مبكرين فى اليوم التالى وكان يوم الجمعة ١٨ مايو فلبسنا الثياب النظيفة احتفالا بالعيد وتبادلنا التهانى ثم أدينا صلاة العيد وكان فى نظرات رجالى ما ينم عن التفكير فى الاهل والاخوان البعيدين فى نائى الاوطان وأخرجت قطعا من الريالات المجيدية وأوراق مالية مصرية فوزعتها على الرجال وكانت النقود من نصيب محمد وهرى وحسن وارامى لانهم كانوا سيتركوننا قبل أن نصل أرضا يتعامل فيها الناس بالاوراق المالية المصرية . وأخذ بقية الرجال



الرحالة وقافلته داخل الحدود السودانية قاصدين الفاشر

الاوراق المالية فنى استطاعتهم صرفها فى الفاشر . وأعطيت الزروالى عشرين طلقة من طلقات المسدس وقنينة روائح عطرية ووزعت زجاجة أخرى على الرجال . وأعطيت بوكاره غليونا وطباقا فأظهر لى عجزه عن ايفائى الشكر على ما تفضلت به عليه وقال « ليس لى الا جملى والملابس التى ارتديها وقد أعطانى البك قيمة جملى طباقا »

وكانت القافلة مرحة فى الصباح وكان الرجال مسرورين من هداياى فسرنى رضاهم . وغفونا بعد الفطور ولكنا استيقظنا بسرعة نظرا لفتك النمل الابيض بأجسامنا و بدأنا السير فى الساعة السادسة الا ربعا وخرجنا من الوادى الى السريرة بعد ذلك بنصف ساعة . وكان يمتد أمامنا سلسلة تلال تجرى شرقا وغربا وكان فى وسطها جبل « اسلنجاه » وعن يمينها جبل « أجاه » الذى كنا نقصده . وأخبرنا هرى بوجود بئر صعبة المرتقى في جبل « اسلنجاه » . وكان الوادى الذي نصبنا فيه الخيام مميزا بوجود اشجار على الجانب الايمن من مدخله . وكان يوما شديد الحر فسرنا مبطئين مدة ست ساعات ثم وصلنا منطقة من اكوام الرمل اوقفت سيرنا في الايل .

السبت فى ١٩ مايو :

قمنا الساعة الخامسة وربع صباحا وحططنا الرحال فى الساعة الثامنة مساء وهبت من التلال المجاورة ريح ساخنة من الشمال

الشرق قرت عند المساء . وكان سيرنا فوق أرض ناعمة الرمل كثيرة التموج مغطاة بالحشائش الجافة . وانبسطت الارض اكثر من ذى قبل عند اقترابنا من التلال وكثرت فيها اكداس الحجارة السوداء الصغيرة . واشتدت حرارة الشمس بسرعة فى الصباح وهبت ريح ساخنة فضربنا الخيام فى منتصف الساعة العاشرة فى ظل شجرة (طمطم) فحمتنا فتك الهجير . وأنست أنظارنا الى عناقيد ثمرها الاحمر . وسرنا ثانية فى منتصف الساعة الرابعة بالرغم من اشتداد الحر آملين أن نصل جبال « أجاه » قبل انتشار الظلام . واضطررنا الى ضرب الجمال لانزالها على الخروج من ظل الشجر والسير بها فى الهجير . ولم يحن منتصف الساعة الثامنة حتى كنا عند سفح التلال والهلال يبدو حاجبه .

وأرسل محمد بغتة صوته منذرا ومحذرا لانه رأى آثارا حديثة لرجلين يسيران صوب (مردى) وكان له الحق فى ذلك لان وجود غريب عن القافلة فى الصحراء أمر يستلزم اليقظة حتى يتبين الامان منه . وسرعان ما انتزعت البنادق من أماكنها ووضع الرصاص فيها . وجمع الرجال ما تفرق من الجمال التى ترعى وتقدم محمد وهرى والسنوسى أبو حسن الى الوادى يتفحصون الامر . وبعد البحث الدقيق عادوا فأخبرونا أنهم لم يجدوا أثرا لداخل الى

الوادى وانما وجدوا أثارا حديثة لخارج منه فضربنا الخيام عند مدخل الوادى فى نجوة من الاشجار والنباتات حتى لا تفوتنا رؤية من يقترب منا فى الليل .

وتعشينا مسرعين ثم أطفأنا النار ووضعت الجمال والقرب فى وسط مضرب الخيام وصفت الحوائج حوله . ووقف أربعة من حراس الليل ثم انقلبنا الى فراشنا . وتعذر علينا النوم لشدة الحر وانشغال البال .

وصحونا مبكرين فى صباح الأحد وتقدمنا الى الوادى محترسين فعثرنا بآثار حديثة لرجال وقطعان ووضح لنا نزول أحد قبلنا فى الوادى . وسبقنا محمد وهرى لان سكان تلك النواحى كانوا من الجرعان فقابلتهم ثم تبادلنا عبارات الأمان . وتقدم كل منا الى الآخر بعد أن القينا على الأرض ما كنا نحمله من سيوف و بنادق وخاطبتهم بهذه الجملة التى يوثق بقائلها « أقسم بالله انا مسالمون وانا لا نريد بكم ضرّا وانا لا نقصد سبى نسائكم وأولادكم » وأجابنى أحدهم بمثل ما قلت . ثم أخذنا فى تبادل الاسئلة والاجوبة القصيرة من مثل « من أنتم » « من أين قدمتم » « أين تذهبون وأى غرض تقصدون » ثم شددنا على الأيدى وحمل كل منا سلاحه وارتد الى موضعه . وحاولنا أن نشترى منهم غنما فأبوا أن يبيعونا شيئا .

وتركونا بعد قليل ثم عادوا بثلاث نعاج وقدموها لنا بمثـابة ضيافة وامتنعوا عن قبول أثمانها فأعطيتهم « عتقية » من القماش الأزرق ففرحوا به كثيرا .

وأرسلت الجمال لتشرب من البئر وتحمل الماء للقافلة بينما كان الرجال يستعدون لتجهيز الوليمة العظيمة . واشتغلت بعد الظهر باخذ بعض الصور وقمت فى المساء بعمل بعض الملاحظات بآلة التيودوليت .

وقد فزع أطفال الجرعان من رؤية مصباحى الكهربائى الذى استعمله فى قراءة التيودوليت ثم شاقهم بعد ذلك .

ووادى « أجاه » بديع المناظر . وهو طريق طويل ضيق بين الصخور العالية يحوى من الاشجار والنباتات اكثر مما رأينا فيـه من بعيد وقرب منتصفه يتفرع الى طريقين يؤدى أحدهما الى البئر والآخر الى الصحراء الممتدة

وبئر « أجاه » مشابهة لبئر اردى ولـكن ماءها مضطرب من فعل الغنم والجمال . والطيور كثيرة فى هذا الوادى تذكر أغانيهـا الشجية بمختلف الاصوات الجميـلة التى تنبعث من أقفاص الطيور فى حدائق الحيوانات .

وصحونا والظلام شامل والنجوم ساطعة فى سماء صافية وجاءنا الجرعان يودعوننا . وأبى أرامى وحسن أن يستمرا فى السـير معنا



صبية من قبيلة البديات واختها

الى الجنوب أكثر من ذلك وتركانا يقصدان العوينات على جمل
ارامى وانحدرنا الى مستدق الوادى تحمينا جوانبه حرارة الشمس .
وأبصرنا ثلاثة غزلان فى طريقنا فانطلق الرجال لصيدها ولكنها
قفزت فوق التلال هاربة . وصوب حامد الزوّى بندقيته الى احداها
فاخطأها وسخر منه أصحابه شامتين ولكنه أبى أن يقر بخيبته
فاقسم بعظمة قائلا « والله لقد أصبتها ورأيت الدم يسيل منها »
ولم اهتم بالأمر كثيرا لوجود فضل من اللحم الذى أهداه الينا الجرعان

واشتد الحر بعد ذلك فضايقنا وأبت الجمال أن تسير ولم يمر
على سقيها وقت طويل . فحططنا الرحال فى ظل شجرة ولم يغننا ظلها
فرأينا الأفضل أن نستظل بشقوق الصخور . وانطلقت الإبل ترعى
وأخذ الرجال فى إعداد الغداء وذبحت النعاج وانتُظم لحمها فى عصى
ثم أذير ببطء فوق النار كعادة البدو فى شىّ اللحوم وكان طعمه لذيذا
وبينما كان الرجال يعدون الطعام جرح سعد يده ورأيت الدم
فسألته من أين أصابه ذلك فأجابنى بوكارة « من رشاش دم الغزالة التى
أصابها حامد » وضحك الرجال ملء أفواههم مرة أخرى

وملأت ساعاتى بعد الغداء واثبت ماقيد البارومتر والترمومترات
ذات الدرجة القصوى والنهاية الصغرى وكتبت يومياتى . وجاءنى
حامد الجمال يعدو ليخبرنى بوجود قطيع من النعام على مقربة منا .

فقبض كل بندقيته وقام مستعدا للصيد . وبعد ذلك بقليل ظهر قطيع من النعام يبلغ الاربعين عدّا وتهيجت الرجال فلم يتمالكوا الانتظار حتى يقرب القطيع واطلقت النار على مسافة بعيـدة فاندفع النعام فى واد آخر وتعقبهـا الرجال مسرعين وأرسلت طلقات عديدة ولكن الزروالى عاد وشيكا واخبرنى ان الرجال لم تصد شيئا .

وبعد قليل جاء حامد يحمل نعامة صغيرة وتبعه السنوسى ابو حسن وادعى كل منهما انه صـاد النعامة وسـألانى حكمى لوجـود جرحين فى جسمها يحتمل ان يكون كل منهما قاتلا . وسألت رأى من حضر الصيد من الرجال فاتفقوا جميعا ان صائد النعامة حامد فحكمت فى مصلحته .

وقام حامد الجمّال بعد ذلك بعمل طريف شديد الغرابة . وحامد هذا ضئيل الجسم حاد التقاطيع لا يخاف الحيوانات ولا يخشى الثعابين حدث له ان عثر بنعامة فى ناحية مسدودة من الوادى فقذفها بالحجارة حتى اذا لم ينل منها شيئا هجم عليها ولف يده حول عنقها وصارعها صراع الابطال ولكنها رفستـه برجلها القوية رفسة شـديدة فى جنبـه وانطلقت تعدو . وقد رأيت هذه المجالدة بمنظارى فكدت استلقى على ظهرى ضحكا . وتسلقت النعـامة مرتفعا من الارض ثم أدارت بصرها بازدراء الى حامد الذى كان واقفا يلعنها وبعد ذلك أصلحت

ريشها وانطلقت نخورة بانتصارها وهي فرحة بنجاتها تاركة حامدا ضاغطا بيده على جنبه المرضوض .

وعاد حامد فسألته « هل آذتك النعامة » فاجابني وقد رفع يده عن جنبه بسرعة « لا » . وسألته ثانية « ولماذا لم تأت بها » . فقال معتذرا : « رأيت من واجبي أن أطلقها لانها كانت أنثى » .

وكان مما أسفت له في هذه المرحلة انى لم اتمكن من متابعة الصيد كما كنت أود فان السير ليلا بين العوينات واردى لم يبق لي في الصباح من النشاط الا بقدر ما مكنني من تقييد ملاحظاتي العلمية وانتهاز الفرص للاغفاء ساعتين أو ثلاث قبل إشتداد الحر .

وبدأ زادنا في النقصان فلم يسمنى أن أقيم في « أجاه » حيث تكثر الغزلان والنعام والنعاج البرية . وزادني رغبة في الرحيل قلة الماء بعد أن رأيت كدورة ماء البئر من أثر الحيوانات ولم يكن معي الا بندقية مصرية عتيقة من طراز « مارتيني » وأخرى من بنادق الفرسان الايطاليه اهديت الى في الكفرة وهاتان وان كانتا صالحتين في الدفاع عن النفس الا انهما كانتا قليلتي الفائدة في الصيد على المرمى البعيد ولذلك حرمت نفسي لذة الصيد .

وكان الجو شديد الحر فلم نبدأ السير الا الساعة الخامسة مساء فسرنا في الوادى الجميل مدة ساعة ثم اخذنا نتسلق التلال حتى

اذا وصلنا قمها رأينا منظرا بديعا امتزجت فيه ظلال الاشجار والادغال بلون الرمال الوردى وحمرة صخور التلال التى تكتنف الوادى .

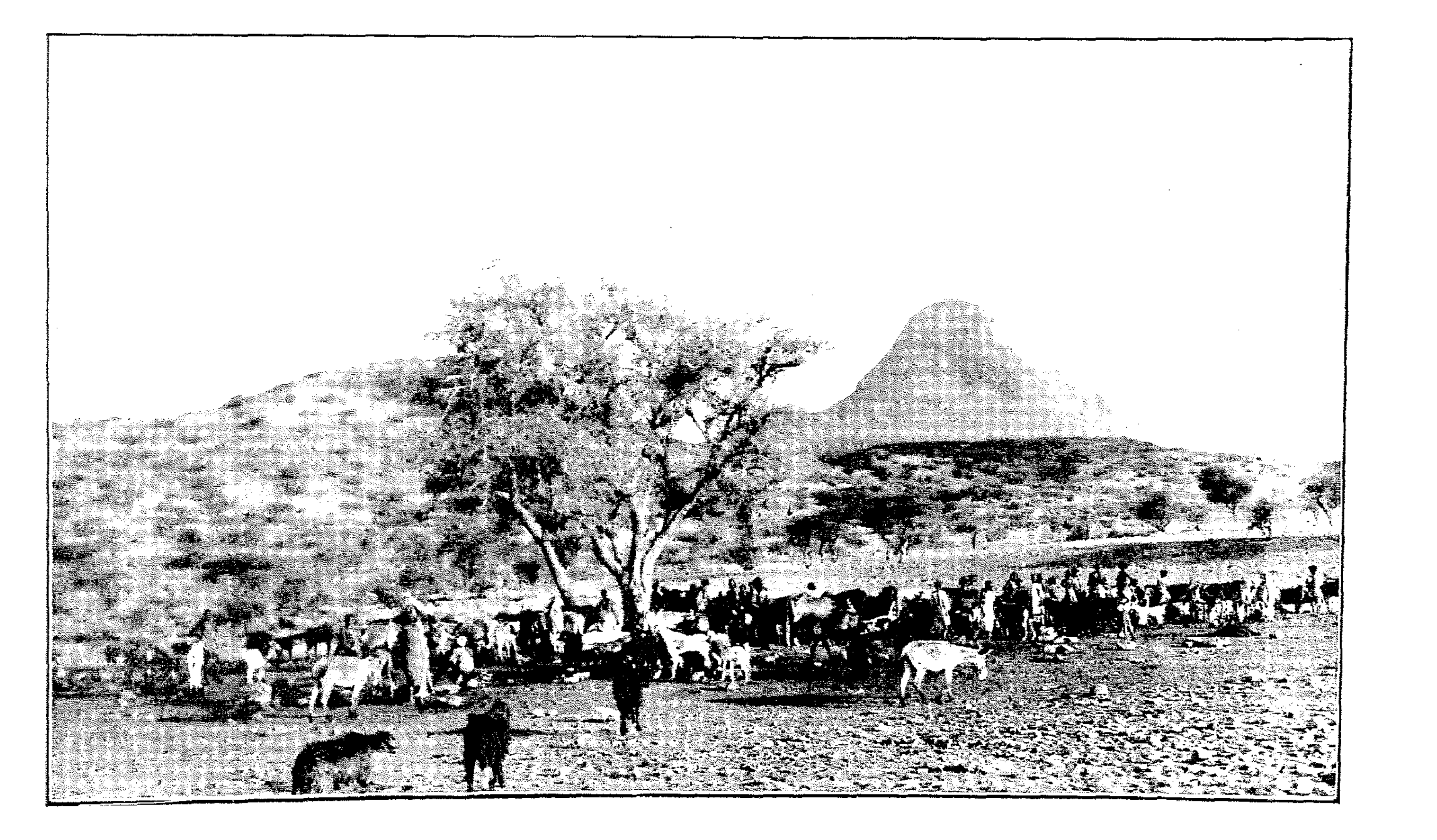
وكان نسيم المساء البليل يحمل على اجنحته انغاما عذابا تنبعث من اسراب اليمام . وزاد هذا المنظر بهاء وانطباعا فى الذاكرة غروب بديع امتزجت فيه الحمرة بلون الذهب فوقفت جوادى وترجلت ثم انطرحت على قطعة من الرمل الناعم وقضيت نصف ساعة اشرب جمال ذلك المنظر الفردوسى .

وشمل الكون الظلام وطلع الهلال وسمعت على البعد بدو القافلة يتغنون فعدت الى نفسى وقمت الحق بالقافلة وفى نفسى الميل الى البقاء .

واختلفت مناظر الارض فاصبحت متموجة كثيرة الشقوق يحيط بها جبال شعثاء بعيدة

وكانت الرجال والجمال تشكو اثر ماء « اجاه » المكدر . وحططنا الرحال مبكرين لهذا السبب ولخطورة المسير فى نور الهلال الضئيل . ونزلنا واديا ناعم الرمل يبعد عن سبيلنا زهاء مايتى متر وضربنا الخيام .

وصحونا ولم تزل النجوم ساطعة فى السماء يوم الثلاثاء ٢٣ مايو



بئر قرب الفاشر

فبدأنا السير بينا يوشح جانب الأفق عن يسارنا شروق بهى الالوان . وكان سيرنا بطيئا لان الارض كانت مغطاة بالعوسج ونثار الحجارة ولأن محمدا وهريا لم يطآ هذه النواحى عشر سنين فكانا شديدى الاحتراس فى سيرهما . وبينا نسير التفت الى حامد الجمال وأنا أمشى فى مؤخرة القافلة كعادتى للتحقق من اتجاه المسير وتدوين مذكراتى ثم سألته « أظن أن محمدا الدليل على ظهر جمله والا ما سرنا بهذا البطء » فأجابنى ذلك الذكى بسرعة قائلا « ان الشيخ سائر على قدميه يا سيدى البك فانى أرى أثره فوق الارض »

وأدهشتنى ملاحظة البدو الدقيقة وأخصهم الجمالون فان حامدا ميز آثار أقدام رجال القافلة ولا عجب اذا تعرف مواطىء جمالها كذلك .

وصحونا فى بكرة يوم الاربعاء و بنا شوق شديد الى وصول بئر «عنيباه» فان ماء «أجاه» كان أردأ ماء شربناه فى هذه الرحلة وقد بان تأثيره السيء فى الرجال والجمال . ولم تمض بنا ثلاث ساعات حتى كنا على حافة الوادى التى تقع فيه البئر ونزلناه فاستدللنا على وجود سكان فيه من آثار الناس والغنم والحمير . وتقدمنا محمد لمقابلة سا كنيه وتبادل عبارات الأمان معهم ثم حططنا الرحال على مقربة من البئر وكان ماؤها عذبا نعمت به الرجال والدواب وذاقوا لذة التغيير .

وكان فى الوادى مضرب خيام كبير لرجال « البديات » يحوى مئات الغنم وبعض جياد أشياخهم .

ولم يمض على إقامتنا قليل حتى جاءنا سكان الوادى يحيوننا وعلى رأسهم الشيوخ وشددت على أيديهم جميعا ثم قطرت الروائح الزكية فى راحة كل منهم وأرسلوا الينا بعد الظهر بعض الغنم ضيافة منهم وعرض علينا نساؤهم وكلهن محبات للمتاجرة سمنا وجلودا نشتريها فاستبدلناها بها نقودا من المجيدى وقماشا

وقمت بعمل بعض الملاحظات فى المساء

وفزع رجال « البديات » من رؤية التيودوليت والمصباح الكهربائى وثارت ظنونهم . ودخل أحد الاشياخ على فى خيمتى ففاجأنى وأنا أفتح صندوق أجهزتى العلمية فاقفلت الصندوق مسرعا ورأيت بعد قليل انى لم أكن مصيبا فى ذلك فقد لاحظت فى وجهه المغبّر الجاف وعينيه المصفرتين المتقاربتين كعينى الثعلب انه اعتقد بوجود ذهب فى صندوقى .

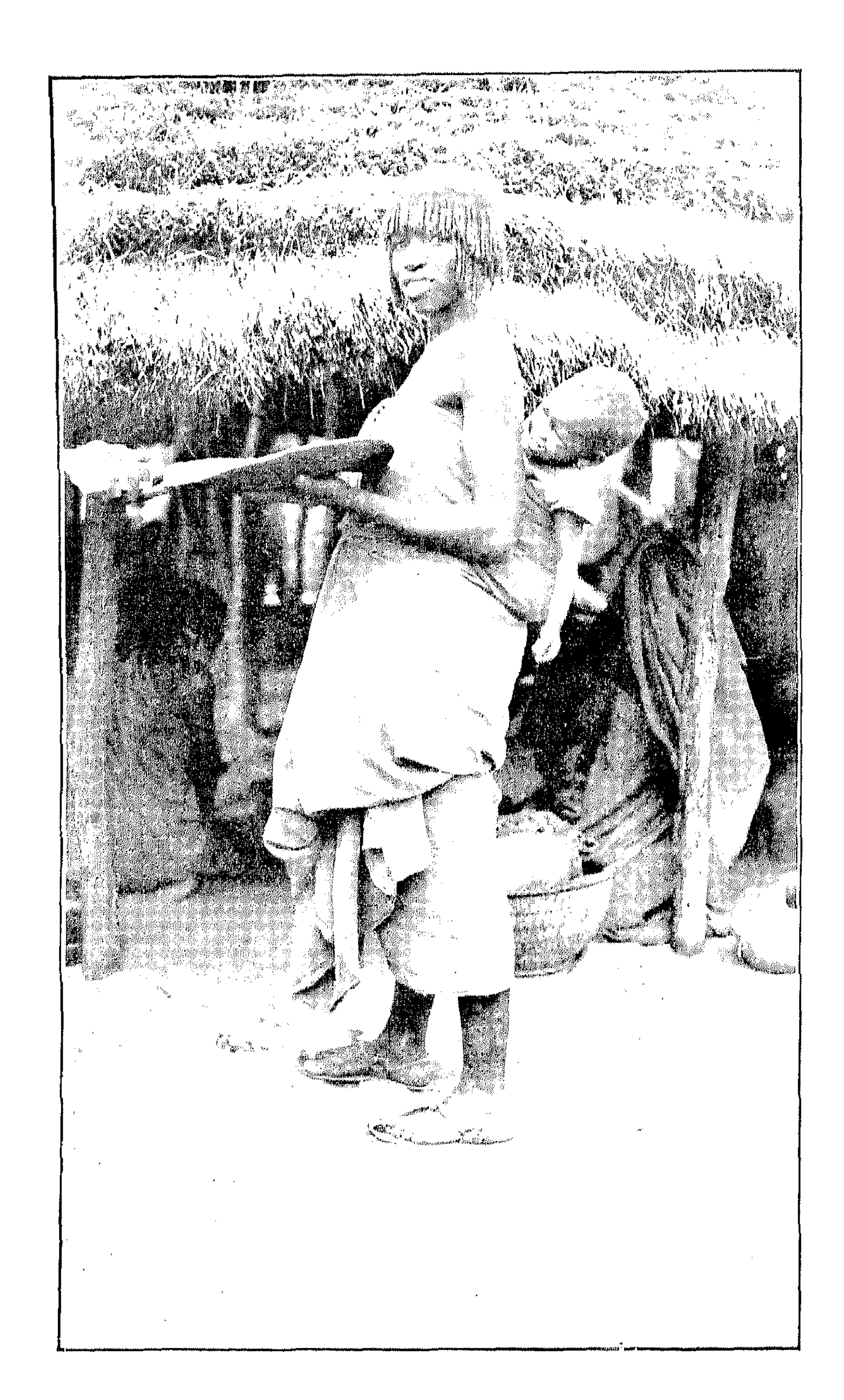
وبينما كان يترك خيمتى أمرت السنوسى ابا حسن وحامدا على مسمع منه ان يستعدا لحراسة الخيام وأشرت اليهما وقلت للشيخ أن

ينبه على النساء والأطفال بعدم الاقتراب من الخيام فى الليل تفاديا من أن ينكرهم الرجال فيطلقون النار عليهم . وكان عملى هذا إشارة الى انّا يقظون وان لا أمل فى انتهاز غفلة منا ولم تضع هذه الاشارة عبثا .

الفصل التاسع عشر

الى فراو على قلة الزاد

كان وادى « عنيباه » مغطى بالرمل الناعم مرقّطا بالاشجار والعواسج بين ناضر وجاف وكنت قد نمت نوما هادئا وصحوت على أصوات نساء «البديات» يطلبن من رجال القافلة علبا خالية واستبدلونا بما اخذوا لبنا وشجيرات جافة يسمونها طباقا . واهديت الينا خمس نعاج بصفة ضيافة ووزعنا بعض الهدايا . وبدأنا السير فى الساعة الثالثة وربع فى ريح باردة تهب من الجنوب الشرقى ولكن هذه الريح قرت واشتد الحر فبطؤ السير وكان المساء أشد برودة فاستعضنا ما ضاع من الوقت وكان الليل قارسا . وصحونا يوم الجمعة ٢٥ مايو الساعة الرابعة وسرنا بعد ذلك بساعة وربع . وكانت الارض كثيرة التموج والشقوق ولم يكن هرى واثقا من السبيل فسرنا فى بطء لوعورة الطريق وحيرة الدليل فى تعرّفها . وبعد الساعة التاسعة نزلنا واديا وضربنا الخيام بعد ذلك بسرعة . وكان السنوسى أبو حسن يمشى الى جانبي فاعرب لى عن رأيه فى الدليل الجرعانى



امرأة من قبيلة فور

وبدا فى كلامه زهو العرب بانفسهم فقال « ان هؤلاء الجرعان يترنحون فى سيرهم كالجمال أما البدو فيطيرون الى اغراضهم كالطيور »

وكانت الشمس شديدة الحرارة عند استئنافنا المسير بعد الظهر فسارت الجمال ببطء وكان غناء الرجال متقطعا وأكبر ظنى ان سير القافلة كان بطيئا لان هرى كان أشد حيرة عن ذى قبل . وقد تعقبنا أثر قطيع من الغنم تقدمنا الى (باو) ولكن ذلك الاثر كان ينقطع بنا فى جهات متعددة لوجود الصخور المهشمة فى الطريق .

وبعد الساعة الخامسة بقليل نزلنا واديا كبيرا عرفنا بعد ذلك ان اسمه (كونى مينا) وكان ذلك الوادى يمتد شرقا وغربا وهو ملآن بالاشجار البديعة . وقبل أن نصل اليه بقليل قابلنا أحد الجرعان ومعه بعض الغنم فتقدم الىّ وقد ألقى سيفه وحرابه على الارض وخلع نعليه فتبادلنا الشد على الايدى والتحيات ولم تزد عن الجملتين « كيف حالك » و « طيبين » وهما كل ما يعرفه من اللغة العربية

وحادثه بعد ذلك محمد وهرى فعرفا منه أن بعض الجرعان ضاربون الخيام فى الوادى الذى أمامنا .

ولقينا فى نفس الوقت تاجر غنم حضر من (فدا) بوادى بغنمه وبقره فى طريقه الى الفاشر . وتركنا محمدا وهريا وتقدمنا الى

أكواخ القش التى يتكون منها مضرب خيام الجرعان . وقطعنا الوادى ثم حططنا الرحال فى طرفه الاقصى

وجرى خلفنا أحد الجرعان ثم سألنا أن نعود الى خيامهم فنمضى الليلة ونسير فى الغد فقدرت عاطفة كرمه ولكنى رأيت انا عاجزون عن تعقب آثارنا القهقرى ولو لمسافة كيلومترين أو ثلاث كيلو مترات فشكرته على دعوته وأخبرته انا متعجلون .

وحططنا الرحال ننتظر رجوع الدليلين وبعد ساعة عاد محمد يحمل أخبارا كثيرة عن (فدا) والفاشر استقاها من ذلك التاجر وشغلنا تلك الليلة بفحص أمتعتنا واصلاح ما فسد منها وكانت الحبال قد أخذت تبلى ورثت اكياس البدو الصوفية . وأضعنا وقتا طويلا فى الطريق فى إعادة التحميل ونقل الحوائج من مكان الى آخر ولكنا كنا نتعزى بأمل الوصول الى الفاشر بعد أسبوعين ورأيت فى صباح ٢٠ مايو أبدع مشارق الشمس التى شاهدتها فى حياتى فان انعكاس ضوء الشمس الساطع على الصخور المجاورة بين حمراء وسوداء وعلى التلال البعيدة جعل كل شىء واضحا جليا . ثم احمرت صبغة الشروق وتسللت أشعة الشمس النهبية بين ثنايا السحب الرقيقة وغمرت كل شىء . وكان انعكاس الظلال المستطيلة للصخور والعواسج المتناثرة فوق الارض يوشع صفحة الرمال

الصفراء . وكانت ظلال القافلة الوانية فى سيرها ترسم على أديم الصحراء أشكالا غريبة . ولكن هذه المناظر البديعة تبعها ضحى ساكن النسيم راكده .

ولحقنا هرى قبل حلول الظهر ومعه شاة مذبوحة تدلت أطرافها على جمله وكانت ضيافة الجرعان الذين مررنا بهم . وتتبعنا آثار الغنم والجمال وانحدرنا من واد الى واد ثم ضربنا الخيام فى واد كبير تكثر فيه الاشجار الظليلة . وكان يحيرنا على الدوام التفضيل بين الاقامة فى ظل شجرة تتعرض تحتها لفتك النمل الأبيض وسائر الحشرات و بين ضرب الخيام تحت الشمس المحرقة ولكنى صممت أن أوثر العراء في مقبل أيامى لان الحشرات لا تبرح المقيم فى ظل الاشجار حتى تقرحرارة الشمس حوالى الساعة الخامسة أو الساعة السادسة بعد الظهر . وكان الوادى الذى نزلناه يسمى وادى (كاب تركو)

واستأنفنا السير فى الساعة الرابعة وكان يهب علينا نسيم بليل من الجنوب الشرقي يخفف عنا وعثاء المسير . وكان فى السماء سحاب قليل يكسر من حدة حرارة الشمس فسارت الجمال سيرا حثيثا . ومررنا قبل الغروب بأسرة من الجرعان مكونة من رجل وامرأة وولد عارى الجسد . ووجدنا بعد ذلك بئرا يبلغ عمقها سبعة أمتار

وتحوى ماء سائغا وان غيرت طعمه جذور شجرة قريبة نفذت الى قرار البئر .

وحططنا الرحال الساعة الثامنة فى أرض عراء خالية من العواسج والحجارة . وسطا علينا فى الواحدة بعد منتصف الليل ضبع ولولا يقظة حامد الجمال لاغتال جوادى (بركه) لانه كان مربوطا الى وتد لا يمكنه الدفاع عن نفسه . وقد أطلق حامد النار من بعيد على هذا الضبع فاخطأه ورأيت بمنظارى شبحا قاتم اللون يجرى بعيدا فى ضوء القمر الساطع .

الأحد ٢٧ مايو :

قمنا الساعة الخامسة وربعا صباحا ووقفنا الساعة التاسعة وربعا صباحا ثم استأنفنا السير الساعة الرابعة الا ربعا وحططنا الرحال الساعة الثامنة الا ربعا مساء فقطعنا ٣٠ كيلومترا . أعلى درجة للحرارة ٣٨ وأقلها ٧ درجات . وكان الجو صحوا هادئا فى الصباح وثارت عند الظهر ريح ساخنة من الجنوب الشرقى وقرت بعد الظهر وكان فى السماء سحاب صبير . وكان المساء دافئا هادئا وفى الساعة العاشرة تراكمت السحب وأمطرت السماء رذاذا ومررنا بأودية ناعمة الرمل تكثر فيها تلال الخراسان التى يتراوح ارتفاعها بين ٢٠ مترا و٨٠ مترا وكانت الأرض الرملية كثيرة الحجارة المتناثرة من الخراسان .

سوق بقرية أم برو

ولم يكن هرى الدليل عند حسن ظننا به فقد تنبأ لنا بالوصول الى (باو) فى الصباح ولكن الليل أرخى سدوله ولم نكن وصلناها بعد . وكان يعرف المواضع اذا رآها ولكنه كان يخطىء فى معرفة الجهات الاصلية . ونفد منا الماء الا قربة واحدة وكان ماؤها ساخنا جدا . وظللنا نسير حتى الساعة الثامنة الا ربعا فهبطنا أرضا صخرية لا تسلم فيها الجمال من الخطر حتى فى ضوء القمر الزاهى . ووصلنا شفا واد كبير قال هرى إنه وادى (باو) ولكنا لم نصدقه . وقد دلتنى التجاريب أن لا أفرط فى البقية الباقية من الماء الذى نحمله حتى نصل الى البئر التالية وأتحقق صلاحية مائها للشرب فأمرت بعدم مس القربة الأخيرة تلك الليلة ونمنا بغير عشاء لان الماء لازم للطهى

وكانت ليلة بديعة تعزيت فيها بملاحظة ضوء القمر يداعب قطع السحاب وانذرتنا قطرات قليلة من المطر باقتراب موسم الامطار فى تلك الاقاليم .

وصحونا مبكرين لان فراغ المعدة لا يدع للنوم الطويل سبيلا وحثثنا الجمال للسير بدرجة لم يسبق لنا استعمالها وما كان أشدها تعبا وأضعفها . وانما تظهر عيوب القافلة اذا كان رجالها وجمالها جياعا عطاشا .

وخفت صوت الغناء ذلك الصباح فلم يصدع شمل السكون

الا تمتمة الرجال تستحث الجمال للسير وكان الهبوط الى الوادى خطرا لشدة انحداره . وقذفت ثلاثة جمال بأثقالها فحملها الرجال الى الوادى ثم أعادوها الى أماكنها فوق ظهور الإبل

وأخيرا رأينا كوخا أو كوخين من القش وعددا قليلا من الأغنام . فوقفت وسمحت للرجال أن تشرب ماء القربة الأخيرة التى أطالوا طلب ما فيها ذلك الصباح . وتقدم محمد وهرى وقصدا الأكواخ وانحدرت القافلة الى الوادى قاصدة البئر . وجاء لزيارتنا بعد قليل بعض عبيد الجرعان والبديات فاطلقنا النار فى الهواء كأننا نحييهم ونحن نريد فى الحقيقة أن نظهر لهم استعدادنا لملاقاة الطوارىء . ولاحظت ان اتفاقا غريبا قضى أن يكون جميع من زارنا من الرجال والنساء طاعنين فى السن فانه لم يكن بينهم شاب أو فتاة ولم أدهش كثيرا لذلك ولكنى عجبت بعد ذلك بقليل لرؤية جماعات من العذارى الهيف الحسان بين سمراء وسوداء نصف عاريات فى ثيابهن المهلهلة ممشوقات القدود . وبينما يتقدمن الينا ثلاث ورباع التفت الى حامد وسألته من أين أولئك البنات فنظر بوكاره اليهن معجبا ثم قال « الله أكبر هذه بنات القرية لقد ظن القوم انا سننهب القرية ونسبى عذاراها فأبعدوهن يختبئن حين

رأوا القافلة مقبلة أما الآن وقد رأوا منا السلام فقد أمروا البنات أن يعدن »

ومرت العذارى بجوارى فكن يركعن لتحيتى خفرات كما جرت العادة عندهن فى تحية ذوى المقام الرفيع . وتقضى الآداب فى تلك الجهات اذا خاطب أحد العظماء أحدا أن لا يظل السامع واقفا بل يجلس على الأرض دليلا على احترام مخاطبه . وتتابعت البنات فجثت كل منهن على ركبتيها ورددتُ عليهن التحية بالجملة العربية المألوفة «عليكن السلام ورحمة الله وبركاته » وكانت كل منهن اذا قامت عن الارض تلفتت بحياء الى من كان معى من البدو المعجبين بهن

وضربنا الخيام فى نهاية الوادى على مقربة من البئر وجاءنا شيخهم بعد ساعة يحيينا فتناقشنا معه فى أمر الطريق الى الفاشر والاتجاه الذى يجب اتخاذه . وهنا غشى هرى التفكير والحزن لاقترابنا من بلاده اذ كنا قد قطعنا حدود وادأى الفرنسية . وكان هرى قد أبى الخضوع للفرنسيين وهرب منهم تاركا أملاكه وأقاربه وانفرد بالاقامة فى العوينات يعيش عيشة النفى المختار . وتغيرت معالم الارض فكثرت فيها أنواع الطيور وكان فيها الغراب والبوم والببغاء واليمام وغير ذلك من الطيور الأخرى التى لا أعرف أسماءها . وفتكت

لبؤة أثناء الليل بحمارين فقبض بعض سكان الناحية على شبل من أشبالها وسلخوه ثم أرسلوا جلده الى (فدا) يبيعونه . وفى (باو) عدد غير قليل من قبائل الجرعان والبديات . ونساء هذه القبائل هيف القدود بسيطات الملبس . ولباسهن إما شملة من القماش يلتحفن بها ويتمنطقن بشريط من القماش يحملن فيه سكينا صغيرة و إما يتدثرن بجلد الماعز حول الجزء الاسفل من أجسامهن . وشعورهن مضفورة جدائل صغيرة ويلبسن حليا من الفضة والعاج ويتحلين فى شعورهن باطواق سميكة منها ويتخذن عقودا من الخرز والكهرمان وصغار البنات لا يلبسن الا مئزرا من القماش أو الجلد . والرجال متينو البناء عارون الا مما يستر عوراتهم . ويحمل كل منهم حربتين أو ثلاثا وسيفا وسكينا . ولا يلبس العمائم الكبيرة والثياب البيضاء الا أشياخهم . وأعطينا النساء والاطفال مكرونه ولكنهم أبوا أن يأكلوها ونظموا قطعها فى خيوط ثم اتخذوا منها عقودا لبسوها معجبين . ولما رأى ذلك رجال قافلتى ظهر فيهم ميل البدو الغريزى الى المتاجرة فصنعوا عقودا عديدة من قطع المكرونة واستبدلوا بها سمنا وجلودا .

واضطر محمد وهرى ان يفارقانا فى هذه الناحية لانهما لم يجسرا على التوغل جنوبا أكثر من ذلك . ولقيت صعوبة فى العثور على دليل



غادة من قبيلة البديات

يقودنا الى (فوراويه) ولكنى وجدته أخيرا ٠ وأهديت الينا شاة فتعشينا فى ساعة مبكرة فى يوم الثلاثاء عازمين على أن نسرع بالسير فى الصباح ولم يحضر الدليل فبدأت أشعر ان البـديات يرتابون فى قافلتنا ٠ ثم حضر فى الساعة الحادية عشرة مساء فايقظت الرجال عند حضوره وأمرتهم أن يحمّلوا الجمال قبل أن تحين له فرصة فيغير رأيه ٠

الاربعاء ٣٠ مايو :

قمنا الساعة الواحدة صباحا ووقفنا فى منتصف الساعة التاسعة صباحا واستأنفنا السير الساعة الرابعة وربعا مساء وحططنا الرحال الساعة السابعة وربعا مساء فقطعنا ٤٠ كيلو مترا ٠ أعلى درجة للحرارة ٣٦ ٠ الجو صحو جميل وهبت ريح قوية من الجنوب الشرقى وتغير مهبها بعد الظهر فصار من الشمال الشرقى ٠ وقرت عند المساء ولم تتغير معالم الارض الا أنها كانت أكثر انبساطا ولم يكن فيها أودية كبيرة أو أشجار عظيمة ٠ وقطعنا فى السـاعة الثامنة وربع صباحا واديا صغيرا يمتد شرقا وغربا وسرنا الساعة الواحدة صباحا فى قمر ضاح خلق من الظلام نهارا وسار معنا محمد وهرى قصد أن يوهما أهل (باو) بمرافقتنا الى الفاشر وخوف ان يسطو عليهما أحد فى الطريق ٠

وبعد ساعة خرجنا من الوادى ووقفنا نودع الدليلين اللذين كان فى عزمهما أن يعودا الى العوينات بالاقتصار على السفر ليلا خشية العيون .

وكنت واقفا على مسافة من القافلة حين دنت ساعة التوديع فشعرت باتصال قلوبنا بعد الذى قاسيناه معا فى الطريق وكان محمد منسرح القامة منتصبها ذا عينين نافذتين . وكان فى هيئته ما يدل على خصلتى الاعتماد على النفس والرضا بالاقدار وهما شيئان يميزان سكان الصحراء

وكان هرى شيخا لطيف العشرة متواضعا ذا ابتسامة رقيقة وشمائل غراء . وكان في حركاته ما يدل على الوقار والجلال رغم قدمه اليسرى الموجعة التى كان يجرها جرًّا اذا مشى ولا أغالى ان قلت انه كان اميرا بفطرته .

ولم يكن افتراقنا ذلك الفراق الذى يحدث بين رفقاء السفر فحسب ولكنه كان يحوى معنى انتهاء الاستاذ من تدريب تلميذه على الشيء وتركه بعد ذلك يسترشد بآرائه فى سبل الحياة فقد نسينا جميعا انى كنت رئيس القافلة وانهما لم يكونا الا دليلين . والقى هرى يديه على كتفى ثم قال وفى صوته رنة تأثر شديد « اسأل الله ان يرعاك ويهبك القوة . هاك الطريق بارك الله فيك »

ثم أشار الى منفسح بين التلال البعيدة وتمتمت بضع كلمات بصوت لم أستطع أن أملك فيه رنة المتأثر ثم اثنيت عنه ولحقت بالقافلة . والتفت بعد ذلك فرأيت ذينك الرجلين الجليلين اللذين يبعثان الأسى بما قضى عليهما من النفى يذوبان فى ضوء القمر .

ووقفنا عند الفجر لاداء صلاة الصبح ثم حططنا الرحال فى منتصف الساعة التاسعة وكان فى تلك النواحى آثار أسود . واستأنفنا السير بعد الظهر بقليل ولكن الرجال كانوا متعبين لانهم لم يناموا طويلا فى الليلة الماضية فلم نسر الا ثلاث ساعات وقد هربت منا الشاة التى أهديت لنا فتبعها حامد وسعد فى ضوء القمر وهما يقلدان ثغاء الشاة ولكنهما لم يفلحا فى استجلابها .

الخميس ٣١ مايو :

قمنا الساعة الرابعة الاربعا صباحا ووقفنا الساعة الثامنة مساء فقطعنا ٣٦ كيلو مترا . أعلى درجة للحرارة ٣٧ وأقلها ٥ درجات ؛ وكان الجو صحوا جميلا هادئا وهبت ريح من الجنوب الشرقى بعد الظهر ثم غيرت اتجاهها فهبت من الشمال الشرقى وقرت عند المساء . وكان الليل ساكنا والبدر كاملا والسماء تحوى صبيرا .

وحدث لنا حادث ذلك اليوم فان الدليل أغفى فى الطريق وطاحت رأسه بعد سيرنا فى بكرة الجمعة أول يونيه فسار بنا جنوبا بدل أن

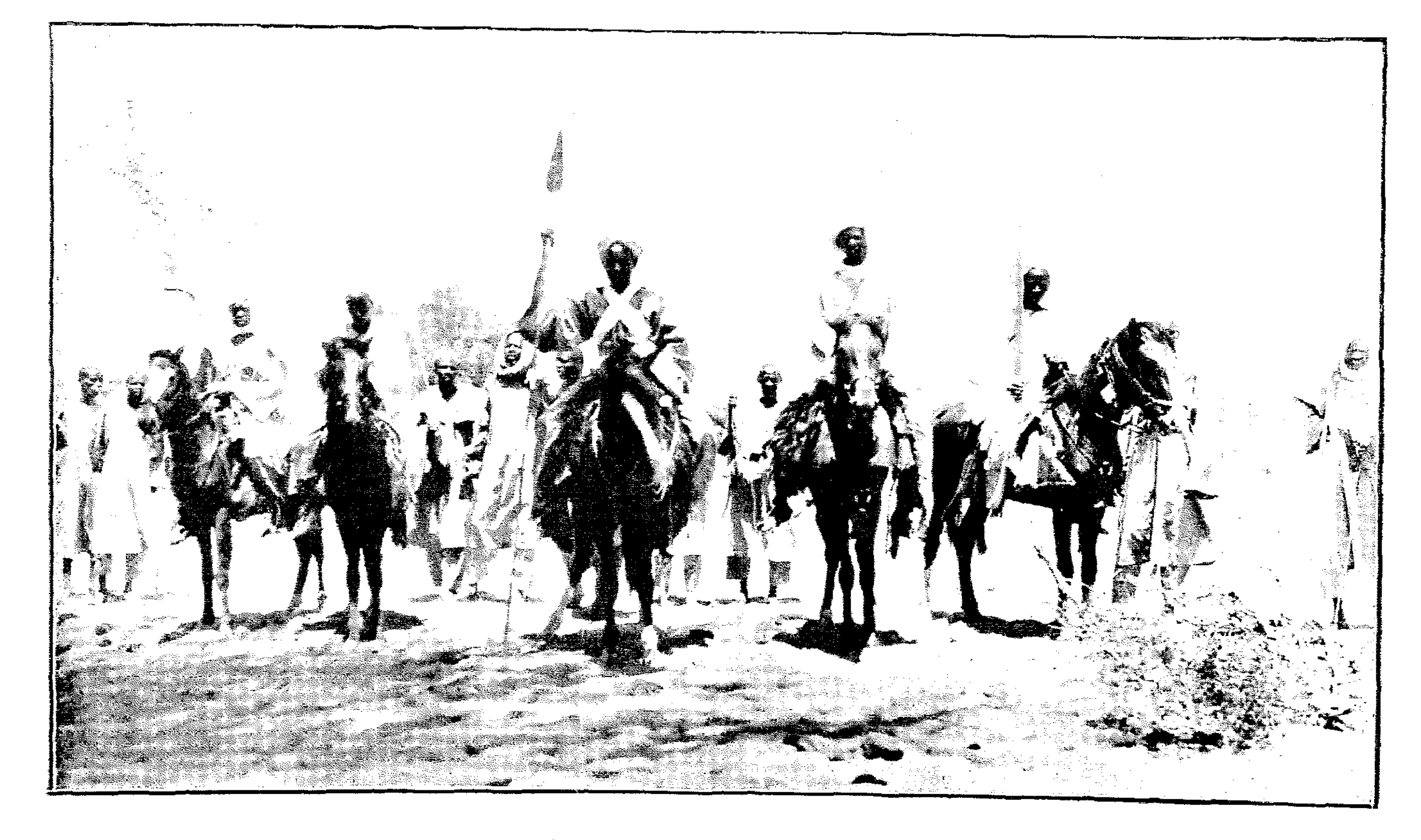
يسير الى الجنوب الشرقى . ولم أتدخل فى الأمر حتى وقفنا نؤدى صلاة الصبح فى الساعة الخامسة فسألته عما اذا كان مقصده الاول أن يسير صوب الجنوب فدهش كثيرا ولكنه أقر بخطئه بصراحة ولم نكن حدنا طويلا لحسن الحظ عن الطريق السوى .

ومررنا فى منتصف الساعة السابعة بتل يدعى (طميره) وكان عليه شجرة ذاوية تعيّن الحدّ بين واداى والسودان .

وانحدرنا عند ملتقى الحدود الى وادى (هَوَر) وهو واد فسيح كثير الاشجار يقال انه يمتد غربا الى واداى وشرقا الى السودان واسمه فى واداى وادى (حَوَش) . وأرض الوادى شديدة الخصوبة يقصد مراعيها فى الخريف أهل واداى ودارفور .

وحططنا الرحال عند الظهر فى ذلك الوادى ووجدنا آثار زراف . واخترقنا بعد الظهر مساحة كبيرة من الحشيش الطويل الجاف فكأنا نسير فى غيط من القمح الناضج . وازداد تهلهل ثياب الرجال ودب البلى فى أحذيتهم وزاد همنا ما لقينا من (الحسكنيت) وهو شوك صغير صلب أعقف ينمو فى شجيرة صغيرة ويعلق بكل ما يمسه فيصعب استخراجه منه .

وسمعت بوكاره يصف الزرافة والفيل لحامد فقال ان للزرافة رأس الجمل وحوافر البقرة وكفل الجواد ولكنه بالغ فى وصف



شيخ قبيلة زغاوة يستقبل الرحالة فى ام برو

الفيل حتى جعله أعجوبة فى مخيلة رجل الشمال .

وسرنا فى بكرة السبت ٢ يونيه حتى نتمكن من الوصول الى (فوراويه) ذلك اليوم ومررنا فى الساعة الخامسة صباحا بعلم «حجر كمرارا» على بعد عشرة كيلو مترات عن يميننا . وبعد ذلك بساعة مررنا بعلم آخر يدعى «حجر اردرو» وهو تل يبلغ ارتفاعه ٨٠ مترا وطوله ٢٠٠ مترا . وحجر لفظ سودانى معناه تل صغير . ثم بدأنا بعد ذلك ننحدر الى وادى (فوراويه) وكان أكبر الأودية التى مررنا بها وأعمرها بالسكان . وقطان هذا الوادى من الزغاوة والبديات .

وحططنا الرحال فى الساعة التاسعة بالقرب من خيام بعض أفراد البديات وسمعنا بعد قليل أخبارا غير سارة عن استحالة الحصول على مؤن فى فوراويه وكان ذلك عكس ما كنا ننتظره فاسرعت فى البحث عن رسول أحمله خطابا الى حاكم دارفور فى الفاشر أسأله فيه أن يرسل الينا أطعمة وقماشا لرجالى الذين كانوا فى ثياب مهلهلة . وزارنا شيخ من شيوخ الزغاوه القاطنين بالقرب منا . وانما رضى بالمجىء مدفوعا بحب الاستطلاع بعد تردد طويل سببه الخوف من رجالى . وكان خاضعا للحكومة السودانية فاستفدت من ذلك وعرضت عليه ثلاث جنيهات ان حمل خطابا منى الى

سافيل باشا حاكم دارفور.

وكان الأجر باهظا وزدت على ذلك ان هددته بشدة اذا تردد أو رفض وأمرته أن يسير فى فجر اليوم التالى فتمتم ببضع كلمات يشكو فيها عدم وجود دابة تحمله ثم مضى وعاد بعد قليل فاخبرنى أنه سيحمل خطابى الى الفاشر وانه سيسافر على ظهر جواد.

وسرنا هذا الخبر لان السكر كان قد فرغ منا منذ ثلاثة أسابيع فاضطررنا الى تحلية الشاى على قدر الاستطاعة بالبلح المطحون. ونفد منا الدقيق والأرز وسئمت نفوسنا ما كنا نأكله من المكرونة القليلة المسلوقة بالماء الردىء.

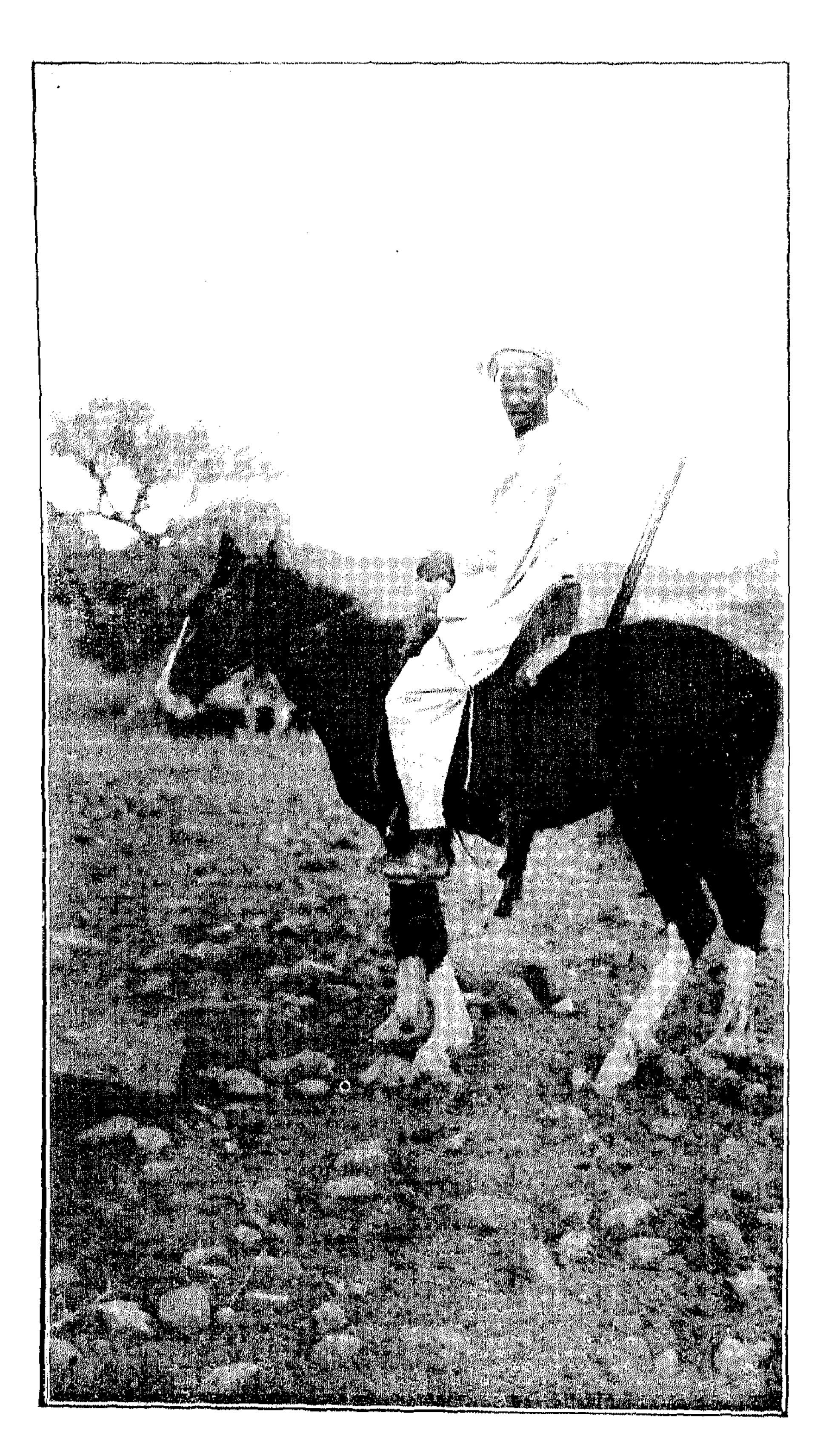
ونقلت خيامنا على مقربة من بعض آبار الوادى وحاولت أن أشترى شاة أدخل بها السرور على نفوس الرجال ولكن الظلام أخذ ينتشر فلم يقرب خيامنا أحد من سكان الوادى. وسقينا الجمال وتهيأنا لليل غير راضين كل الرضا عن الحياة. ودهشت فجأة لسماع الرجال يغنون طربين كأنهم تناولوا طعاما شهيا. فناديت السيد الزروالى وبوكاره وسألتهما عن سبب غناء الرجال والسكر معدوم والغذاء قليل والحالة لا تبعث على الرضى فأجابنى الزروالى « لقد هدأ بالنا الآن فقد دخلنا السودان وشعرنا آخر الأمر بالأمان.

والطمأنينة » . « فسألته أكنتم خائفين الى هذا الحد من الرحلة التى قمنا بها » فقال بوكاره «ان جميع أهلنا فى الكفرة كانوا يقولون انا سائرون الى حتفنا بسلوك هذه الطريق . وكانوا يقولون لنا المقدر لا بد واقع ولكن الله يلحظكم بعين رعايته . فداخلنا الشك فى السلامة وخفنا أن يكون مودعونا صادقين »

وقال الزروالى « لقد رأيت بنفسك كيف شجعك بعض رجال الكفرة على أخذ هذه الطريق وكيف نصحك بتركها الكثيرون واكبر ظنى أن مشجعيك أرادوا بك سوءا ورجوا أن لا يروك أبد الدهر » . وهكذا صارحنى السيد الزروالى وقد قربنا من نهاية الرحلة فاخبرنى أن بيوت (السدايده) و(المجلولات) من قبائل الزوى فى الهوارى والكفرة كرهوا زيارتى الثانية كراهية شديدة وعقدوا اجتماعا تناولوا فيه أنجع الوسائل للقضاء على القافلة أو منعها من العودة . وهنا وضحت لى مروءة الرجال الذين رضوا مصاحبتى فى تلك الطريق المخوفة المجهولة بدون تذمر أو ممانعة فداخلنى الزهو بهم جميعا .

وأيقظنى حامد فى الساعة الثانية صباحا وكان ديدبان الليلة . ثم أخبرنى ان الرسول وصل وأنه مستعد لحمل رسالتى الى الفاشر . وكان تحت وسادتى خطابان أحدهما لسافيل باشا والآخر الى حاكم (كتم) وهى

محطة فى طريق الفاشر اسأله فيه أن يتحقق من وصول خطابى الى الحاكم فى الفاشر . وسرنى مجىء الرسول فى هذه الساعة المبكرة فان سرعة وصول المؤن والملابس التى طلبتها تسر جميع رجال القافلة ووعدت الرسول بزيادة بضعة ريالات عن الأجر اذا أمكنه أن يوصل الخطاب الى الفاشر فى بحر أربعة أيام وتمنيت له السلامة ثم وقفت أنظر اليه وهو ينطلق فى ضوء القمر على جواد قوى العضلات وان كان بادى الهزال



الرسول الذى ارسله الرحالة من فواردية لمدير دارفور بالفاشر لاسعاف القافله بالزاد

الفصل العشرون

نهاية الرحلة

ودب الى جفنى النوم فى ليلتى الاولى (بفوراويه) ونالنى تأثر لم أشعر به منذ ودعت الضابط باثر فى السلوم عند ابتداء الرحلة .

وأحسست أنى الآن على اتصال بالدنيا الخارجية وأن رحلتى انتهت وانه لم يزل أمامى شهر أو يزيد حتى أترك قافلتى وأغير وجهة سفرى . لقد اصبحت واحتا اركنو والعوينات معروفتين بعد أن كان يجهل موقعهما الجميع وأصبح فى الامكان ان صحت ملاحظاتى وكنت آملا صدقها أن ترسم خريطة دقيقة لجهات صحراء ليبيا الواقعة بين جالو وفوراويه

وقضينا ثلاثة أيام فى (فوراويه) اعتدنا فيها جوها الرطب الذى منينا به وحاولنا أن نصل الى ما نتبلغ به من الطعام . وكان السحاب القاتم ينتشر فوق رؤوسنا والمطر يهطل كل يوم . وأكثر رجالى من أكل الضأن ولكن عدم وجود السكر اللازم للشاى وحرماننا من الاطعمة الاخرى نقص من استمتاعنا بذلك النعيم

وانحدرنا الى الجنوب بعد ظهر اليوم السادس من شهر يونيه وتصعدنا من الوادى فمررنا بقطعان كثيرة من الاغنام القافلة من مراعيها يتبعها صبيان وفتيات هيف القدود لا يلبسون الا ما يستر عورتهم من قماش وعقودا من الخرز.

وكانت هذه الاصقاع مختلفة عن الصحراء التى اخترقناها فقد كنا نسير فى سبيل مطروقة ونمر من وقت لآخر بقرى صغيرة من أكواخ القش ونساء يحملن الحطب ونرى غير ذلك من دلائل الاقامة والحياة . وطلبت من رجال القافلة عند اقترابنا من احدى هذه القرى أن يتقدمونى وأشرت لهم الى الموضع الذى تضرب فيه الخيام وتبعتهم بجوادى وانما فعلت ذلك لان هذه الجهات شاقتنى من الوجهة الجغرافية فاردت أن أقوم بعمل بعض الملاحظات وسمعت عند اقترابى من الخيام أصواتا عالية وكانت خليطا من الغناء والعويل

وكان أول ما خطر ببالى أن نزاعا قام بين رجال القافلة وسكان القرية فحثثت جوادى أستطلع الخبر ولكنى لم أكد أقرب الخيام حتى سمعت دوى الطبل وغناء النساء وكان وقت الغسق فلم اتمكن من توسم وجوه الجمهور الذى كان يتقدم الى ولم يمض زمن قليل حتى هرع الىّ أحد رجالى وأخبرنى انهم استقبلوا أعظم

استقبال من رجال القرية ونسائها الذين أصروا أن يخرجوا الى ظاهر القرية ليستقبلوا شيخ القافلة . ولم يكد يخبرنى الخبر حتى أحاط بجوادى سرب من العذارى يتغنين ويرقصن فلم يسعه الا أن يجاوبهن بالطفر والقفز كما يليق بالجواد البدوى . وزغردت النساء فطلب منى البدو ان افرغ البارود . وافسح الجمهور الطريق لجوادى فابتعدت به مسافة قصيرة ثم درت وانطلقت به عائداً فوقفته دفعة واحدة وكنت فى ذلك الوقت قد اخرجت بندقيتى فأطلقتها عند وقوف الجواد على الطريقة البدوية عند أقدام أول صف من العذارى الجميلات فأخافهن ذلك وشاقهن

وبعد ذلك أحاط ست منهن بجوادى وطفن حوله ثم أدين لى (الشبّال) وهو أن يرسلن جدائل شعورهن ثم يلوين رؤوسهن بغتة تاركات خصلهن تدور أمامى . وأجبتهن على هذه التحية فكنت أضع أصبعى على جبين كل منهن وأدير بندقيتي فى الهواء حول رأسها وأنا أقول « أبشر بالخير » ثم التأم جمعنا فى موكب حافل وتقدمنا الى مضرب الخيام . ورآنى رجال القافلة محاطا بالعذارى فأطلقوا النار احتفاء وتكريماً ووزعت عليهن بعد ذلك الروائح العطرية فانصرفن فرحات . وكانت ليلة أنس وطرب فى مضرب الخيام

ووصلنا (أم برو) فى اليـوم التالى وهى على بعد ٣٨ كيلو متر من فوراويه وحططنا الرحال بالقرب من البئر . وصحوت فى الصباح التالى على أصوات الغنم والماعز القادمة للاستقاء . وبعد ذلك بساعة اقيمت سوق عامرة على مقربة من خيامنا لاننا كنا نصبناها بدون تروّ بالقرب من شجرة كبيرة فى وسط المكان المعد لاقامة السوق ولم يشترك فى هذا السوق الا النساء اللاتى جابن الزبد والجلود والحصر والشعير والقطن والملح واستبدلن بكل هذا أشياء أخرى غير مستعملات النقود فى معاملاتهن

تقوم النساء بهذا بينما يستريح الرجال ويظلون عاطلين من العمل

وقد دار بخلدى حين أبصرت هذه المناظر واشباهها فى قرى السودان أن هذه الجوارى السود يكن أسعد حالا وهن فى ربقة الاسر فى البيوت البدوية فانهن وهن مطلقات يقمن بتأدية كل الاعمال فيتعهدن الغنم والماعز ويشتغلن بأمور المنزل ويجهزن الطعام ويصنعن المريسة وهى شراب الرجال المحبوب ويشتغلن فى الاسواق ويقمن بعمل كل شىء على وجه عام . أما وهن فى ربقة الاسر فليس عليهن الا واجبات محدودة تترك لهن من الفراغ نصيباً غير قليل

وطال بى التفكير فى هذه المقارنة وأنا ألاحظهن فى السوق فخيل لى أنى أسمع فى حديثهن وغنائهن نبرات لم أسمع مثلها فى أصوات الاسيرات فعلمت أن الحرية قد تبعث فى النفوس شعورا خاصاً ينعم به المطلقون فى أشد حالات العيش نصباً

وأقمنا يومين فى (ام برو) وزارنى عبد الرحمن جدّو وكيل محمّدين وهو رأس قبيلة الزغاوة وقدم لى غنما ودجاجاً بصفة ضيافة وقابلنا الوكيل فى اليوم التالى مقابلة رسمية يحف به خدمه وحشمه على ظهور جيادهم وهم يدقون الطبول. وأرسلت لنا أسرة محمّدين فى غياب رئيسها غذاء من العصيدة والخضر والفطائر والمريسة

وكانت مرحلتنا التالية تتطلب سفر خمسة أيام الى (كُتُم) على بعد ١٢٩ كيلومتر الى الجنوب. وكان الجو جيداً رغم حرارته ونزول بعض الامطار . وسرنا كالعادة فى الصباح الباكر والعصر وكان سبيلنا مطروقاً سهلا بين الاراضى التلية المغطاة بالحشيش الجاف والاشجار الصغيرة . وعثرنا فى الطريق بقطع من الارض احرقت حشائشها تمهيداً لزرعها بعد ذلك

ورجع رسولى الى الفاشر فى صحبة آخرين ولم يكن عند حسن ظنى به فقد قضى خمسة أيام بدلا من أربعة للوصول الى الفاشر ولم يحضر مع ذلك رداً على رسالتى وقال لى إن الرد فى انتظارى

مع جندى عند بئر (مطرّج) على مسيرة ١٢ ساعة من محلتنا وأن ذلك الجندى يحمل زاداً لنا ولكن ذلك الزاد المنتظر كان قليل الفائدة على تلك المسافة البعيدة فقد تناولنا عشاء قليلا عند ما حططنا الرحال تلك الليلة وبعد تناول العشاء أمرت دليلنا أن يسرع بالسفر فيسير عامة الليل ولا يقف حتى يصل (مطرّج) ثم يخبر الجندى بالاسراع الينا على قدر الطاقة

وبدأنا السير قبل الساعة الرابعة من الصباح التالى ولم تمض ساعة حتى هرع الرجال يخبروننى أن جندياً يتقدم الينا على جمله وبعد ذلك بدقائق سلمنى الجندى خطاباً من المستر شارل ديبوى القائم بأعمال حاكم دارفور المستقيل سافيل باشا. وقدم لنا كمية من الأرز والدقيق والشاى والسكر وسرنى على الاخص أنه سلمنى كمية من السجائر فانى لم أكن دخنت منذ تركنا أردى. فقد عرفت بغتة فى العوينات أنه لم يبق لى الا بعض سجاير قليلة. فأخذت نفسي بتدخين سيجارة واحدة فى اليوم أنعم بها بعد العشاء وكان يؤلمنى الانتظار طول النهار حتى تحل الساعة التي أدخن فيها سيجارتى. ولكنى كنت أسعد كثيرا بساعة التدخين فكنت انتحى ركنا ظليلا وأشعل سيجارتى الثمينة ثم أقيها هبّات الريح حتى لا تهيج شعلتها فتنفد سريعا. ونفدت السجاير فلم يبق لى الا

الذكريات القديمة والانتظار المقبل . وقد كوفئت على ذلك الانتظار الطويل وثأرت لنفسى بالانكباب على التدخين حتى احترق حلقى

وأهديت بوكاره حفنة من تلك السجاير فوضعها فوق طربوشه الاحمر ذى الزر الطويل ثم امتطى جواد الدليل وأخذ طربا . ولكن السرور لم يعم أفراد القافلة فيدفعهم الى الغناء والرقص الا حين نزلنا دار راحة الحكومة فى مطرّج فان الطرب تملك الرجال حتى وضعوا رأس السكر على الارض وأطالوا الرقص حولها حتى داخل الجندى ان بنا جميعاً مسّا من الجنون

وقد سأل بعضنا عن مبعث ذلك الطرب فأجابه عبد الله . « ان لنا شهراً لم نذق السكر فيه وانا قادرون الآن على تحلية الشاى الذى نشربه » وانما يشعر بافتقاد السكر وشدة الافتقار اليه من حرمه عهداً طويلا . فهز رأسه الجندى مبتسما ثم قال « يجب على أن أعود فى الحال الى كتم وأحضر لكم شيئا من الزاد فانا لم نظن أنكم بهذه الدرجة من الافتقار الى الطعام » وتفضل علينا قبل سفره بالذهاب الى خيام قريبة واتحافنا بشاة وزبد يدفع ثمنهما معاون كتم لان البائع رفض قبول الأوراق المالية المصرية

وتركنا الجندى بعد أن زودته بخطابات منى الى المستر ديبوى والمعاون وهو الحاكم المنتدب فى كتم . وكفانا الزاد الذى أحضره

الجندى ولكن الخوف من حاجتنا الى الاستزادة جعلنا نقرر السفر فى التوّ فسرنا وحططنا الرحال عند الظهر فى دار «استراحة» الحكومة عند بئر (المراحيج) وضربنا خيام الليل على بعد بضعة كيلو مترات من تلك الجهة . وكانت حال الجمال من السوء بمكان عظيم فقد تقرحت ظهور بعضها وجنوبها ودميت . ورفض اثنان منها أن يسيرا حتى ترفع عنهما الاحمال . وأمطرت السماء ذلك المساء مدة ساعة ولكن ذلك لم يبل أوام نفوسنا وغنت الرجال ورقصت حول ركّية عظيمة من النار .

وقد ذكرتنى رطوبة المكان ورائحة الحشيش الرطب بعطلاتى فى أرياف انجلترا . وسرنا مبكرين فى الصباح التالى حتى نصل بئر مطّرج عند الظهر وتناولنا الغذاء فى دار «استراحة» الحكومة القريبة من البئر وزارنا شيخ مطّرج وأحضر لنا دجاجا بصفة ضيافة . وأراد أن يستبقينا تلك الليلة حتى يقوم بواجب الضيافة نحونا فى اليوم التالى ولكنى كنت أشعر بالحاجة الى الإسراع فى السفر فقد ساءت حال الجمال عن ذى قبل واضطررنا الى ترك أحدها عند شيخ القرية على أن يأخذ ربع ثمنه اذا شفى وبيع وأن يكون خاليا من المسؤولية اذا مات .

وظهر لنا جندى آخر على ظهر جواده بعد مسيرنا بساعة



صبيتان من قبيلة نور

ونصف ساعة فى اليوم التالى وأحضر لى خطابا من معاون كتم وكمية صغيرة من الارز والسكر وشكرنا له الهدية لانزادنا كان قد نزر ونفد منا السكر اللازم لتحلية الشاى. وأعطيته خطابا يوصله الى كتم ثم حططنا الرحال بعد ذلك بواد صغير فى (باوو)

وأمطرت السماء عند استئنافنا السير بعد الظهر وهبت ريح قوية من الجنوب الشرقى ورأيت من الحكمة أن نحط الرحال حتى تقر العاصفة ولكنى اطللت فى منظارى فرأيت صف الاكواخ القشية التى تكون مركز الحكومة فى كتم فشجعنى ذلك على المضى فى السير فحثثنا الإبل

ورأينا بعد ذلك كوكبة من الفرسان تتقدم الينا فصرخ البدو عند رؤيتها مبتهجين وتعرفت الملابس الرسمية للجيش السودانى فكان ذلك أبهج ما وقع عليه نظرى منذ أسابيع طويلة . وتقدم الينا رياض أفندى أبو عقله ونصر الدين أفندى شداد — وهما معاونا كتم — على رأس كوكبة مكونة من عشرة فرسان وفى صحبة القاضى ورئيس الكتبة وغيرهما من موظفى كتم ووجهائها وشددت على أيديهم جميعا ثم اخترقت القافلة القرية وهم يحيطون بها

وحيانا عند اقترابنا من المركز نساء متشحات بالثياب البيضاء يغنين ويزغردن ويضربن الطبول . ووقفن صفا طويلا يغنين

ويرقصن فطرب لهن البدو كثيرا وسألونى ان اسمح لهم باطلاق البارود ردا على تحياتهن . ولم يسعنى الرفض فتناوب الرجال وعلى رأسهم بوكاره اطلاق البارود عند أقدامهن . ولم تكن السودانيات متعودات تلك العادة البدوية فى تكريم النساء كأخواتهن البدويات فى الشمال فجفلن قليلا عند اشتعال البارود على مقربة من اقدامهن ولكنهن رضين ذلك وظللن يتمايلن ويرقصن على دق الطبول بينما كان رجالى يطلقون البارود عند أقدامهن على التوالى . وكان لقاء بديعا بدد سرورنا به ما نالنا فى السفر من نصب وكلال .

وزاد اظهار الكرم نحونا فارسل الينا المعاونون والموظفون أربع نعاج وزبدا وخضرا وسكرا فقضينا ليلة أبهج ما تكون حالا وكان هبوطنا كتم فى ذلك الوقت فألا حسنا عند سكانها لأنا قدمناها مع وسمى فصل الامطار . وقضينا يومين فى ضيافة المعاونين فى غياب المفتش المستر أركل الذى كان فى الفاشر .

وقد تفرجنا عصر يوم من أيام اقامتنا على مباراة فى لعب الكرة بين الجنود . وأبدى اللاعبون نشاطا شديدا وان لم يتقنوا اللعب اتقانا تاما . ولم يخل اللعب من فكاهة ظريفة فان كثيرين من اللاعبين الذين حاولوا ان يرفسوا الكرة رفسة قوية اخطأوها وارسلوا احذيتهم السودانية تنطلق فى الفضاء . وقد شاقتنا كثيراً

روح التآلف التي كانت سارية بين الضباط والجنود الذين قاموا بهذه اللعبة التي لا تخلو من بعض الخشونة

وتناولت عشاء تلك الليلة فى دار رياض افندى ونصر الدين افندى فكان أول طعام ذقته بين حيطان المنازل منذ تركت الكفرة . وقدم لى ضائفيّ جرائد مصرية فكانت أول ما قرأت منها بعد مضى ستة أشهر

وتركنا كتم فى الساعة السادسة من صباح يوم ١٧ يونيه منشرحين بما لقينا من دلائل الكرم والضيافة أثناء اقامتنا ومن مظاهر التوديع الحار عند تركنا المدينة وكانت المرحلة الباقية الى الفاشر وهى تستغرق يومين ضربا من ضروب التريّض .

ودب فى نفوسنا جميعا دبيب الاهتياج والابتهاج بعودتنا الى الاتصال بحياة الحركة ولكنى شعرت ساعة انقلبت الى فراشى ليلة ١٨ بوخزة حزن فى قلبى لان ذلك اليوم كان آخر أيامى فى الصحراء وبدا لعينيّ آلامى المستقبله لافتقادي رجالى وجمالى وحرمانى تلك الوحشة المؤنسة والجمال والوحدة ومتعة المرافقة التي ملكت نفسى فى الصحراء وعيشى بها وشكرت الله على هديه لى فى تلك الاصقاع الرملية الممتدة غير المطروقة . ورأيتنى اضيف الى صلوات شكرى دعاء خالصا أسأله فيه أن يقدرلى العودة اليها يوما من الأيام .

وكنت قد أصدرت أمرى الى رجال القافلة بالسفر المبكر فى الصباح التالى وتملكهم الشوق الى الرحيل فبالغوا فى التبكير ولم أكن أقل منهم هشاشة الى الرحيل فلم آبه بالمسير فى منتصف الساعة الثالثة صباحاً . وحططنا الرحال على مسير ثلاث ساعات من الفاشر نستعد لدخول المدينة فحلقنا ذقوننا ولبسنا أنخر ثيابنا وكان المستر ديبوى قد أرسل الينا فى كتم كمية من القماش الابيض فأمكن رجالى أن يظهروا فى لباس لائق . وتهافتوا جميعا على القطعة الباقية من مرآتى يتوسمون فيها وجوههم. ونظفت البنادق وأصلح من شأن حوائجنا التى أصبحت فى حال يرثى لها من البلى . وكان بودى أن أصنع شيئا للجمال فأغير مظهر هزالها ونحفها ولم يكن سبيل ذلك الا بتعهد ظهورها المقروحة واراحتها ولم يكن عندنا من الوقت أو الظروف ما يمكننا من فعل ذلك . ومع ذلك فقد خيل لى أنها تشاطرنا الشوق الى الرحيل فجدّت فى السير بخفة ونشاط .

وارتدى عبد الله والسيد الزروالى ثيابهما الحريرية وتقدمت القافلة الى المدينة فرحة مرحة. ووصلنا ظاهر الفاشر فاذا بصرخات السرور تنبعث من جميع أفراد القافلة لانهم رأوا كوكبة من الفرسان لابسى الخاكى تتقدم الينا وحثثت جوادى بركة فعدا راضيا وسرته



الرحالة على جواده (بركة) ورجال قافلته الذين رافقوه فى الرحلة

رؤية الجياد القادمة فنشر أذنيه وانطلق فى عدوه

وتقدم المستر ديبوى على جواده يحيينى فتبادلنا الشد على الايدى وحيانا بقية الموظفين المصريين والانجليز فرددنا عليهم التحية بأحسن منها ثم ذهبنا الى دار المستر ديبوى الذى تفضل فخصنى ورجالى بجزء منها . وتفضل البكباشي (اوداس) فتعهد الجمال المنهوكة فاطعمها وسباها وعالج جراحها وكانت فى حاجة ماسة الى هذا العلاج .

وقضيت عشرة أيام فى ضيافة المستر ديبوى ولقيت شيئا كثيرا من كرم ضباط وموظفى المدينة بين مصريين وانجليز ومن وجهائها كذلك . والحق أقول أن دلائل الكرم غمرتنى ومظاهر الرعاية ظلتنى فلم اكن فى حاجة الى شيء

وشعرت بحياة المدنية فاستمتعت بملذاتها وأخصها أكل الخضر والفواكه وما كنت لاق هذه ملذات لولا ما ذقت فى صميم الصحراء من طرف محدودة فى عيشتها وحل يوم توديعى لرفقائى الذين صحبتهم فى رحلتى من الكفرة فجاءنى بوكاره وأخوه وحامد والسنوسي أبو جابر يودعوننى فكانت ساعة مؤثرة شعرت فيها بألم الفراق وازدحمت فيها على خاطرى خوالى الذكريات ولم يتمالك اولئك الرجال الجليدون البكاء ولم استطع منع عينى أن

تندى بالدموع فقد صحبنا الايام معا فى حلوها ومرها وخرجنا من عشرتنا الطويلة أصدقاء مخلصين . ولست أتمنى على الدهر امتع من هؤلاء رفقاء لاجتياز تلك الاصقاع الموحشة ولا أكثر منهم قدرة ورجولة واخلاصا .

وقرأنا الفاتحة فكانت جهشات بوكاره تخالط كل وقف من آياتها الشريفة وشددت على أيادى الرجال جميعا للمرة الأخيرة ثم افترقنا لنتقابل كما ارجو يوما من الايام فى تلك الصحراء التى نالت من نفسى بقدر ما نالت من نفوس ساكنيها .

ولم يبق امامي الا مرحلة واحدة الى الابيض التى تبعد ٦٠٠ كيلو متر الى الشرق فقطعتها وأخذت القطار الى الخرطوم ومنها الى القاهرة فوصلتها فى أول أغسطس سنة ١٩٢٣ وكنت قد غبت عن وطنى سبعة أشهر و٢٣ يوما وقطعت بالقافلة مسافة ٣٥٠٠ كيلومترا فى الصحراء وامكننى بواسطة هذه الرحلة أن أقطع فى تحديد مركز آبار الظيغن ومكان الكفرة على خريطة أفريقيا وكان موضع الاول قبل ذلك بعيدا عن مكانه الاصلى بمقدار ١٠٠ كيلو متر والثانية بمقدار ٤٥ كيلومتر ونلت كذلك توفيقا عظيما . فى اثبات الواحتين المجهولتين اركنو والعوينات على خريطة صحراء ليبيا .

مذكرة عن

نتيجة رحلة حسنين بك
فى رسم الخرائط

بقلم الدكتور بول مدير قسم مساحة الصحراء

﴿ترجمة﴾

حسن بك عبادى
بمصلحة المساحة المصرية

المقدمة

تتكون البيانات الخاصة برسم الخرائط التى احضرها حسنين بك من —

ا دفاتر محتوية على ارصاد فلكية بتعيين الوقت وخط العرض واختلاف البوصلة اخذت فى تسعة عشر معسكراً رئيسيا ومعها الارصاد الخاصة بمقارنات الساعات

ب مذكرات يومية محتوية على بيانات مستمرة لأرصاد انحرافات البوصلة وللمسافات التقديرية من واحة سيوه الى آبار (لامينا) بالقرب من الفاشر وهى مسافة تقرب من ٢٤٣٠ كيلو متر وتحتوى هذه المذكرات اليومية ايضا على

(١) عدد كبير من أرصاد انحرافات البوصلة لمعالم طبيعية ظاهرة على جانبى الطريق

(٢) تقديرات تقريرية على قواعد حساب المثلثات لخطوط عرض الجبال التى مر بها

(٣) عدد كبير من قراءات البارومتر المعدنى المستدير (انريد) والترمومتر الذى يدار فى الهواء ويستخرج منه درجة الرطوبة التى أخذت لتقدير الارتفاعات على طول الطريق

(٤) الارصاد اليومية لاقصى وادنى درجات الحرارة

(٥) ملاحظات على طبيعة البقاع التى مر فيها

(٦) مذكرات عن الاحوال الجوية

وهـذه البيانات المرصودة تم تحليلها بمعرفة قسم مساحة الصحارى بالقاهرة واستخدمت فى اعداد الخريطة بمقياس $\frac{١}{٢ \text{ مليون}}$ المرفقة ببيان حسنين بك عن اسفاره والغرض من هذه المذكرة التى نحن بصددها هو

أولا ـ اعطاؤها بيانا عن الاختبار الدقيق الذى مرت به هذه الارصاد أثناء القيام بتحليلها كى يساعد على تقدير درجة الدقة التى يمكن نسبتها للمواقع الجغرافية والارتفاعات والمعلومات الاخرى التى استعملت فى تخطيط الخريطة

ثانيا ـ بيان الاضافات الى المعلومات الجغرافية الحاضرة ببحثها عن اقليم غير معروف فى شمال افريقيا الشرقى وكان وليد هذه الحملة

٢ ـ التعيين الفلكى للوقت المحلى

اخذت الارصاد بواسطة التيودوليت لارتفاعات الشمس

والنجوم فى جميع المعسكرات الرئيسية لتعيين الخطأ بالنسبة للزمن المحلى الوسطى الشمسى للساعة من طراز نصف كرونومتر التى استعملت فى اخذ ارصاد خطوط العرض. وبلغت جملة هذه التعيينات الزمنية التامة ٣٤ أخذت فى ١٧ معسكراً . واخذت الارصاد بتيودوليت ٣ بوصه من صنع (تروتون وسيمس) دائرته الرئيسية يمكن قراءتها بورنيتين للدقيقة الواحدة وكان مجهزاً بميزان حساس مركب على ذراع الميكروسكوب وكان يوضع التيودوليت دائماً فى خط الزوال المغناطيسى بواسطة بوصلته الحوضية . وكان الغرض من الطريقة التى استعملت هو اخذ اوقات مرور حافة الشمس او النجم بكل من الثلاثة الاسلاك الافقيـة لتقسيم الاستاديا قارئة الميزان والدائرة عند كل تعيين على الوجهين الايمن والايسر . واخذ ايضا ـ فى حالة النجوم ـ الانحراف المغناطيسى للنجم من الدائرة الافقية . وأخذت مذكرة بلون النجم ولمعانه لتحقيق ذاتية النجوم فى هذا القلم وبذلك يتخلص الراصد من ضرورة معرفة اسماء النجوم وكان يُقرأ البارومتر والترمومتر باعتناء فى كل رصد لعمل حساب الانكسار

ولم تلاق اى صعوبة فى تحقيق ذاتية النجوم الا فى حالة واحدة

وجد من الضرورى فيهـا الغاء الارصاد نظرا لان الراصد رصد عرضا نجوما مختلفـة عند الرصد على وجهى الآلة وقد اجريت فى ايام عديدة عمليتان للرصد أو اكثر فى نفس المكان ودلت مقارنات النتائج فى هـذه الاماكن ان الارصاد كانت بدقة فائقة بالنسبة لصغر الآلة وقد وجد مثلا فى سبع حالات رصدت فيها الشمس وهى على وشك الغروب ونجم عقب الغروب مباشرة ان اقصى فرق بين نتائج عمليتى الرصد هو (٧) ثوان فقط بينما كان المتوسط يقل عن (٤) ثوان ومن الظاهر ان دقة وقت الارصاد كافية جداً للتأكد من عدم وجود خطأ محسوس فى خطوط العرض ناشىء من اغلاط فى الزمن المحلى المفروض

وبما ان ارصاد الوقت لم تستعمل الا فى تجهيز الخريطة فيما يخص تعيين خط العرض فليس من المهم اعطاء كشف عن اغلاط الساعة غير انها ربما تهم الجغرافيين الذين يجوبون الصحارى للوقوف على بعض نتائج تجارب حسنين بك فى عملية نقل الساعات وعلى المجازفة فى التعويل على ثبات معدل السرعة لمدد طويلة حتى مع وجود احسن نوع من الساعات ومن الستة الساعات التى كانت معه لم تبق الا واحدة منهـا صالحة للاستعمال حتى نهاية السفر . ومن حسن الحظ ان هذه الساعة التى قاومت عناء سفر سبعة اشهر فى

جوف الصحراء هى التى أخذ عليها حسنين بك جميع ارصاده وكان يحملها فى جيبه طول مدة السفر وهى من طراز نصف الكرونومتر ذى الحجم الكبير ماركة "explorens" الانجليزية الصنع ومجهزة بغطاء واق من الاتربة لجهاز ادارتها ولقد حازت هذه الساعة شهادة خاصة من معمل الطبيعيات الاهلى (National Physical Laboratory of England) بانجلترا وكانت اثمن الساعات الست التى استعملت فى هذه السياحة . وحتى هذه الساعة لم تستطع المحافظة على معدل سرعة ثابت حتى تصلح فى ايجاد خط الطول ولو انها كانت وافية بالغرض فى ايجاد خط العرض ولو انها فى حالتين لما اضطر الحال للتعويل على ثبات معدل سيرها لمدة يوم أو يومين لرصد خط العرض فقط دون اخذ ارصاد عن الوقت المحلى فنجد مثلا فيما يلى متوسط معدل سير هذه الساعة محسوبا من واقع ارصاد الوقت المحلى فى اماكن معلوم خط طولها من قبل

معدل سير الساعة

السلوم ـ سيوه ٢٩ديسمبر ـ ١٣يناير ١٥ يوما فقدت ٥و٨ ثانية

سيوه ـ جغبوب ١٣ يناير ـ ٢٠ يناير ٧ أيام « ٠٠و١ «

جغبوب ـ الفوراوية ١٤فبراير ـ ٥يونيه ١١١يوما « ٧و٧ «

الفوراوية ـ ام بوروه يونيه ـ ٨ يونيه ٣أيام « ٦و٦ «

ام بورو ـ الفاشر ٨ يونيه ـ ٦ يونيه ١٨يوما « ٤و٩ «

الفاشر ـ الابيض ٣٠يونيه ـ ١٥يوليه ١٥ « « ٤و٩ «

غير ان هـذا الجدول لم يستطع ان يعين بالضبط اختلافات الساعة وفى طول المدة التى بقيت فيها خمس الساعات الاخرى صالحة للاستعمال قام حسنين بك بعمل مقارنات متعددة بساعته الرئيسية وبين ٢١ مارس و٢٣ منه يوجد هناك ما يحملنا على التحقق من ان هـذه الساعة ربحت ربحا غير عادى بلغ ٥٠ ثانية . وهناك ربح غير عادى مشابه لهذا لوحظ فى الاربع والعشرين ساعة الواقعة بين يومى ٢٤و٢٥ مارس وكلا هذين الربحين غير العاديين حدث ما بين (جالو) و (الحراش) فى بدء السياحة بينما اظهرت باقى الساعات أنها سائرة بحالة حسنة . ومن المحتمل جداً أن حدثت حالات اخرى غير عادية

فيما بعد ذلك حينما تعذر وجود مراقبة مرضية للمقارنات نظراً لوقوف أو تلف بعض الساعات الاخرى أو كلها . ومن بين خمس الساعات الاخرى كانت هناك ساعة انجليزية الصنع من طراز نصف كرونومتر مشابهة للساعة الرئيسية ولكن بحجم صغير . وثلاث ساعات منها كانت سويسرية الصنع من أحسن الاصناف ذات الرافعة من طراز "Peerless" بغطاء محكم وأما الساعة الباقية فكانت من الصنف السويسرى ذى الرافعة والتى تضىء أرقامها وعقاربها ليلا وكانت تلبس فى المعصم لسهولة معرفة مدد السير . وقد وقفت عن العمل الساعة الصغيرة من طراز نصف كرونومتر فى ٣ ابريل بعد أن استمرت على العمل مدة أربعة أشهر ولو أنه أعيدت إدارتها إلا ان معدل سيرها تغير كثيراً عن ذي قبل وأما ثلاث الساعات ذات الرافعة من طراز "Peerless" فكانت لا بأس بها بالرغم من عدم استطاعتها الاستمرار على العمل حتى نهاية السياحة . فإحداها وجدت معطلة ومختلفة فى ٦ مايو بعد أن استمرت على العمل ما ينيف على خمسة أشهر. والاثنتان الباقيتان استمرتا على العمل أزيد شهراً عنها

ويستدل من المقارنات التى عملت فى الطريق أن اختلافات معدل السير كادت تكون فى درجة واحدة مع الساعة طراز النصف كرونومتر . وأما ساعة المعصم فكانت عرضة لاختلافات أكثر

في معدل سيرها نظراً للطريقة التي تحمل بها وكانت فى بعض الاحيان تضبط على الساعة الرئيسية ولكنها استمرت على العمل حتى نهاية السياحة

وقد وجد أن الساعات الانجليزية من طراز نصف كرونومتر لاتقل تفضيلا عن أحسن الساعات السويسرية ذات الغطاء المحكم وذلك من وجهة مقاومة الأتربة التى هى من أهم الخاصيات التى نضعها نصب أعيننا عند اختيار الساعات اللازمة للاكتشاف فى الصحارى.
ومن أهم دواعى العطل فى الساعات واختلاف معدل سيرها هو طريقة حملها أثناء السير فتارة تكون مع الرحالة وفى هذه الحالة تكون عرضة لصدمات عنيفة فجائية تحدث أثناء القفز من على ظهر الجمال أو محاولة الصعود عليها وتارة تكون داخل الامتعة وفى هذه الحالة تكون عرضة لمثل هذه الصدمات التى تحدث من حركات الجمال الفجائية . ويعزى الشرح المحتمل للتقديم غير العادى الذى ظهر فى الساعة الرئيسية فى مدد قصيرة فى الحالتين السابقتين الى ارتجاج أثناء الصعود أو الهبوط يحدث منه ملامسة للفتى الزمبلك الشعرى ببعضهما لمدة قصيرة مسببة قصراً فى مدة تذبذب الرقاص ومما يجدر بالذكر أن الساعة التى ظلت مستمرة طول مدة السياحة كانت أكبر الساعات حجماً فكانت مقاومتها لهذه العوامل معزوة إلى درجة ما إلى قوة مقاومة أجزائها لكبر حجمها

٣ـ التعيينات الفلكية لخطوط العرض

اخذت أرصاد ارتفاعات النجمة القطبية لتعيين خط العرض لتسعة عشر معسكراً فى ٣٥ ليلة باستعمال تيودوليت بوصه ٣ الذى استعمل في أخذ أرصاد الوقت وأخذ ثلاثة قراءات للارتفاعات على كل من الوجهين باستعمال شعرات الاستاديا الثلاث على التوالى ودونت الاوقات المناظرة بواسطة ساعة نصف كرونومتر المعلوم خطؤها عن الوقت المحلى بالضبط بالارصاد على الشمس أو نجم اخذت قبل أخذ ارصاد خط العرض . وصرفت عناية خاصة لضبط ميزان روح التسوية ودون الضغط الجوى ودرجة الحرارة فى وقت أخذ الأرصاد

ويبين الجدول الآتى نتائج الارصاد

خطوط العرض الفلكية

السلوم	٤ ليالٍ	٩″	٣٥′	٣١°	شمالا
سيوه	١ ليلة	٤١″	١٢′	٢٩°	»
جغبوب	٥ ليالٍ	٢٦″	٤٤′	٢٩°	»
المعسكر بقرب جالو	١ ليلة	٥٦″	١١′	٢٩°	»
جالو (العرج)	١ »	٣٣″	٢′	٢٩°	»
بوتافال) بئر أبى الطفل	١ »	٢٦″	٥٤′	٢٨°	»
الحراش	١ »	٢٩″	٢٦	٢٥°	»
التاج	٦ ليالٍ	٤٧	١٣	٢٤°	»
اركنو	٢ ليلتان	٣٢	١٢	٢٢°	»
العوينات	١ ليلة	٢٩″	٥٢′	٢١°	»
اردى	١ »	٣٩″	٣٥′	١٨°	»
اجاه	١ »	٣٨″	٥٢′	١٧°	»
عنيبه (انيباه)	١ »	٢٤″	٢١′	١٧°	»
باو	١ »	٢٤″	٢٨′	١٦°	»
الفوراوية	٢ ليلتان	٥١″	٢١′	١٥°	»
ام بورو	٢ »	٥٧″	٣′	١٥°	»
القطوم (كتم)	١ ليلة	١٥″	١٢′	١٤°	»
الفاشر	٢ ليلتان	٣″	٣٨′	١٣°	»
الابيض	١ ليلة	٥٦″	١٠′	١٣°	»

ومن هذه الاماكن يوجد ستة منها معلوم خط عرضها من المساحات الرسمية لمصر والسودان وهى ـ السلوم ـ سيوه ـ جغبوب ـ كتم ـ الفاشر ـ الابيض ـ وقد وجدت ان ارقام حسنين بك مرضية ولو انه لم يتيسر عمل مقارنة دقيقة نظراً لعدم التحقق من معرفة موقف حسنين بك بالضبط وقد ابان حسنين بك ان نقطته التى اخذ منها الارصاد في جغبوب تقع على بعد ٢٠٠ متر في جغبوب الجنوب الغربى لقبة المسجد وبتطبيق الفرق المناظر لخط العرض (ناقص ٦) ثوانٍ على تعيينى لخط عرض القبة في سنة ١٩١٧ الذى كان (٤١ً ٤٤َ ٢٩°) نحصل على (٣٥ً ٤٤َ ٢٥°) اي بفرق ٩ ثوانٍ فقط من ارصاد حسنين بك فى خط العرض وهناك اختبار آخر لدرجة دقة ارصاد خط العرض يمكن عمله بمقارنة خطوط العرض التي وجدت لنفس المعسكر بواسطة ارصاد اخذت في ليالى متعددة ونجد فيما يلى متوسط الانحراف لخط عرض واحد مرصود عن المتوسط لجميع المعسكرات التى اخذ فيها رصدان أو اكثر لخط العرض

السلوم	٤ ليال	متوسط الانحراف		٨َ	ثانية
جغبوب	٥ »	»	»	٤٠َ	»
تاج	٦ »	»	»	١٢َ	»
اركنو	٢ ليلتان	»	»	٦َ	»
الفوراوية	٢ »	»	»	٨َ	»
ام بورو	٢ »	»	»	٢٣َ	»
الفاشر	٢ »	»	»	٦َ	»

ومن ذا يظهر انه لايحتمل ان اول خط عرض مرصود يبلغ الخطأ فيه بمقدار ١َ دقيقة وعلى ذلك اعتمدت خطوط العرض التى رصدها حسنين بك عند تجهيز الخريطة عن النقط غير الموجود فيها تعيينات سابقة مثل الحراش والتاج واركنو والعوينات وأردى واجاه وعنيبه وباو ـ وقد اعتمدت فى الخريطة ايضاً خطوط العرض التى رصدها حسنين بك عند جالو (العرج) وبئر ابى الطفل والفوراوية لان ارصاد اولهما من المحتمل ان تفوق ارصاد رولفس التى تكاد تتفق مع مواقعه الخريطية وارصاد ثانيتها ولو انها تختلف عن رقم رولفس (٢٢َ ٣٦َ ٢٨°) بمقدار دقيقتين ٢َ الا انها بلاشك اضبط لانها تتفق تماما مع خط سير حسنين بك ولان ارصاد ثالثتها وهو موقع الفوراوية ولو انه موضح على خرائط السودان الا انه خارج عن حدود مثلثات السودان ويحتمل فيه بعض الخطأ . ـ

وبعد كتابة ما تقدم وصلتني معلومات من جناب مدير مساحة السودان ان جبل الفوراوية اعتبر كنقطة فى شبكة المثلثات السودانية وان موقع القمة بالضبط هو خط عرض (٩و٥٩َ ٢٠ ١٥°) شمالا وخط طول (١و٤٨ ٣٦َ ٢٣°)شرقا وارتفاع ٩٥٤ مترا فوق سطح البحر وهذا الموقع يختلف بكيلومترين عن الخريطة المشار اليها ولكن نظراً لعدم معرفة المسافة والانحراف من معسكر حسنين بك الى التل ولو ان خط العرض الذى وجده حسنين بك يعين مركزه بموازاة كيلو متر ونصف شمال التل فلم ار ان هناك ما يدعو لعمل اي تغيير فى ضبط نتائج حسنين بك وخط الطول المعتمد على المعسكر ربما يكون مختلفا اختلافا بسيطاً حتى انه لايحتمل ان يتعدي الخطأ فيه ميلا او اكثر ولما كان الفرق بين سطح التل ونقطة معسكر حسنين بك غير معروف بالضبط فلذا لا يوجد هناك ضابط لقراءة البارومتر عن نقطة المعسكر وبناء عليه رأيت من الحكمة ان استعمل الفاشر كالضابط الجنوبي في تصحيح تعيينات الارتفاعات

٤ ـــ ارصاد اختلافات البوصلة

لسهولة ايجاد النجم القطبي عند ما يكون السماء غير قاتم جداً أو محجوباً بالسحب احتجاباً جزئياً وللحصول أيضاً على الانحراف التقريبي لنجوم الوقت لتعريف ذاتيتها وضع التيودوليت دائماً فى

خط الزوال المغناطيسي بواسطة بوصلته الحوضية وقرئ الانحراف المغناطيسي للنجم القطبي على الدائرة الافقية بعد رصد كل خط عرض ولوحظ الوقت وبهذه الطريقة تعين انحراف البوصلة التقريبي لكل معسكر وكانت النتيجة كالآتى : —

انحراف البوصلة

السلوم	ديسمبر	سنة	١٩٢٢	٣	ارصاد	′٣٤	°٢	غربا
سيوه	يناير	«	١٩٢٣	١	«	′٤٢	°٢	«
جغبوب	فبراير	«	١٩٢٣	٥	«	′٢٥	°٢	«
بالقرب من جالو	مارس	«	١٩٢٣	١	«	′١٢	°٤	«
جالو (العرج)	«	«	«	١	«	′٥	°٤	«
بوتافال بئر ابى الطفل	«	«	«	١	«	—	—	
الحراش	«	«	«	١	«	′٤٨	°٣	«
تاج	ابريل	«	«	٦	«	′٣٢	°٣	«
اركنو	«	«	«	٢	«	′٢٥	°٣	«
العوينات	«	«	«	١	«	′٣٢	°٣	«
اردى	مايو	«	«	١	«	′٥٧	°٣	«
اجاه	«	«	«	١	«	٠٠	°٤	«
عنيبه (انيباه)	«	«	«	١	«	′٢١	°٤	«
باو	«	«	«	١	«	′٥٩	°٤	«
الفوراوية	يونيه	«	«	٢	«	′٣٢	°٤	«
ام بورو	«	«	«	٢	«	′٢٥	°٣	«
الكتم	«	«	«	١	«	′٢٦	°٤	«
الفاشر	«	«	«	٢	«	′٥١	°٢	«

وبالطبع فان طريقة تقدير انحراف البوصلة بواسطة التيودوليت هي تقريبية فقط ولكن المقادير التى وجدت محتملة الصحة في أغلب الأماكن بفرق قدره نصف درجة وهي تبين أن ليس هناك أى احتمال لخطأ فاحش فى المقاس المباشر نظراً للشذوذ المحلى لانحراف البوصلة وعلى ذلك فقد استعملت فى تحويل انحرافات الترافرس للبوصلة الى الانحرافات الحقيقية للجزء الأكبر من الطريق الذى لم يسبق وجود تعيينات له والذى بناء على ذلك لم يعرف بأى درجة من الدقة توزيع الخطوط المتساوية في الاختلاف المغناطيسى

٥ — خطوط الطول

ان احتمال تلف بعض الساعات فى سفر سبعة أشهر قد أمكن التنبؤ به وظهر من أول الأمر عدم الاحتمال بأن هناك أية فائدة يمكن الحصول عليها من الساعات فى تعيين خطوط الطول فى سفر طويل شاق كهذا وعليه فقد رأينا التعويل كليا على المقاس المباشر لخطوط الطول باذلين كل الجهد للحصول على سلسلة كاملة من انحرافات البوصلة والمسافات المقدرة بين جغبوب وبعض الأماكن المعروفة فى السودان ويجب أخذ الانحرافات ببوصلة جيدة بكل دقة ممكنة وعلى مسافات متعددة . وتقدير المسافة يحسب يوميا من مدة سير جمال المهمات باعتبار معدل ٤ كيلو متر

فى الساعة على طريق الصحراء مع اعتبار اختلافات السرعة على أراض مختلفة الطبيعة . وابتدأت السياحة من الشمال الى الجنوب فلذلك كان من الواجب ضبط المسافات بواسطة خطوط العرض بينما لم تترا كم أغلاط الانحراف وعند ما كانت قابلة للتسوية من تلقاء نفسها على أى طول كبير من الطريق . وكان السبب الأول فى أخذ ست ساعات لم يكن لايجاد خط الطول التى بها لم يستطع أكثر من اعطاء بعض مقادير قابلة للشك وانما للتأكد من وجود ساعة واحدة على الاقل تستمر على العمل طول مدة السياحة لرصد خطوط العرض إذ بدونها لا يمكن إيجاد ضابط تام لمعرفة جميع المسافات الرئيسية

ولقد برهن احتمال حصول التلف للساعات على صحة التنبؤ به إذ تلفت جميع الساعات ماعدا واحدة غير أنه لحسن الحظ ظلت هذه الساعة الواحدة مستمرة حتى نهاية السياحة وأمكن بواسطتها تعيين خطوط العرض (ولو أن معدل سيرها لم يكن ثابتا على الكفاية لأن يستعمل بدون ضابط فى ايجاد خطوط الطول) ومن الجهة الاخرى اتبع بدقة البرنامج الخاص برصد سلسلة متواصلة من الانحرافات (زوايا الطريق) الدقيقة وبتقدير أطوال الطريق بين هذه الانحرافات من بدء القيام من جغبوب (آخر نقطة معروفة في مصر) حتى الفوراوية (أول نقطة معروفة فى السودان) وهى

مسافة ٢٤٣٠ كيلو متر ومن هـذه السلسلة المتواصلة للانحرافات وتقدير الاطوال متحدة مع خطوط العرض المرصودة أمكن تقدير خطوط الطول لجميع المواقع على طول الطريق بدرجة عالية نوعا من احتمال الدقة

ولتقدير خطوط طول جالو (العرج) اتبعت طريقة مخالفة قليلا عن تلك التى اتبعت فى مختلف المعسكرات الرئيسية على طول الطريق ويرى الناظر الى الخريطة أن اتجاه السير من جغبوب الى جالو كان من الشرق الى الغرب بدلا من الشمال الى الجنوب كباقى اتجاهات سير السياحة وعليه لم تستطع خطوط العرض المرصودة أن تكون وسيلة صالحة لتصحيح المسافات المقدرة فى هـذا الجزء من الطريق بخلاف الاجزاء الاخرى. ولـكن لحسن الحظ ساعدنا خط العرض المرصود عند جالو على تصحيح التقدير السابق الذى أوجده حسنين بك في سنة ١٩٢٠ عن بعد هذا المكان من الجيدابيه وهذا مضافا اليه الانحرافات المرصودة وقتئذ ينتج منهما قيمة واحدة لخط العرض عند جالو . على أننا إذا فرضنا صحة تقدير البعد بين جغبوب وجالو أمكننا استعمال خط العرض المرصود عند جالو لتصحيح الانحرافات وبذلك نحصل على مقدار آخر لخط الطول . ومن امعان النظر فى جميع المعلومات الموجودة نجـد أن الطريقتين متساويتان في درجـة الدقة . وتحديد موقع الجيـدابية باعتبار خـط عرض

(١٠ً ٤٨َ ٣٠° شمالا) وباعتبار خط طول ٣٠ً ١٣َ ٢٠° شرقاً معرض لبعض الشك

لم يعلم أن هناك ارصاداً أخذت بدقة عن الجيدابية والموقع الذى بين هو نفس الموقع الذى اعتمدته فى تحضير خريطة سابقة عام١٩٢١ وحصل عليه بتقدير ترافرس عمل من مسافات وانحرافات عينت بواسطة استعمال الاوتوموبيل والبوصلة بمعرفة الكابتن وليمز من(زويتينه) فى سنة ١٩١٨ والانحرافات التى رصدت بمعرفة حسنين بك فى رحلته السابقة ربما كانت أقل دقة من رحلته الحاضرة . ومن جهة أخرى فان تقدير المسافات من جغبوب الى جالو كما استخرجت بواسطة الضبط بخطوط العرض عن الاجزاء الاخرى من الطريق تقرب جداً من الحقيقة. بينما يُحَرِّكُ التصحيح المتساوى بمقدار نصف درجة فى زوايا الطريق المباشر بالضبط لموقع جالو حتى يقع على موازاة لخط العرض المرصود ولقد اعتبرت خط طول جالو على الخريطة متوسط خطى الطول الذى وجد أولا باعتبار انّ .

أولا — انحرافات حسنين بك مضبوطة من الجيدابية مع تصحيح مسافاته بواسطة خطوط العرض

ثانيا — مسافاته من جغبوب مضبوطة وباستعمال خطوط العرض المرصودة لضبط زواياه

النتيجـــــة

للحالة الاولى

من الجيدابية خط الطول عن جالو (العرج) (٤٨َ ٢٩َ ٢١°)

للحالة الثانية

من جغبوب خط الطول عن جالو (العرج) (١٩َ ٢٦َ ٢١°)

المتوسط المعتمد = (٣َ ٢٨َ ٢١°)

ومما يجدر بالذكر بهذه المناسبة أن النتيجة تُظهِر جالو فى موقعها بالضبط المبين بخريطة رولفس سنة ١٨٨٠ والطريقة التى اتبعت بخطوط الطول المعتمدة للمعسكرات الأخرى على طول الطريق كالآتى :ـ

قسم الطريق الى تسعة أجزاء بين المعسكرات المهمة الآتى بيانها التى رصد فيها خط العرض وهي جالو ـ الحراش ـ تاج ـ اركنو العوينات ـ اردى ـ اجاه ـ انبياه ـ باو ـ الفوراوية . ورسم ترافرس البوصلة عن كل قسم بمقياس $\frac{١}{\text{نصف مليون}}$ من واقع الانحرافات المرصودة والاطوال المقدرة ورسم خط الزوال عن كل قسم من متوسط قراءات انحرافات البوصلة على طرفى الخط وقيس مقدار الفرق الكلى عن خط العرض عن كل قسم وقورن بالفرق الناتج من خط العرض من واقع الارصاد وهذه المقارنة أعطت بالطبع متوسط الخطأ فى تقدير المسافة على طول كل قسم باعتبار أن الانحرافات مضبوطة . ونتيجة المقارنة عن الاجزاء المختلفة هى كما هو مبين بالجدول الآتي ـــ

تصحيحات عن المسافات المقدرة

جزء الترافرس	فرق خط العرض من واقع الرسم	الفرق الحقيقي لخط العرض من واقع الارصاد	الفرق في خط العرض بين الرصد والرسم	تصحيح المسافات المقدرة في المائة
	كيلو متر	كيلو متر	كيلو متر	
جالو ـ الحراش	٣٧٥	٣٩٩	٠و٢٤	٤و٦
الحراش ـ تاج	٥و١٣١	٢و١٣٤	٧و٢	١و٢
التاج ـ اركنو	٧و٢١٧	٧و٢٢٣	٠و٦	٨و٢
اركنو ـ العوينات	٣٦	٣٧	٠و١	٨و٢
العوينات ـ اردي	٣٦٩	٢و٣٦٣	٨و٥	٦و١
اردي ـ اجاه	٦و٧٥	٢و٧٩	٦و٣	٨و٤
اجاه ـ انيباه	٥٧	٥و٥٧	٥و٠	٩و٠
انيباه ـ باو	٩٩	٧و٩٧	٣و١	٣و١
باو ـ الفوراوية	٢و١٢٤	٧و١٢٢	٥و١	٢و١

متوسط الخطأ للمسافات المقدرة = ٢ر٦ ٪ في المائة

وكانت أول خطوة بعد ايجاد متوسط الخطأ للمسافات المقدرة لكل جزء من الطريق هى قياس فروقات احداثيات خطوط الطول من الترافرس المرسوم مع تصحيح الخطأ فى المسافات المقدرة وتحويل فروقات احداثيات خطوط الطول الى فروقات ولما تم ذلك كانت نتيجة الفرق فى خط الطول بين جالو والفوراوية هى (٥٥ ٢٥َ ٢°) وباعتبار أن خط الطول الحقيقى عن جالو هو كالموضح أعلاه وخط الطول الحقيقى عن الفوراوية هو كالمبين بخريطة بمقياس $\frac{١}{\text{ربع مليون}}$ من خرائط مساحة السودان سنة ١٩٢١ (انظر الملحوظة بهامش صفحة ٥) ينتج .

خط طول جالو	٣ً	٢٨َ	٢١°
« « الفوراوية	١٠ً	٣٨َ	٢٣°
الفرق =	٧ً	١٠َ	٢°

وعلى ذلك يحتاج فرق خط الطول الذى وجد بالمقاس المباشر الى التصحيح بمقدار (٤٨ً ١٥َ) وهذا التصحيح يتضمن فرقاً فى الزوايا يقل مقدار متوسط الخطأ فيه عن درجة فى انحرافات البوصلة ويتضمن أيضاً مقدارا فى المسافات المعدلة يمكن التجاوز عنها . وقد وزع على جميع الترافرس بالنسبة لفروقات خط العرض بين المعسكرات الرئيسية . وعليه نجد فيما يلى مقادير خطوط الطول المعتمدة

خطوط الطول المستنتجة

	المقاس المباشر مصححا بخط العرض	التصحيح الآخر	خطوط الطول المستنتجة
جالو	ـ ـ ـ ـ	ـ = ـ	٢١° ٢٨َ ٣ً شرقا
الحراش	٢٢° ١٥َ ٥ً شرقا	٤َ ١٠ً	٢٢° ١٠َ ٥٥ً »
التاج	٢٣° ٢٩َ ٥ً »	٥َ ٣٤ً	٢٣° ٢٣َ ٤١ً »
اركنو	٢٤° ٥٢َ ١٠ً »	٧َ ٥٥ً	٢٤° ٤٤َ ١٥ً »
العوينات	٢٥° ٢َ ٣٤ً »	٨َ ١٨ً	٢٤° ٥٤َ ١٦ً »
اردى	٢٣° ٢٢َ ٣٤ً »	١٢َ ٥ً	٢٣° ١٠َ ٢٩ً »
اجاه	٢٣° ٢٨َ ٤٩ً »	١٢َ ٥٤ً	٢٣° ١٥َ ٥٥ً »
عنيبه (انيباه)	٢٣° ٢٧َ ٥٨ً »	١٣َ ٣٠ً	٢٣° ١٤َ ٢٨ً »
باو	٢٣° ١٦َ ١٨ً »	١٤َ ٣١ً	٢٣° ١َ ٤٧ً »
الفوراوية	٢٣° ٥٣َ ٥٨ً »	١٥َ ٤٨ً	٢٣° ٢٨َ ١٠ً »

وعند محاولة تقدير الدرجة المحتملة للدقة عن خطوط الطول المستنتجة وجدت صعوبة إذ بينما نتحقق من أن متوسط الخطأ فى انحرافات البوصلة كان أقل من درجة وهذا الخطأ تصحح فى التعديل نجد أن ليس لدينا ما يثبت أن الخطأ فى الاجزاء المستقلة لم يتجاوز ذلك كثيراً ولكن نظراً للعدد الكبير من ارصاد انحرافات البوصلة البالغ قدره ٣٣٩ الذى يُكَوّنُ بيانات الاتجاهات عن

١٧٥٤ كيلومترا من الترافرس من جالو إلى الفوراوية (أى متوسط ٣٨ انحرافاً مرصوداً عن كل قسم من التسعة الأقسام) ومع ملاحظة الدقة المتناهية فى تقدير المسافات كما تعينت من ارصاد خط العرض يظهر أن أى خط من خطوط الطول المبينة بعاليه لايحتمل خطؤه فى التقدير عن ثلاثة أو أربعة أميال وهذا يتضمن درجة من الدقة كان من الصعب تحقيقها بنقل عدد كبير من الكرونومترات فى سياحة داخلية استغرقت أكثر من ثلاثة شهور . وأرى أنه يمكن الاجمال حينئذ بأنه لايمكن الحصول على نتائج لخطوط الطول أحسن من هذه بدون مساعدة إشارات الوقت اللاسلكية

٦ — الارتفاعات فوق سطح البحر

استعمل للتقدير البارومترى للارتفاعات فوق سطح البحر (انريد) بوصة ٢ صناعة (استيورت) وكانت هذه الآلة احدى الاثنتين اللتين صنعتا خصيصاً لهذه الحملة لكى لا يتأثرا من تقلبات الحرارة وجهزت بمقياس ضغط مفتوح يمثل الملليمتر على مقياسه الحقيقى ملليمتر من الضغط تقريباً حتى أن التقديرات فى الضغط الى نصف ملليمتر كان فى الامكان تقديرها . وقرىء البارومتر فى الصباح والمساء فى كل من المعسكرات وفى نقط أخرى متعددة فى الطريق ودونت فى الوقت ذاته قراءات درجة حرارة الهواء

بواسطة الترمومتر الذى يبين درجة الرطوبة وقد أظهر البارومتر رضاء تاماً فى جميع أدوار الحملة . ولكن لسوء الحظ لم تسنح هناك فرصة لاختبار الآلة قبل قيام حسنين بك ولكنه كان بحالة جيدة عند نهاية الحملة وقد اختبر بعد ذلك فى معمل مصلحة الطبيعيات فى مصر ووجد أنه يحتاج الى التصليحات الآتية فى درجة ٢٥ سنتيجراد

الضغط بالمليمتر	٧٦٠	٧٥٠	٧٤٠	٧٣٠	٧٢٠	٧١٠	٧٠٠	٦٩٠	٦٨٠	٦٧٠	٦٦٠	٦٥٠
التصحيح بالمليمتر	— ٢و٣	— ٣و٢	— ٢و٣	— ٢و١	— ١و٤	— ١و١	— ٠و١	+ ٠و٦	+ ١و٧	+ ٠و٢	+ ٢و٨	+ ٢و٩

وبقاء هذه التصحيحات ثابتة فى جميع أدوار السياحة محتمل جداً بالاتفاق التام المبين بصفحة (١٣) بين المنسوب الذى وجد عن جالو بقراءات البارومتر مباشرة (مصححاً بالطبع باعتبار ثبات الجدول الموضح أعلاه) وبين قيمة المنسوب كما تعينت من قراءات البارومتر الزئبقى فى محطة الارصاد الجوية فى سيوه

وكانت أول خطوة فى حساب منسوب البارومتر هى جمع قراءات البارومتر والترمومتر فى كل من المعسكرات التسعة التى صرفت فيها عدة أيام وأخذت فيها عدة قراءات واستخرج متوسط جميع الضغط المدون ودرجات الحرارة عن كل من

المعسكرات الرئيسية وصحح الضغط عن الخطأ الآلى من الجدول المبين أعلاه ونظراً لأخذ الأرصاد فى أوقات مختلفة من النهار فالاختلاف اليومى عن الضغط يمكن اهماله حيث إنه يتلاشى عند أخذ متوسط القراءات. ولعمل حساب الاختلاف السنوي يحول متوسط الضغط الى متوسط ضغط السنة باستعمال تصحيح مبنى على الاختلاف السنوى العادي فى سيوه والابيض كما هو مدون بكتاب (عاديات الطقسيات) الذى وضعته مصلحة الطبيعيات المصرية وموضح بالجدول الآتى

جدول تصحيحات لتحويل متوسط الضغط الشهرى الى متوسط الضغط السنوى بالمليمتر

	يناير	فبراير	مارس	ابريل	مايو	يونيه	يوليه
سيوه	— ٣و٤	— ٢و٠	— ١و٩	+ ٠و٩	+ ٠و٩	+ ٢و٧	+ ٣و٥
الابيض	.. ١و٢	— ٠و٧	+ ٠و٣	+ ١و٢	+ ١و٠	+ ٠و٦	—
المتوسط	— ٢و٣	— ١و٤	— ٠و٨	+ ١و٠	+ ١و٠	+ ١و٦	+ ١و٨

وكان من المرغوب فيه عمل تصحيح آخر للتوزيع على الأماكن ذات الضغط البارومترى المتساوى عند سطح البحر فى المنطقة التى اخترقت ولكنه لم تتوفر البيانات لعمل هذا التقدير غير أن هذا التوزيع يحتمل أن يكون خطيا وقد توزع بالتقريب باعتبار منسوب سيوه السابق (— ١٧) مليمتر والفاشر (٧٩٣) مضبوطا

وتوزيع أى باق من الفرق بواسطة تصحيح قراءات البارومتر بين هذين المحلين بالتساوى بين الأقسام المختلفة وفرق الارتفاع المقابل لكل فرق لمتوسط قراءات البارومتر المصححة عمل حسابه من جداول " Barometrische öhenstufen " فى كتاب ' Jordan Mathematische und Geodatische Hulptafeln " عن درجة حرارة الهواء المقابلة لمتوسط قراءات الترمومتر فى نهايتى الخط .

وكانت المناسيب المعتمدة عن ١٣ معسكراً كما تعينت بالطريقة المبينة قبلاً كما هى مبينة بالجدول بعد ومما هو جدير بالملاحظة أن باقى فرق الارتفاع الذى وزع بين سيوه والفاشر والذى فرض أنه نشأ من ميل خط الضغط المتسلسل كان (٦٣) متراً وهو يعادل هبوطا عاديا فى الضغط عند سطح الماء بين المحلين بمقدار (٥) مليمتر من وجهة أخرى فهذا محتمل قربه من الحقيقة وان التصحيح النهائى الذى عمل فى مناسيب أى جزء رئيسى من الطريق لا يتجاوزه أمتار

الارتفاعات المستنتجة فوق سطح البحر

	عدد الارصاد	متوسط الضغط مصححا بالمليمتر	متوسط درجة الحرارة سنتيجراد	فرق الارتفاع من واقع جداول بالمتر	فرق الارتفاع مصححا بالمتر	الارتفاع فوق سطح البحر بالمتر
سيوه	٤	٧٦٢و٦	١٢	—	—	— ١٧
جغبوب	٥٠	٧٥٧و٧	١٥	+ ٥٤	+ ٤٩	+ ٣٢
جالو	١٨	٧٥٤و٧	١٧	+ ٣٤	+ ٢٩	+ ٦١
الحراش	٦	٧٣٢و٨	٢٣	+ ٢٥٤	+ ١٤٩	+ ٣١٠
تاج	٣١	٧١٨و٥	١٩	+ ١٧٠	+ ١٦٥	+ ٤٧٥
اركنو	١٢	٧٠٨	٣١	+ ١٢٨	+ ١٢٣	+ ٥٩٨
العوينات	١٤	٧٠٦و٣	٣١	+ ٢١	+ ١٨	+ ٦١٦
اردى	٧	٦٨٣و٣	٣١	+ ٢٩٥	+ ٢٩٠	+ ٩٠٦
اجاه	٣	٦٩٥و٢	٣٤	— ١٥٧	— ١٦٢	+ ٧٤٤
باو	٥	٦٧٧و٧	٣٣	+ ٢٣٠	+ ٢٢٥	+ ٩٦٩
القوراوية	١١	٦٨٥و٨	٣١	— ١٠٧	— ١١٢	+ ٨٥٧
ام بورو	٨	٦٧٩و٥	٣٠	+ ٨٣	+ ٧٨	+ ٩٣٥
القطوم	٥	٦٦٠و٢	٢٤	+ ٢٥٤	+ ٢٤٩	+ ١١٨٤
القاشر	٥	٦٨٩و٧	٣١	— ٣٨٦	— ٣٩١	+ ٧٩٣

بعـد تحديد مناسيب المعسكرات الرئيسية عمـل حساب المعسكرات المتوسطة ومحلات أخرى بنفس الطريقة مع تصحيح كل جزء من المناسيب المعتمدة فى النهايات واقصي تصحيح كان يلزم لتطبيقه على فروقات الارتفاع الذى نتج من قراءات البارومتر بين نقطتين فى سفر يوم واحـد بلغ خمسة أمتار والمتوسط ثلاثة أمتار واستثنى من ذلك المسافة بين جغبوب وجالو حيث لم تعتمد مناسيب فى الطريق بينهما لعمل الخريطة نظراً لصعوبة وعدم ثبات حالة الجوّ مدة السفر بين هذين المكانين وحدثت زوابع شديدة فى عدة أيام من السير كان يصحبها اختلافات سريعـة فى الضغط الهوائى حتى انه لم يمكن بالضبط الحصول على نتائج ارتفاعات من قراءات البارومتر

وأما بخصوص درجة الاعتماد على المناسيب المستنتجة فيحوم حولها شك فى المناسيب المعتمدة على النقط النهائية وهى سيوه والفاشر بينما لم يُختبر تكافؤ الحرارة فى البارومترا وربمـا لم يـكن مضبوطـا وإذا اعتبرنا كل شىء فيمكن اعتبار المنسوب عن المعسكرات الرئيسـية محتمل الصحة الى ٢٠ متر بينما المنسوب عن المعسـكرات الوسطى والنقط الأخـرى التى أخذ فيهـا قراءة أو قراءتان للبـارومتر ربما كان الخطأ فيـه ضعف هـذه الـكمية

٧ — ملخص المواقع الجغرافية الرئيسية والمناسيب

	خط العرض شمالا	خط الطول شرقا	الارتفاع عن سطح البحر بالمتر	ملحوظات
جغبوب المسجد	٤١" ٤٤' ٢٩°	١١" ٣١' ٢٤°	٣٢	أخذ الموقع المعين
جالو (العرج)	٣٣" ٢' ١٩°	٣" ٢٨' ٢١°	٦١	سابقاً بمعرفة الدكتور بول
بئر أبي الطفل	٢٦" ٥٤' ٢٨°	١٥" ٥٤' ٢١°	٩٨	
الحراش بئر زيغن	٢٩" ٢٦' ٢٥°	٥٥" ١٠' ٢٢°	٣١٠	
تاج (الكفرة)	٤٧" ١٣' ٢٤°	٤١" ٢٣' ٢٣°	٤٧٥	
بويمة الكفرة — معسكر رولفس	٨" ١٣' ٢٤°	٤٠" ٢٤' ٢٣°	٤٠٠	ترافرس قصير
اركنو	٣٢" ١٢' ٢٢°	١٥" ٤٤' ٢٤°	٥٩٨	بالبوصلة منت من تاج
العوينات	٢٩" ٥٢' ٢١°	١٦" ٥٤' ٢٤°	٦١٦	
اردى (معسكر ٨ كيلومتر شمالي البير)	٣٩" ٣٥' ١٨°	٢٩" ١٠' ٢٣°	٩٠٦	
اجاه	٣٨" ٥٢' ١٧°	٥٥" ١٥' ٢٣°	٧٤٤	
(انيباه)	٢٤" ٢١' ١٧°	٢٨" ١٤' ٢٣°	١١٠٠	
باو	٢٤" ٢٨' ١٦°	٤٧" ١' ٢٣°	٩٦٩	خط الطول من خرائط
الفوراويه	٥١" ٢١' ١٥°	١٠" ٣٨' ٢٣°	٨٥٧	السودان

٨ ـ تكوين خريطة الطريق بمقياس $\frac{١}{مليون}$

فى عمليـة استعمال المقاس المبـاشر فى تعيين خطوط الطول للمعسكرات الرئيسية رصد الطريق احتياطيا بمقياس $\frac{١}{نصف مليون}$ مباشرة فى دفاتر الارصاد على سلسلة لوح يحتوى كل جزء منها على جزء من الطريق وعلى رسم هذه اللوح اضيفت المناسيب المحسوبة عن كل معسكر والمعالم الجغرافية تعينت بانحرافات فرعية على جانبى الطريق بمذكرات على طبيعة الارض والاجزاء المختلفة التى رسمت احتياطيا بمقياس $\frac{١}{نصف مليون}$ صغرت بمقياس $\frac{١}{٢ مليون}$ مع اعتبـار الفروقات البسيطـة فى توقيعات الرسم عن مقيـاس $\frac{١}{نصف مليون}$ كما وقع من واقع خطوط العرض المرصودة . والاجزاء المختلفة المصغرة توقعت على الخرط النهائية بين المواقع المعتمدة نهائياً للمعسكرات الرئيسية

ووجد عمليا بيان الطبيعة الجغرافيـة الرئيسية على الخريطـة النهائية ولو ان المذكرات عن طبيعة الارض اضطر الى اغفالها لعدم ازدحام الخريطة ومع ذلك فان هذه المذكرات حفظت على خرائط قطاعية أصلية بمقياس $\frac{١}{نصف مليون}$ فى قلم مساحة الصحارى بمصر حتى يمكن الرجوع اليها فى المستقبل بينما روحها ادمجت في رواية حسنين بك عن هذه الرحلة

ورسم الجزء الرئيسى فى الطريق وهو من جغبوب الى الفوراوية من واقع مذكرات حسنين بك اليومية ودفاتره . ونقلت الاجزاء الخاصة بالطريق من السلوم الى جغبوب فى الشمال ومن الفوراوية الى الابيض فى الجنوب من واقع الخرائط الرسمية الحديثة لمساحة مصر والسودان باعتبار انها ادق من طريقة مساحة الطريق . وقد ساعد تحديد مواقع الحراش والتاج من واقع ارصاد حسنين بك على تحديد الطريق فى رحلة حسنين بك السابقة مع المسز فوربز فى سنة ١٩٢٠ - ١٩٢١ بطريقة أضبط عن الارصاد الاصلية لتلك الرحلة التى لم تعزز بارصاد فلكية . وقد حدد الطريق السابق من واقع تحديد المواقع الحديثة وتبين بخطوط مقطعة على الخريطة الجديدة

٩ - اضافات لمعلوماتنا الجغرافية نتيجة هذه الرحلة

جالو يتفق اول جزء قطعه حسنين بك فى طريقه من جغبوب الى جالو بالطريق الذى قطعه رولفس فى سنة ١٨٦٩ وعند (جاراماتان سيدى) فى منتصف الطريق بين جغبوب وجالو يتفرع الطريق وقد اتبع حسنين بك الفرع الشمالى من الطريق المعروف بطريق «الزاوية» والذى يمر بآبار (هزيلا) ويتصل بجالو بطريق اقرب الى الشمال من الفرع الجنوبى المعروف بطريق المجابرة الذى اتخذه رولفس . ويتفق الموقع الذى حدده حسنين بك بالموقع الذى حدده

رولفس ولكن هناك اهتماما خاصا فى تعيين منسوبها بمعرفة حسنين بك بمقدار ٦١ مترا فوق سطح البحر وقد وجد رولفس عند مازارها سنة ١٨٦٩ — و ١٨٧٩ ان البارومتر يبين منسوبا اقل من سطح البحر فى سنة ١٨٦٩ وفوق سطح البحر سنة ١٨٧٩ وبناء على ذلك استنتج ان كل من «هزيلا» و «جالو» تقع عند سطح البحر (انظر مذكرات رولفس عن الكفرة سنة ١٨٨١ صفحة ٢٢٦) وتَعْتَمد تعيينات حسنين بك على ارصاد البارومتر مدة عشرة ايام مع مقارنته بسيوه

ومما يستحق الذكر ان نفس المنسوب المستنتج لجالو هو ٦١ مترا سواء أعملت المقارنة بالبارومتر المعيار فى محطة الارصاد الجوية فى سيوه فى نفس هذا الوقت ام من قراءات اخذها حسنين بك بنفس البارومتر فى ٤ أيام مختلفة فى سيوه قبل ذلك بشهرين (مع حال الاختلاف السنوى عن الضغط فى المدة بين الوقتين) ولا شك فى دقة تعيينات حسنين بك اذ لم تسمح الفرصة لقراءات رولفس ان تمتد مدة طويلة كهذه ومن المؤكد انها لم تقارن فى نفس الوقت بمكان ذى منسوب معلوم . ومما يجدر ذكره ان المنسوب الذى يشير اليه حسنين بك هو عن نقطة رصد اعلى من النقطة التي اتخذها رولفس وذلك نظراً لاحاطة الرمال بالمنازل وعليه شرع سكان العرج فى بناء منازلهم من جديد على ارض اعلى واخذت ارصاد حسنين

بك على أحدث مسكن من هـذه المساكن . وهناك نقطة اخرى
تستحق الذكر وهى انه ولوان تعيينات حسنين بك صار مراجعتها
بالموافقة التامة بين الطريقتين المتبعتين فى المقارنة المذكورة آنفاً
فان اختـلافات الضغط المرصودة من يوم الى يوم عنـد جالو تزيد
كثيراً عن سيوه فى نفس عشرة الأيام التى أخذت فيهـا الارصاد
وأكبر مدى أظهره البـارومتر عند جالو كان عشرة مليمترات من
معيار البارومتر فى سيوه . والسبعة مليمترات هى متوسط الضغط
بين المحلين عن عشرة ايام المقارنة والتى استعملت فى حساب المنسوب
الجـديد هى عبـارة عن متوسط الفرق الذى يختلف من ١ ـ ١٢
مليمتر فى ايام مختلفة . والاختلاف الـكبير للضغط الجوى عنـد
جالو يفسر عدم اتفاق نتائج رولفس فى تواريخ مختلفة اذ ربما له صلة
بالزوابع الرملية التى يكثر حصولها فى هذه المنطقة

بئر ابو الطفل (او باتيفال كما سماها رولفس)

هى من الاهمية بمكان لانها آخر محل فى طريق القوافل التى
تخترق الصحـارى الوعرة بمسافة طولها ٤٠٠ كيلو متر حتى تصل
الى (زغين) . وموقع بئر ابو الطفـل كما عينه حسنين بك يتفق
بحالة جيدة مع الارقام التى اعطاها رولفس (انظر

Mitt. Afrik Geo, Band II 1880-1881 p. 17.

	خط عرض شمالا	خط طول شرقا	ارتفاع فوق سطح البحر
ارقام حسنين بك	٢٨° ٥٤' ٢٦"	٢١° ٤٥' ١٥"	٩٨
ارقام رولفس	٢٨° ٥٦' ٢٢"	٢١° ٤٤' ١٠"	٥٨
الفرق	ـ ١' ٥٦"	ـ ١' ٥"	٤٠

زغين (سرهن كما سماها رولفس)

وهى اسم للمنطقة التي بها عدة آبار وليست آهلة بالسكان وأهميتها تنحصر فى وقوعها فى طريق القوافل من جالو الى الكفرة. والبئر الرئيسى المستعمل للقوافل هو بئر الحراش . ولم يزر رولفس زغين وانما سافر من جالو الى الكفرة بطريق أكثر غربا عن طريق (تيزربو)و(بوزيما) والموقع المعين لزغين على الخريطة بنى تعيينه على اقوال مرشديه وهو على بعد ١٠٠ كيلو متر شرقا من الشمال الشرقى عن موقعه وبما ان المسير لأى سائح من جالو الى الكفرة فى المستقبل ينتظر تنفيذه فى الشتاء فى الوقت الذى فيه اهمية الوقود تلى اهمية المياه فمن المهم ان يلاحظ ان اول احطاب للوقود توجد على بعد ٣٤٢ كيلو متر بعد بير ابو الطفل وعلى بعد ٥٢ كيلو متر قبل الوصول الى بئر الحراش . وفى حالة الطوارئ يمكن الحصول على المياه من (ماتان ابو حوش) وهو البئر القديم بزغين الذى يبعد ١٨ كيلو مترا قبل الوصول الى الحراش ولكن الحراش

مياهها الطف وهى المركز المعتاد الذى تروده القوافل ويمكن الحصول فيه على المياه بدون حفر وعلى ذلك فالقوافل ان لم تكن فى شدة الظمأ تفضل الذهاب الى الحراش عن الوقوف عند البئر القديم ويمكن الحصول على احسن مياه في جوار الحراش بالحفر الى عمق (٣) او (٤) اقدام وتبعد الحراش عن بوزيمة بمقدار ٥٤ كيلو متراً فى اتجاه منحرف قليلا شرقا عن الجنوب وتبعد الحراش عن التاج وهى أهم مدينة فى إقليم الكفرة بمقدار ١٨٠ كيلو متر فى اتجاه جنوب شرقى

تيزربو

وهى أقصى واحة فى إقليم الكفرة من الجهة الشمالية الغربية ولم يزرها كما هو معلوم احد من السواح منذ ايام رولفس وموقعها كما عينه حسنين بك يقع بين درجتي °٧٠ و°٨٠ غرب شمال الحراش على بعد بين ٦٠و٧٠ كيلو متر وهذا التعيين يضع تيزربو فى الموقع الذى عينه رولفس . وموقع معسكر رولفس عند قصر (جيران جدى) ربما كان يقرب من الحقيقة . ولو انه محتمل كون الواحة فى الحقيقة أقل حجما عما يبنها فى خريطته

بوزيما

ولو ان بوزيما لم يطرقها حسنين بك فى هذه الدفعة الا ان

تعيينه لموقع الحراش بالاتفاق مع ترافرس البوصلة التقريبي لموقع
بوزيما عند سياحته مع المسز فوربز سنة ١٩٢١ يسمح لتعيين موقعها
على درجة متوسطة من التقريب . وتقديرات حسنين بك عن
المسافات والانحرافات فى سياحته السابقة صار تصحيحها بمقتضى
خطوط العرض المرصودة عن الحراش وتاج والتى تعين موقع
معسكره في بوزيمه على بعد ٦٠ كيلو متر من الحراش في اتجاه
خمسة درجات شرقا من الجنوب الحقيقي. ومن معسكره الى معسكر
رولفس (عين النصرانى) يبلغ ١٥ كيلو متر تقريباً في اتجاه غربى
من الشمال الغربى الحقيقى وباعتبار تعيين حسنين بك الحديث لموقع
الحراش يعين موقع معسكر رولفس على بعد ٣٠ كيلو مترا عن
موقعه فى الاتجاه الجنوبى الغربى نحو الجنوب حسب ماعينه رولفس
كما يتبين من المقارنة الآتية

	خط عرض شمالا	خط طول شرقا
بوزيمه (معسكر رولفس من ارصاد اشتيكر)	٢٥° ١١′ ٤٢″	٢٢° ١٥′ ٠″
بوزيمه (معسكر رولفس من تقدير حسنين بك)	٢٤° ٥٨′ ١٣″	٢٢° ٥′ ٤٦″
الفرق	٠ ١٣′ ٣١″	٠ ٩′ ١٤″

ويتعذر القول بامكان خطأ حسنين بك بمقدار ٢٥ كيلو متر
فى تقديره السابق لبعد بوزيمه عن الحراش ولذا نرى حقا اعتبار
حصول خطأ اما فى ارصاد اشتيكر او فيماهو اكثر احتمالا فى تحويله

لهذه الارصاد . وهذه النقطة سيشار اليها فيما بعد عند المناقشة على موقع بويمه

السكفرة (كبابو كما سماها رولفس)

اسم الكفرة الآن لايطلق على العموم على جميع واحات الكفرة كما فعل رولفس فى سنة ١٨٧٩ ولكن بصفة خاصة يطلق على الجزء الذى أطلق رولفس عليه اسم كبابو ومقر الحكومة المحلية والمستعمرة الرئيسية هى المدينة ذات الاسوار المسماة تاج الواقعة على قمة جبل صخرى يشرف على أودية الصحراء الحقيقية التى تقع فى الجنوب وتشمل القرى جوف ـ بومه ـ بويمه ـ الزروق ـ الطلاليب ـ الطلاب . وقد اجرى حسنين بك خط العرض عند تاج وتقدم بنحو (٣) كيلو متر على انحراف (١٦°) درجة غربا من الجنوب الى جوف ومن هنالك اجرى تقديرات مضبوطة عن البعد والانحراف عن باقى قرى الواحة وبها تمكن من توقيع مواقعها النسبية على الخريطة بدقة اقرب الى الحقيقة من ذى قبل

وتعلق أهمية عظمى لموقع بومه اقصي القرى شرقا فى اقليم الكفرة لانه عسكر هنالك اشتيكر ورولفس ورصدا خط الطول والعرض سنة ١٨٧٩ وقد عين حسنين بك بويمه على بعد ٢ كيلو متر من تاج فى اتجاه شرقى من الجنوب الحقيقى . وباعتمادنا تعيينه

لموقع تاج نحصل على المواقع الآتيـة لبويه عند مقارنتهـا بارقام رولفس

	خط عرض شمالا	خط طول شرقا
بويه كما عينها حسنين بك	٢٤ ١٣ ٨	٢٣ ٢٤ ٤٠
بويه كما عينها رولفس(انظر	٢٤ ٣١ ٣٨	٢٣ ١٢ ٤٠
(mitt afrik Ges., Band; 1880-1882, p. 25)		
الفرق	—١٨ ٣٠—	—١٢—

وعلى ذلك عين حسنين بك موقع بويه بمقدار ٤٠ كيلو متر الى جنوب الجنوب الشرقى من الموقع الذى عينه رولفس من واقع ارصاد اشتيكر واهم ما فى هذا الاختلاف الـكبير انه يقع فى خط العرض الذى رصد مباشرة بمعرفة اشتيكر عند بويه نفسهـا وبمعرفة حسنين بك فى تاج على بعد ٢ كيـلومتر من بويه . ولم استطع شخصيا العثور على اى تفاصيل لارصاد اشتيكر اللهم الا انها اجريت بواسطـة دائرة منشورية ولـكنى عرضت بيانات حسنين بك الاصلية عن ارصاده عن الوقت وخط العرض فى تاج الى التمحيص الدقيق فوجـدت برهانا قاطعا ان خط العرض الذى عينه لايتجاوز الخطأ فيه ١ دقيقة واحدة . وقد رصد ارتفاع النجم القطبي عند تاج فيما لا يقل عن٦ ليالى مختلفة بساعة خطؤها بالنسبة

للوقت المحلى كان معروفا بالضبط بارصادعلى الشمس والنجم اجريت فى نفس هـذه التواريخ . ومن الفحص العميق للارصاد لايتجاوز الشك فى خطأ الساعة التى رصـد بها النجم القطبي عن ٢ ثانية فى الوقت وهـذا الخطأ بالطبع لايؤثر فى تعيين خط العرض . ومما يؤكد ان النجم المرصود هو النجم القطبي هو الانحراف عن الشمال المغناطيسى وكذلك معدل سيره فى حركته الظاهرة . واكبر فرق فى خط العرض المرصود عن المتوسط فى ارصاد ستّ الليالى لم يتجاوز ١٥ ومتوسط اختلاف اى رصد فردى عن المتوسط يبلغ ١٢ وعلى ذلك نخط عرض تاج كما عينه حسنين بك هو (٢٤° ١٣َ ٤٧ً) يمكن اعتباره صحيحا بفرق قدره ١َ وحيث انه لايوجد مجال فى خطأ بهذا القدر فى تقدير مسـافة بويمه من تاج فليس هناك محل للشك بان خط عرض بويمه الذى عينه رولفس هو اكبر بمقدار نصف درجة ومن المدهش ان يلاحظ ان الاختلاف فى حاله بوزيمه الذى يبلغ ٣١َ ١٣ً بين خط عرض رولفس وخط العرض المستنتج من اعمال حسنين بك الحديث هو من نفس الدرجـة والعلامة الجبرية مثل الفرق الذى وجد فى بويمه . وان تصحيحا سلبيا مساويا فى القدر لنصف قطر الشمس يجعل فى كل حالة نتائج كلا الراصدين متفقة تقريباً . ويعزى تفسير ذلك الى ان اشتيكر عين خط العرض برصد الحافة العليا من الشمس ظهراً وفى كل رصد من ارصاد بوزيمه وبويمه

اغفل تصحيح الارتفاع المقاس عن نصف قطر الشمس وبذلك جعل خط العرض اكبر من الحقيقة بمقدار (١٦َ) . وخطأ مثل هـذا كما يعلم كل سائح علمى يسهل وقوعه في ارصاد اجرى تحويلها بسرعة فى الموقع وفى الوقت الذى اجرى فيه اشتيكر ارصاده وعمليات حسابه في الكفرة كان هو وقائده عرضة للخطر المحقق من ضياع ارواحهما بايدى البدو وتعزى مثل هذه الاسباب لدرجة كبيرة فى اختلافات خطوط الطول فى كلا المحلين

وبناء على تعيينات حسنين بك يقع معسكر رولفس في بوزيمه على خط طول اكثر شرقا من خط الطول الحقيقى بمقدار ٩َ . ويقع معسكره فى بويمه اكثر غربا من خط الطول بمقدار ١٢َ . وما علينا الا ان نفرض ان اشتيكر رصد حافة الشمس السفلى في الصباح في بوزيمه والحافة العليا بعد الظهر في بويمه لايجاد الوقت المحلى وفى كلتا الحالتين اغفل تصحيح الارتفاع المرصود بمقدار نصف القطر وبذا يمكننا ان نعلل تماما كلا الاختلافين فى خط الطول

ومما يدعو الى الحيرة فى تفسير الخطأ فى خريطة رولفس هو ان رولفس قطع المسافة بين بوزيمة وبويمة وقدرها بمقدار ١٢٠ كيلو متر (انظر (Mitt. Afrik Ges Band; 1880-1881 p. 23)

بينما عين حسنين بك هـذه المسافة بزيادة ٤٠ كيلو متر وبما

ان أقوال رولفس عن المسافة كتبت بعد ماتعينت المواقع فلكيا فمن المحتمل انه حصل على البعد ١٢٠ كيلومتر بالحساب من واقع الأرصاد الفلكية لاغيا التقدير التقريبي الذى ربما يكون قد قدره من واقع زمن سيره . واعتبر كل من حسنين بك ومسز فوربز ان المسافة الحقيقية كانت اكثر من ١٢٠ كيلومتر حينما قطعاها فى سنة ١٩٢١ ولكن بما انهما لم يعينا المواقع بالرصد فبقى من المشكوك فيه ما اذا كان هناك خطأ فى تعيين مواقع بوزيمه وبويمه على خريطة رولفس ولكن الان برهن عمليا ان كلا هذين الموقعين على خريطة رولفس كانا خطأ

واما بخصوص منسوب الكفرة فمن الباعث للارتياح اتفاق ارقام حسنين بك مع ارقام رولفس . وقد اعطت قراءات حسنين بك للبارومتر جنوب جوف عند (عزيله) ان الارتفاع عن سطح البحر هو ٣٨٩ متر ويقدر ان بويمه تقع اعلى من ذلك بعشرة امتار فيكون ارتفاع بويمه نحو ٤٠٠ متر عن سطح البحر وهذا الرقم يتفق مع رقم رولفس . وبنى التاج على قمة جبل شمال جوف منذ ايام رولفس وعين ارتفاعها بمقدار ٤٧٥ مترا فوق سطح البحر من سلسلة قراءات البارومتر فى خلال اسبوعين اما القرى الواقعة على حدود الكفرة فى شمال تاج فهى منخفضة عن تاج نفسها غير انها

أعلى بقدر محسوس عن باقى القرى الجنوبية في اقليم الكفرة. وتعلو عوازل بمقدار ٤٣٤ متر عن سطح البحر وكذلك الهوارى والهواويرى يقعان فى نفس المستوى . وهناك اتفاق تام لدرجة ما فى تقدير اتساع الكفرة من الشمال الى الجنوب. اما خريطة رولفس فتجعل فرق خط العرض بين الهواويرى والطلاب بمقدار ٣٥ كيلو متر بينما حسنين بك يعين ذلك بمقدار ٣٠ كيلو متر ولكننا عند معالجة اتساع البلدة من الشرق الى الغرب نجد فرقا فاحشا فان رولفس يقدر الاتساع من الشرق الى الغرب بين بومه والطلاب بمقدار ٤٠ كيلو متر بينما حسنين بك يقدره بمقدار ٢١ كيلو متر وبما ان رولفس يظهر انه عين مواقع كثير من القرى استنادا على اقوال العرب وليس على تقديره الشخصي الدقيق كما فعل حسنين بك فلا حاجة لنا للتردد فى اعتماد المواقع النسبية التى عينها حسنين بك باعتبارها اقرب الى الصواب . ويستنتج من خريطة رولفس ان الامتداد شرقا وغربا هو ضعف الحقيقة

والخطأ فى الامتداد شرقا وغربا (بقدر ما يخص تعيين مواقع القرى وليس فى تقدير اتساع الزراعة) هو اكبر على الخرائط التى عملت بمعرفتي وطبعت بمعرفة مسز فوربز سنة ١٩٢١ (انظر

Geographical Journal vol. 68 (1921) p. 248

وهذا يرجع الى ان المسافة بين جوف والطلاب بولغ في تقديرها عن الرحلة السابقة فقد اعطيت لى بمقدار ٤٢ كيلو متر بينما هى تبلغ بحسب تقدير حسنين بك الاخير ٢٠ كيلومتر . ومما يلفت النظر عند مقارنة حسنين بك الاخيرة عن قرية الكفرة بالخريطة التى نشرت بمعرفة مسز فوربز هو أن عزيله واقعة فى الثانية جنوب جوف بينما تقع فى الخريطة القديمة التى عملت من واقع بيانات حسنين بك وكروكياته فى شمال الهواويرى . ويعلل ذلك الى وجود بلدتين باسم عزيله وهذا الاسم يطلق محليا على اى بئر منعزل يحاط عادة ببعض النخيل ويعتبر آخر مورد مياه القوافل عند مغادرتها الواحة وعلى ذلك فالعزيلة الشمالية هى آخر بئر للسائح من الكفرة الى الشمال الشرقى نحو جغبوب والعزيلة الجنوبية هي آخر بئر في الكفرة لاى سائح متوجه نحو واداى

ومن العزيلة الجنوبية في الكفرة الى اركنو ٢٦٦ كيلومترا في اتجاه جنوب شرقى ولا توجد مياه ولا مرعى في الطريق ومن اركنو الى العوينات مسافة ٤٢ كيلومتر في اتجاه اميل بقليل الى الجنوب

واحتا اركنو والعوينات

لقد كان من اهم النتائج التى حصل عليها حسنين بك هو اثبات

حقيقة وجود واحتى اركنو والعوينات وتعيين موقعيهما وارتفاعهما بالضبط تقريباً . فلقد كان هناك رواية متداولة بانه يوجد واحتان فى او بالقرب من الزاوية الجنوبية الغربية للقطر المصرى حتى ان خريطة افريقيا بمقياس ١/٤ مليون التى نشرها

(Justus Perthes) في جوتا سنة ١٨٩٢ تبين واحة صغيرة غير مسماة وبئرا فى خط عرض (٥١َ ٢١°) وخط طول (٣َ ٢٣°) وواحة أخرى لايسكنها أحد وغير مسماة على بعد ٤٨ كيلو متر الى الشرق فى خط عرض (٥٠َ ٢١) وخط طول (٢٩َ ٢٣) وكلتا الواحتين وضعتا على الخريطة بلا شك من اقوال العرب الشائعة ويظهر انهما لم يطرقهما أى رحالة من قبل وفى الحقيقة كان وجودهما محتمل الشك جدا حتى انهما لم يبينا على الخرائط الحربية الانجليزية او الفرنسية . وانى لم استطع العثور على بيانات نشرت عن وجود واحة اركنو ولكنى وجدت ذكر واحة العوينات في احدى الرسائل الحديثة التى كتبها هاردنج كنج والقائم مقام تلهو (Lieut. Col. Tilho) وفي رسالة هاردنج كنج سنة ١٩١٣ (في المجلة الجغرافية مجلد ٤٢ صفحة ٢٤٢) عند كلامه «على صحراء ليبيا عن لسان أهلها » يقول انه سمع عن محل يسمى عوانه او عوانات فى منتصف الطريق من (مرجا) الى (الكفرة) وبها بئر ومراعى خضراء على اثر الامطار وبالخريطة التى كانت ملحقة بهذه الرسالة قدر الموقع

المحتمل لهذه الواحة على خط عرض (٣٧َ ٢١) وخط طول (٤٥َ ٢٤) وتختلف بمقدار ١٣٠ كيلو متر عن اقرب الواحتين كما بينت على الخريطة الالمانية المذكورة ويقول القائم مقام تلهو الذى اجرى استكشاف تيبستى واردى وبركو وعنيدى فى سنة ١٩١٢ — ١٩١٧ ان منطقة العوينات التى لاتزال مجهولة تقع بالتقريب بين ٢٢ و ٢٣ من خط العرض شمالا وبين ٢٤ و ٢٥ من خط الطول شرقا وعلم ان هناك طريقا بين العوينات ومرجا (انظر مجلد ٥٦ صفحة ٩٨ سنة ١٩٢٠)

اما ارصاد حسنين بك فعينت الموقع لمعسكره وارتفاعه عن سطح البحر في اركنو والعوينات كما يأتى

	خط العرض شمالا	خط الطول شرقا	الارتفاع عن سطح البحر
اركنو	٢٢° ١٢َ ٣٢ً	٢٤° ٤٤َ ١٥ً	٥٩٨
العوينات	٢١° ٥٢َ ٢٩ً	٢٤° ٥٤َ ١٦ً	٥١٦

وعلى ذلك فالعوينات تكون ٢٤ كيلو متر أبعد مما قدرها هاردنج كنج من واقع اقوال مرشده ولكنها تقع خارج الحدود الواسعة فى خط العرض التى حددها القائمقام تلهو وتبعد بمقدار ١٥٠ كيلو متر عن الموقع الذى توقع على الخريطة الالمانية تحت اسم « الواحة التى لايسكنها احد » بينما اركنو التى هي الواحة الصغيرة الواقعة غرب الواحة التى لايسكنها احد قد ثبت الآن انها تبعد

بمقدار ١٨٠ كيلو متر عن الموقع الذى تعين على الخريطة الالمانية

ويلاحظ ان اركنو هى فى داخل الحدود المصرية بينما تقع العوينات على مسافة قصيرة داخل حدود السودان الانجليزى المصرى

واهم ما فى تلك الاماكن انها تفتح مجالا لاستكشاف الزاوية الجنوبية الغربية للقطر المصرى التى لم تصلها للان الدوريات العسكرية ولا أجرأ المستكشفين نظرا لعدم توفر اى معلومات اكيدة عن وجود موارد المياه المستديمة ومواقعها . والان وقد بينت بالضبط مواقع اركنور والعوينات وعرفت مواقع موارد المياه الصالحة للشرب بكميات معقولة فقد اصبح من الممكن على اى رحالة من مصران يصلها ويحصل على المياه اللازمة له فى عودته

ولكني لازلت اقول إن الوصول الى اركنو والعوينات من مصر . ليس من السهل نظرا لوجود صعوبات عظيمة ولو ان كلا الواضعين للخريطة الالمانية والمستر هاردنج كنج علم لهم انه يوجد طريق قديم من مصر يصل الى العوينات ومن اقوال مرشد المستر هاردنج كنج انه يوجد طريق من الواحة الداخلة بطول ٦٠٠ كيلو متر يخترق صحراء بلا ماء وعلى ذلك تكون الرحلة بين المكانين متعذرة على الجمال حتى فى فصل الشتاء بينما صلاحية

الارض لمرور السيارات وخصوصا فى المنطقة الجبلية حول الواحات ليست معلومة للان

واهم مايذكر عن طبيعة اقليمى اركنو والعوينات ان ارضهما ليست منخفضات طبيعية تستمد ماءها من مياه الرشح فى قاع الارض كباقي واحات صحراء مصر الغربية ولكنها مناطق جبلية تستمد ماءها من مياه الامطار المحلية التى تتجمع فى احواض صخرية

ووادى النيل فى خط العرض نفسه لا توجد فيه تقريبا اى امطار ولكن هناك على بعد ٧٠٠ كيلو متر غربا فى الصحراء تنزل فيه امطار كافية أن تكون موردا مستمرا وان كان محدودا (وفى العوينات فهو كاف بحاجيات مستعمرة يسكنها ١٥٠ بدوى) وفى وقت ما من السنة تنبت الحشائش لمرعى الحيوانات فى الوديان المنخفضة . ومستوى الارض فى هذه المنطقة ٦٠٠ متر فوق سطح البحر ولكن الجبال المجاورة للواحة تعلو ١١٠٠ متر عن سطح البحر ومن الصعب ان يكون هناك شك فى العلاقة بين الامطار وبين نظرية تاثير الجبال حيث ان الجبال تجذب السحب او تساعد فى تكوينها . وبهذه المناسبة يجدر بالذكر ان عدم وجود الزرع فى الاراضى المستوية البعيدة فى الجنوب كما فى الاراضى التى فى الشمال يبرهن على ان سقوط الامطار فى المناطق غير الجبلية اقل منه فى المناطق الجبلية حول هذه الواحة .

ولو انه نادر فى صحراء مصر الغربية الا ان هـذه الاحواض الصخرية معتاد وجودهـا فى الصحراء الشرقيـة بالقرب من البحر الاحمر حيث تسمى (Galts) انظر كتابى عن جغرافية وجيولوجية صحراء مصر الشرقية سنة ١٩١٢ صفحة ٢٤٠ — ويكون وجودها فى اردى وعنيدى من منطقة افريقيا الفرنسية الاستوائية كما نعلم من اكتشافات تلهو وحسنين بك

وان العوينات التى فيها جبال اعلى من اركنو بها مياه احسن واغزر . واحفظ مياه طول مدة الجفاف محكوم بعضه بطبيعة الصخور التى تتكون منها الجبال والتى لاتتسرب منها المياه وبعضه بوجود البرك المستترة تحت حماية الصخور فى اوعية صخرية تقلل من التبخر

وكان امتداد جبال اركنو والعوينات لا يزال مجهولا ولكنها نحو ١٠٠٠ كيلو متر مربع . وطريق حسنين بك واقع غرب السفح الغربى لهذه الكتل حتى أن حدودها الغربية تحققت وكذلك امتدادها الشمالى والجنوبى . ولكن حدودها الشرقية فى مصر لاتزال مجهولة . ومما فيه ريب وجود سلسلة من التلال تربط الكتلتين من الجبال ببعضها شرقاً . وأجرى حسنين بك استكشافاً يمتد ٤٠ كيلو متر شرق معسكره فى العوينات دون أن يصل إلى

نتيجة الكتلة الجبلية . ويمكن رؤية الجبال على مسافات بعيدة من الشمال والجنوب . وقد أمكن رؤية أركنو على بعد ٦٠ كيلو متر من الشمال والعوينات بقيت مشاهدة على الأقل على مثل هذه المسافة من الجنوب فى الطريق . ويحتمل أن لا تكون هذه الجبال ظاهرة للرحالة من جهة الشرق نظراً إلى تكوينها من عدة تلال صغيرة غير متصلة ببعضها والأرض فى هذا الطرف عالية وتنحدر بالتدريج نحو النيل وسيبقى هذا غير معلوم إلى أن يحدث اكتشاف آخر .

ومسافة السفر من العوينات إلى آبار اردى تبلغ ٤٣٠ كيلو متر فى اتجاه نحو الجنوب الغربى وتقع الـ ٢٨٤ كيلو متر الأولى منها فى حدود السودان المصرى الانجليزى والـ ١٤٦ كيلو متر الباقية تقع فى حدود أفريقيا الاستوائية الفرنسية ولا يوجد على طول هذا الطريق مياه قط ولكن يجد الانسان من حين لآخر بقاعاً بها حشائش جافة وذلك فى النصف الأخير من الطريق

وقبل الوصول إلى أردى بنحو ٢٥ كيلو متر كانت الاودية مكسوة بالحشائش الخضراء وعلى ذلك فالحد الشمالى لمنطقة الامطار الاستوائية هو بالتقريب خط عرض (١٨° ٥٠َ)

اردى

يظهر أن أردى تطلق على منطقة واسعة تمتد من خط طول ٢١°
الى خط طول ٢٤° شرقاً وترتفع تدريجياً نحو الجنوب وتنتهى بجرف
متقطع شرقاً وغرباً فى خط عرض (٣٠َ ١٨°) ومنبع المياه الذى
زاره حسنين بك والذى عرفه مرشده بيئر اردى يقع فى خط
عرض (٣١َ ١٨) هو وخط طول (١٠َ ٢٣°) ويعلو عن سطح
البحر بمقدار ٩٥٨ متراً . وهـذا ليس ببئر وانما هو بركة صخرية
مشابهة لآبار اركنو والعوينات ومياهه جيدة . وبئر اردى التى
زارها حسنين بك قريبة من المنطقة المبينة على خريطة القائمقام
تلهو سنة ١٩٢٠ تحت اسم « أرديما » ويظهر أنه بنفس العين التى
زارها ذلك الرحالة . ويقع بئر اردى على رأس واد صغير تنصرف
مياهه نحو الشمال ويضطر الانسان الى صعود التلال الى ارتفاع
١٠٢٠ متراً فوق سطح البحر ثم يعبر سهلا متقطعاً قبل الوصول
الى مصارف المياه الجنوبية التى تنتهى بالجرف . وقد تقدم حسنين
بك مخترقاً هـذا السهل فى اتجاه جنوبى شرقى هابطاً من الجرف
عند خط عرض (٢٥َ ١٨°) وخط طول (٢٠َ ٢٣°) ومنسوب
قدم الجرف هو (٧٩٠) متراً فوق سطح البحر فيكون الجرف على
ارتفاع ٢٣٠ متراً

وبعد الهبوط من جرف اردى اتبع حسنين بك طريقه نحو الجنوب الى آجا مخترقاً المنخفض الرملى العظيم الذى يفصل سهول اردى عن عنيدى (على بعد ٨٨ كيلو متر من معسكره فى شمال ابار اردى) ويظهر أن هذا الطريق كان محاذياً بالتقريب للطريق الذي اتبعه القائمقام تلهو سنة ١٩١٤ وعلى بعد ٢٠ كيلو متر منه شرقا

اجـاه

منبع مياه اجاه هو بركة صخرية تشبه منبع اردى ولـكن المياه رديئة نظرا لتلويثها بالحيوانات وتبعد البركة ٦ كيلو متر فوق سطح واد ينتهى نحو الشمال بجرف يواجه جرف اردى . وموقع البركة فى اجاه يقع على بعد ٢٤ كيلو متر من ينابيع اجاه التى بينها القائمقام تلهو على خريطته . ومن المحتمل تعدد البرك والينابيع فى المنطقة المجاورة بين هذه التلول وكلها يطلق عليها هذا الاسم وهذا مما يفسر الفرق الظاهر . والطريق من اجاه الى انيباه يبلغ ٦٥ كيلو متر ويتبع خطا متكسرا وعلى العموم فى اتجاه جنوبى . ويصعد الطريق فى العشرة كيلو مترات الاولى الوادى وبعد ذلك يعلو بسرعة حتى يصل الى ارتفاع فوق ١٠٠٠ متر عن السهل

انيباه — (عنيباه)

هى مستعمرة صغيرة للبدو بها بئر مياهه جيدة تبعد نحو ٢٨

كيلو متر شرقا عن ابار كيته المبينة على خريطة القائمقام تلهو على نفس السهل العالى . ومن انيباه الى باو مسافة ١٢٠ كيلو متر متكسر جداً فى اتجاه جنوب الجنوب الغربى على سهول تلية غير مستوية . وبلغ اعلى ارتفاع دونه حسنين بك نحو ١١٨٤ مترا فوق سطح البحر وقد وصل اليه فى نقطة على الطريق تبعد ١٨ كيلو متر عن انيباه وهذا الارتفاع البالغ ٣٨٨٤ قدما هو أعلى بقليل من ٣٦٠٠ قدم التى دونهـا القائمقام تلهو كأعلى ارتفاع بلغـه على نفس سهل ارديبه في نقطة اكثر غربا ويحتمل ان هذا السهل يأخـذ فى زيادة الارتفـاع نحو الشرق . وقـد عبر وادي (كابتاركو) على بعد ٤٧ كيلو متر بعد ذلك . ومما يجدر بالذكر ان بيانات حسنين بك عينت موقعا لهذا يقرب جـدا من كابتاركو المبين على خريطة القائمقام تلهو

باو

باو التى زارها حسنين بك هى ليست بو التى زارها القائمقام تلهو والتى تقع على بعد ١٠٠ كيلو متر اكثر شمالا ولـكن هى المكان المعروف باسم (اوروبو) الواقعة على خريطة تلهو و (باو) على خريطـة واداى ودارفور التى ارفقت بالاتفاقيـة الانجليزية الفرنسية فى باريس سنة ١٩١٩ كما يتضح من المقارنة الآتية عن

المواقع المعينة بمعرفة حسنين بك والمقاسة من الخرط عن المحلين المذكورين

	خط عرض شمالا	خط طول شرقا
باو (حسنين بك)	١٦° ٢٨َ ٢٤ً	٢٣° ١َ ٤٧ً
اوروبو (تلهو)	١٦° ٣٠َ ٠٠ً	٢٢° ٥٩َ ٠٠ً
باو (خريطة الاتفاقية)	١٦° ٢٨َ ٠٠ً	٢٣° ٤َ ٠٠ً

وتقع ابار باو عند رأس الوادى الذي يصرف مياهه شمالا وتكثر فيه الشجيرات والاشجار وبه عدة آبار مستديمة . ولو ان المياه تقل في فصل الجفاف ويضطر حينئذ الى تعميقها . والطريق من باو الى الفوراوية يبلغ ١٤٥ كيلو متر في اتجاه جنوب الجنوب الشرقى على ارض مكسوة بالحشائش والشجيرات.ومر حسنين بك على بعد ٥٥ كيلو متر من دخول الفوراوية بالقرب من تل معروف بالتميره عليه جزع شجرة يابسة معتبرة كعلامة حد بين الاملاك الفرنسية وبين الاملاك الانجليزية المصرية.ولم تؤخذ ارصاد فلكية هناك ولكن نتائج حسنين بك المضبوطة بالترافرس الذى عليه تعين الموقع التقريبي للتل فى خط عرض (٤٨َ ١٥°) شمالا وخط طول (٢٧َ ٢٣°) شرقا ووادى هور المسمى (هوه) على خريطة الاتفاقية الانجليزية الفرنسية عبر على بعد ٧ كيلو متر بعد تل التميره

الخلاصة

وبالحصول على تحليل نتائج حسنين بك الذي استغرق زمناً كبيراً من وقتي لمدة تزيد عن شهرين ربما يسمح لى أن ألاحظ بأن رحلته كما يخيل لى هى فوز يكاد يكون فريداً فى تاريخ الاستكشاف الجغرافى . والطريق من السلوم إلى الأبيض مسافة ٣٣٤٥ كيلومتر أغلبه يتخلل صحراء غير مأمونة يسكنها نفر قليل من القبائل القديمة المتعصبة والتى لا يمكن لأحد أن يجتازها بدون حرس عسكرى قوى مالم يكن مسلما وذا ارادة قوية وحكمة صادقة وثبات متين ولكن حسنين بك لم يقم فقط بهذه الرحلة الشاقة وأتى بأوصاف هامة وصور شمسية عن البلاد التى مر بها فى طريقه وانما اجهد نفسه قبل القيام من مصر بعدة أسابيع للتمرين على سهولة استعمال التيودوليت وفى الحصول على معلومات عن أحسن طرق مساحة الاستكشاف التى تستعمل فى استكشاف مثل هذا الذى عزم على القيام به . وقد برهن فى طول سياحته على حسن تطبيقه للمعلومات المساحية التى حصل عليها . وان الدقة والضبط فى ارصاده يشهدان بذلك عند تحليلها السابق

وأهم شىء جدير بالذكر هو قدرته على القيام بهذه الارصاد بلا مساعدو استمراره فى التحفظ على الدقة والضبط في مقاساته و بياناته

لمسافة تزيد عن ٢٠٠٠ كيلو متر والتى تفصل نقطتين فى طريقه معلومتين من ذى قبل . ومما يستحق الشكر عليه ترتيب وتفصيل طبيعة ارصاده التى جعلت أمر تحليلها عملا مقبولا لا غضاضة فيه وجعلت من السهل تخطيط طريقه وتعيين المواقع المستكشفة حديثاً على طول طريقه على الخريطة بدرجة عظيمة من الدقة

واهم الاضافات الى معلوماتنا عن الشمال الشرقى من افريقيا والتى كانت وليدة ابحاث حسنين بك هى ما يأتى

(١) الموقع الحقيقى لآبار الطيفن والكفرة الناشئ عن التغيير نحو ١٠٠ و ٤٠ كيلومتر على التوالى من الموقع السابق بيانه على خرائط افريقيا

(٢) اكتشاف واحتى اركنو والعوينات اللتين لم تعرفا من قبل وتعيين موقعيهما وسعة مناطقهما بالتقريب وبذا ينفتح طريق جديد محتمل لرحلات جديدة فى صحراء ليبيا بمناطق لم تستكشف من قبل

(٣) اكتشاف طريق فى الجنوب الغربى من مصر يجتاز سهل اردى وانيدى فى افريقيا الاستوائية الفرنسية الى دارفور وتعيين مواقع موارد المياه الواقعة عليه

وهذا الاستكشاف له علاقة مهمة ويعتبر كتتمة للاستكشافات

المجيدة الحديثة التى قام بها القائمقام تلهو فى السودان الفرنسى

(٤) تعيين مناسيب مضبوطة للبارومتر على طول الطريق وبذا امكن الحصول على معلومات قيّمة عن طبيعة تكوين الجبال فى منطقة واسعة لم يعرف عنها شئ من قبل وكانت هذه المعلومات مثبتة لاستنتاج القائمقام تلهو بانه لا يحتمل ان يوجد مخرج صرف لبحيرة تشاد فى اتجاه شرقى

استنتاجات من المعلومات الجيلوجية

التى جمعها احمد محمد حسنين بك أثناء رحلته من
السلوم الى الفاشر مخترقا صحراء ليبيا عن
طريق الكفرة والعوينات

بقلم الدكتور و . ف . هيوم
مدير قسم الجيلوجية المصرية

ترجمة

حسن صادق بك
مفتش بالقسم الجيلوجى بمصلحة المساحة

ابدأ قبل بحث المسائل التى نحن بصددها بتهنئة حسنين بك لنجاحه فى اتمام رحلة فتحت امامنا منطقة عظيمة كانت حتى الان من مجاهل الارض . والذين مارسوا منا الاسفار بالصحارى ولو قليلا لا بد معجبون بمجهوده فى قطع نيف وثلاثة الاف وخمسمائة كيلو متر فى صحراء قفرة مغلقة لأسباب سياسية او دينية فى وجه المستكشف الاوروبى . ولا بد ان يكون قد صادف فى

رحلته من الصعاب والمشاق ما اضنى من الجسم والعقل الا انه لا شك قد عوض من ذلك بلذة الشعور بالحرية الذى يبعثه وجوده فى ذلك الفضاء الذى لاحد له وترقبه الدائم لاستكشاف جديد.

وقد أظهر حسنين بك عزماً اكيداً على ان يعود بملاحظات صحيحة عن كل ماله أهمية علمية فحصل بذلك على مجموعة ثمينة من النماذج الجيلوجية والصور الفتوغرافية تجعل من السهل على من خبروا جيولوجية الصحارى المصرية خبرة عملية ان يصلوا الى نتائج صحيحة عن التركيب الجيولوجى للمنطقة التى اخترقها .

وحيث كنت غائباً عن مصر عند عودة حسنين بك فقد قام المستر مون بفحص هذه النماذج والعينات وقد ارفقت مع هذه المذكرة ملاحظاته والنتائج التى وصل اليها وعند فحص النماذج والصور الفتوغرافية التى عرضها علينا حسنين بك لفتت نظرى النقط الآتية بوجه خاص : —

(١) وجدت ما بين واحتى سيوه والجغبوب قطع من الاخشاب المتحجرة جاءنا من بعضها بقطع وصور البعض الآخر . وفى هذا دليل على امتداد ما نسميه (الغابات المتحجرة) امتداداً عظيما نحو الغرب . كذلك يبعث عندنا الرغبة فى فحص المنحدر الجنوبى لهضبة برقة حتى الحدود الغربية المصرية بما فى ذلك الجزء المرقوم « لم

يستكشف » على خريطة القطر المصرى الجيولوجيـة مقياس ١/١٠٠٠٠٠٠ .

(٢) تدل نماذج المحارات أوستريا فيرليتى (Ostrea Virleti) وأوستريا ديجيتالينا (Ostrea digitalina) وهى من الحفريات الشهيرة التابعة للعصر الميوسينى أن واحة الجغبوب واقعة فى صخور تابعة لنفس التكوين الجيولوجى الموجودة فيه واحة سيوة وهو تكوين تابع للجزء المتوسط من العصر الميوسينى . كذلك تدلنا العينة رقم ٣ على امتداد هذا التكوين نفسه فى اتجاه واحة جالو .

(٣) وهناك عينات من حجر جيري صلب التقطت عند نقطة رمز اليها بحرف (A) على الخريطة المرفقة بمذكرات المستر مون على بعد قليل جنوبي خط العرض ٢٨٥ شمالا . ومن بينها قطعة من صخر مكون من بقايا محارات يغلب ان تكون تابعة للعصر الميوسينى ايضاً . اما العينات الاخرى فيحتمل ان تكون من طبقات تابعـة للعصر الايوسيني او الكريتاسى اذ ان هناك طبقات تابعة لهـذه العصور وتمتد على هذا الخط شرقى الحدود المصرية على ان خلوهذه النمـاذج من الحفريات يتعـذر معه البت فى عمرهـا الجيولوجي بطريقة اوضح

(٤) من يوم ٢٠ الى ٢٤ مارس كان حسنين بك يخترق سهلا

منبسطاً عظيما وقد يدعونا ذلك الى التساؤل عما اذا كان هذا السهل نتيجة تأثير عوامل التفتّت والتعرية على الطبقات الطينية والرملية الرخوه التى توجد عادة بين الاحجار الجيرية الكريتاسية والطبقات الصلبة من التكوين المعروف عند الجيولوجيين بالحجر الرملى النوبى .

(٥) وسواء أصح هذا الاعتبار أم لم يصح فقد ابان لنا المستر مون ان حسنين بك وصل الى اول طبقات التكوين الرملى النوبى عند نقطة تبعد قليلا الى الشمال من الحرش (الظيغن) وعينات الصخور التى التقطت من هذه النقطة جنوباً الى النقطة المرموز لها بحرف (C) على الخريطة كلها انواع مختلفة من هذا التكوين الرملى الذى يغطى مناطق هائلة فى مصر والسودان .

(٦) وهناك أهمية خاصة لاكتشاف احجار جرانيتيه فى واحات العوينات واركنو والنوع الشائع بين هذه الصخور الجرانيتية هو البجماتيت المكون من بلورات كاملة من الفلسبار والكوارتز (المرو) والهورنبلند . وقد اظهرت لنا الصور الفتوغرافية أهمية تأثير درجة الحرارة على سطوح هذه الصخور فترى سفح الجبل منثورة عليه جلاميد عظيمة من الصخر قد انفلق بعضها من جراء تغيير درجة الحرارة الى قطع كبيرة لا يشك الناظر اليها فى انها كانت فيما

مضى قطعة واحدة .

اما فيما يختص بالعلاقة بين الجرانيت وطبقات الحجر الرملى النوبى فيلاحظ ان جبل الجرانيت مرتفع ارتفاعاً كبيرا عن طبقات الحجر الرملى التى تحيط به وهذا الفرق فى الارتفاع يمكن تفسيره بأحد الفروض الآتية : —

(اولا) وجود تعريج فى طبقات الارض فى هذه الجهة على شكل قبو يكون الجرانيت الجزء الأوسط منه .

(ثانياً) وجود انشقاق او فالق عظيم تسبب عنه ارتفاع الجرانيت وانخفاض الطبقات الرملية .

(ثالثاً) تدخل الجرانيت وهو في حالة ميعانه بين طبقات الحجر الرملى التى كانت تعلوه على انه بعد التحدث مع حسنين بك وفحص الصور الفتوغرافية التى لهاعلاقة بهذا الموضوع اجدنى مضطراً للاستنتاج الآتى .—

(١) من المحتمل وجود انثناء فى الطبقات على شكل قبو عظيم اذ ان طبقات الحجر الرملى ترى مائلة نحو الناظر فى الصورة السينماتوغرافية التى عرضها حسنين بك والتي ترى فيها حملته فى طريقها بوادى العوينات

وهذه الظاهرة معروفة ايضاً في بعض النقط جنوب واحة

الخارجة حيث توجد طبقات الحجر الرملى النوبى مائلة ميلا ظاهراً عن الجرانيت واذا بحثنا الفرض الثالث فليس هناك فى اى جهة من جهات القطر المصرى مايدل على تدخل الجرانيت فى حالة ميعانه بين طبقات الحجر الرملى النوبي وبالعكس ففى جميع الحالات التى تظهر فيها علاقة الجرانيت بهذه الطبقات النوبية قد قام البرهان على ان تكوين الجرانيت سابق لتكوين الطبقات الرملية وانه قد تعرض فعلا لعوامل التعرية قبل رسوب تلك الطبقات الاخيرة على سطحه .

(٣) ففى انتظار سنوح فرصة لدراسة هذه المسئلة دراسة مفصلة نحن ميالون للأخذ بالفرض الذى يعزو الفرق فى الارتفاع بين الجرانيت وطبقات الحجر الرملى النوبى الى أن الطبقات فى تلك المنطقة قد سبق انثناؤها فى شكل قبو مستطيل نواته الجرانيت تحيط به طبقات الحجر الرملى النوبى . ولو أن ذلك لا يمنع بقاء الفرض الآخر أى وجود فالق عظيم نتج منه ارتفاع الكتلة الجرانيتية الى ارتفاع يعلو سطح الطبقات الرملية التى كانت تعلوه قبل ذلك أو أن الطبقات الرملية هى التى انخفضت على الجانب الآخر من ذلك الفالق الى مستوى أوطأ من الجرانيت .

وهناك ظاهرة أخرى على جانب من الأهمية وهى وجود

رسوم متقنة الصنع على سطح جلاميد الجرانيت تمثل الزراف والنعام . وقد أخبرنا حسنين بك أن الجمل لم يمثل بين هذه الصور وليس بينها مع الأسف صور مفصله للانسان . ويحتمل أن تكون هذه الصورة من صنع الانسان فى العصور القديمة فى وقت كان هذا الجزء من شمال أفريقيا يتمتع بأمطار أغزر من الوقت الحاضر

وبالاختصار فرحلة حسنين بك قد أبانت لنا امتداد طبقات العصر الميوسينى والتكوين الرملى النوبى غرباً الى مدى أبعد من الحدود الغربية المصرية وهى فى تلك المناطق محتفظة بنفس الخواص التى لها بالصحارى المصرية . كذلك يفتح استكشاف واحة جديدة فى صخور جرانيتية فى هذا الجزء من الأراضى المصرية طريقاً أخرى بين دارفور والواحات الداخلة ويعطينا قاعدة يمكن الاعتماد عليها للحصول على المياه لمن يريد أن يزور هذه المناطق فى المستقبل ومن المهم جدا اجراء دراسة جيولوجية مفصلة لهذه المناطق

مذكرات جيلوجيـــة

عن رحلة حسنين بك

من السلوم الى دارفور سـنة ١٩٢٣

بقلم المستر ف . و . مود

ترجمة حسن بك صادق

طلب منى حسنين بك فى غيبة الدكتور هيوم مدير القسم الجيولوجى بالاجازة أن أفحص نماذج (عينات) الصخور والحفريات التى جمعها أثناء رحلته الاستكشافية بالصحراء المصرية الغربية من السلوم على شاطىء البحر الابيض المتوسط الى دارفور بالسودان . وقد تقبلت هذه المهمة بكل سرور وأقدم هنا ملاحظات مختصرة عن الظواهر الجيولوجية التى يمكن استخلاصها من العينات والصور الفتوغرافية ومن أقوال حسنين بك نفسه . ولو أن النماذج والعينات صغيرة الحجم طبعا وهى فيما يختص بالصخور النارية تظهر عليها علامات التحلل من تأثير تعرضها للعوامل الجوية بالصحراء فى سنين عدة فهى مع ذلك كافية لأن تستنتج منها معلومات صحيحة عن التكاوين الجيولوجية التى مر عليها المستكشف إبان رحلته

وقد فسر لنا الرحالة كيف أن صعوبة النقل حالت دون أن يجمع نماذج كبيرة وافية وقد أراد قدر المستطاع أن يتجنب كل ما يبعث الشك فى نفوس مرافقيه بأن لا يأتى من الاعمال ما يمكن تأويله على غير القصد منه مثل أن يكثر من تكسير الصخور وحمل قطع منها على غير المألوف بينهم

يظهر من الجدول المفصلة فيه العينات الجيولوجية وأوصافها فى ذيل هذه المذكرة أن الطريق كانت فى ابتدائها فوق صخور تابعة للعصر الميوسينى تدلنا على ذلك حفريات المحارات اوستريا ديجيتالينا (Ostrea digitalina) واوستريا فيرليتى (Ostrea Virleti) وكلاميس زيتلى (Chlamys Zittelli) وغيرها وقد جمعت سبع محارات من الاولى واثنتان من الثانية واثنتان من الثالثة وخمس غيرها تشبه كلاميس سبملفينا (Chlamys submalvinae) وهذه كلها من الحفريات المعروفة بكثرتها فى طبقات العصر الميوسينى فى الصحارى المصرية

وتمتد طبقات الميوسين الى واحات سيوة والجغبوب وجالو ثم جنوبا الى نقطة تبعد نحو ١٠٨ كيلومتر جنوبى جالو حيث التقطت آخر عينة من محارات العصر الميوسينى رقم ٤ (انظر العينات رقم ١ — ٤) ومن هذه النقطة الأخيرة المرقوم لها بحرف

"A" على الخريطة المرفقة تستمر الطريق فى سهل قفر منبسط ليس به من الصخور ما له أهمية جيولوجية عدا طبقة رفيعة من الرمل والحصى حديثة التكوين تغطى سطح ذلك السهل العظيم الذى يمتد نحو مائتى كيلو متر أى مسيرة أربعة أيام مملة الى الجنوب

ولما ان بلغ نقطة تبعد ٥٠ كيلومتر شمال الظيغن رأى الرحالة أن ما حوله من المناظر قد تغير تغييراً ظاهراً وتبدل لون الصخور المحيطة به من اللون الاصفر الباهت الذى لازم الصخور الجيرية الميوسينيسة وكذلك رمال الصحراء الى ألوان ساطعة تدلنا قطع الصخور التى التقطها منها على أنها طبقات الحجر الرملى المعروف عند الجيلوجيين بالتكوين الرملى النوبى التابع للعصر الكريتاسى وقد يوجد بين هذه الألوان أحياناً اللون الازرق والاخضر ولكن اللون الاساسى هو الاحمر بجميع أشكاله من قرنفلى وطوبى وكذلك ألوان المغرة ممزوجة ببعضها البعض . وقد توجد المغرة نفسها فى شقوق تتخلل هذه الطبقات . وفى هذا دليل على امتداد التكوين الرملى النوبى امتدادا عظيما نحو الغرب اذ أن النقطة المرقوم لها بحرف "B" تبعد نحو ٦٠٠ كيلومتر الى الغرب من آخر نقطة معروفة على الحد الشمالى لطبقات هذا التكوين كما هو مبين على الخريطة مقياس ١٫٠٠٠٫٠٠٠/١ طبعة سنة ١٩١٠

ومما يلفت النظر عدم وجود عينات تدل دلالة قاطعة على وجود الطبقات الكريتاسية العليا . ومن المحتمل جدا وجودها مغطاة تحت الرمل والحصى الذى يغطى سطح السهل الواسع الذى سبقت الاشارة إليه بين النقطتين "A" و "B" على الخريطة

وهناك مسألة اخرى بقيت غامضة من جراء وجود هذا السهل السابق الذكر وهى تقرير الحد الجنوبى للطبقات الميوسينية تقريراً دقيقاً فاذا اعتبرنا أن النقطة "A" التى التقطت عندها آخر حفرية ميوسينية هى نقطة على ذلك الخط لوجدنا أن التوزيع المقترح هنا لطبقات هذا التكوين ذو أهمية من ناحيتين .

(١) دلالته على الامتداد غربا للبحر القديم الذى كان يغطى منطقة البحر الابيض المتوسط وما حوله فى العصر الميوسينى

(٢) تقوية اعتقادنا فى أن الحركات الارضية التى أدت الى انثناء طبقات الارضية فى الجزء الاكبر من مصر وشبه جزيرة سينا على شكل قبو هائل حدثت قبيل العصر الميوسينى مباشرة . وقد كان هذا القبو العامل الاكبر فى تحديد شاطىء ذلك البحر الميوسينى الذى كان على هذا الاعتبار يمتد من النقطة التى عيناها الآن بين الحرش (الظيغن) وجالو الى نقطة قريبة من واحة سيوه.

ثم يتجه الى الشمال الشرقى حتى خط عرض ٣٠° شمال ثم يتبع ذلك تقريبا حتى السويس

ويظهر أن الاراضى المصرية الواقعة بين شواطىء خليج السويس كما كانت معروفة فى العصر الميوسينى وشاطىء البحر الميوسينى بعد سيوة وللظيغن كانت أرضا يابسة فى ذلك العصر ومعرضة طبعاً لعوامل التعرية إبان مدة جيولوجية طويلة مما أدى الى انكشاف طبقات التكوين الرملى النوبى والطبقات الكريتاسية الاخرى ثم رسوب الطبقات الميوسينية فوقها مباشرة

أما الحجر الرملى النوبى فتدلنا العينات رقم ٥ — ١٠ أنه محتفظ هنا بجميع الخواص التى له فى باقى جهات الصحارى المصرية وشبه جزيرة سينا فهو حجر رملى مكون من حبيبات رفيعة مستديرة من الكوارتز تتخلله هنا وهناك كميات مختلفة من الحبات الكبيرة والحصى وقد تتغلب نسبة الحصى أحيانا فيصير الصخر من نوع الكونغلومرات . أما المواد الجيرية أو السيليسية أو الحديدية التى تحدث تماسك حبيبات الكوارتز فهى أيضاً التى تعطى الصخر لونه الذى يختلف فى عمقه باختلاف تركيب وكمية اوكسيدات الحديد الداخلة فى هذه المواد . وهذه الاوكسيدات الحديدية من جراء تأثير العوامل الجوية وعلى الاخص الامطار تتجمع فى جيوب

أو شقوق فى الصخور ويمكن اذا طحنت طحنا دقيقا أن يستعمل فى صناعة الاصباغ

وتمتد طبقات التكوين الرملى النوبى من النقطة التى انتهت عندها الطبقات الميوسينية جنوبا الى نقطة مرقوم لها بحرف "C" على الخريطة تبعد نحو ١٥ كيلومتر شمال جبال اركنو .

وباقترابه من هذه النقطة الاخيرة لاحظ الرحالة أن معالم الارض بدأت تتبدل مرة اخرى فالألوان الساطعة التى لازمت الحجر الرملى تغيرت الى ألوان قاتمة تميل الى الاسمر والاسود فى جبال من الصخور النارية يبدأ ظهورها على سطح الارض عند النقطة "C" على الخريطة وهذا التغيير فى المناظر الطبيعية الذى يصحب الانتقال من تكوين جيولوجى لآخر يبدو بوضوح فى الصور الفوتوغرافية الجميلة التى عرضها أمامنا حسنين بك والتى من أجلها يستحق كل ثناء واعجاب

فمنها صور تعطى فكرة صحيحة عن المناظر الطبيعية فى مناطق التكوين الرملى النوبى وأخرى ترينا المناظر فى مناطق الصخور النارية

وتدلنا العينات رقم ١١ الى ٢٢ أن الصخور النارية التى منها تتكون جبال اركنو والعوينات هى من فصيلة الجرانيت والسيانيت

ذات التبلور الظاهر تخترقها عروق وسدود من صخور نارية اخرى دقيقة التبلور بجبال اركنو مكونة فى الغالب من صخور متشابهة التركيب تمثلها العينات ١٢ و ١٤

فالعينة رقم ١٢ عبارة عن مجموعة متماسكة من البلورات التامة التبلور من فلسبار قلوى ذى لون رمادى وربما كان من نوع الارثوكلاز المتحول الى الكاولين . وهذا المعدن هو أهم عنصر فى تكوين تلك الصخور أما الكوارتز فغير ظاهر فى العينة المذكورة التى ثقلها النوعى نحو ٢ر٥ . وعدا الفلسبار فتوجد بالصخور بلورات صغيرة جيدة التكوين خضراء قاتمة اللون من الهورنبلند على أن نسبة هذا المعدن فى الصخور التى نحن بصددها أقل منها فى الصخور الممثلة بالعينات ١٧ و ٢١ من جبال العوينات التى سيأتى ذكرها بعد .

والعينة رقم ١٤ هى قطعة من صخر رمادى اللون أهم عناصره فلسبار قلوى رمادى اللون ومعه بلورات من الهورنبلند بنسبة تعادل الموجود منه فى العينة رقم ١٢ وقد ظهر من الاختبار الميكروسكوبى لقطاع رقيق من العينة رقم ١٤ أن هذا الصخر الاخير يطابق تماما الوصف الذى تقدم للعينة رقم ١٢ ويزيد عليه احتمال وجود معدن النفلين ترى فى بقع ترى فى القطاع وتقابلها فى

العينة نفسها بقع سمراء لامعة ترى بالعين المجردة . على أنه لم يتحقق وجود النفلين بوجه التأكيد .

ومما تقدم يمكن اعتبار العينات ١٢و١٤ من الصخر المعروف بالسيانيت . وتخترق صخور السيانيت فى جبال العوينات عروق مختلفة من أحجار نارية أخرى تدل عليها العينات ١١و١٣ و١٥ ولا شك فى وجود غيرها لم تلتقط منه عينات .

فالقطعة رقم ١١ تمثل عرقا من صخر صلب دقيق التبلور أخضر اللون قاتمه يظهر على سطحه اسمرار نتيجة تأثر العوامل الجوية وعليه عدد كبير من نقط سوداء لا ترى فى داخل الصخر .

وقد ظهر من الفحص الميكروسكوبى أن لهذا الصخر أهمية خاصة فهو مكون من أرضية من البلورات الصغيرة من الفلسبار دقيقة أو ميكروسكوبية في بعض الأجزاء منتشر فيها بلورات رفيعة من معدن أخضر يشبه الايجيرين وتوزيع هذه البلورات الأخيرة ليس توزيعا منتظماً فحيث توجد بلورات الفلسبار بشكل المعين (lozenge) نرى بلورات الايجيرين مكدسة حول حروفها . أما معدن الكوارتز فلم يلاحظ فى أى جزء من القطاع الميكروسكوبى ولذلك يمكن اعتبار الصخر فلسيت الايجيرين وهو يشابه كثيراً الصخر الموصوف والمرسوم فى كتاب الاستاذ هاركر Petrology for Students by Harker

أما القطعة رقم ١٣ فهى من عرق آخر يخترق صخور جبال اركنو ويمكن التعبير عنه بالكوارتزيت الأسمر

والقطعة رقم ١٥ من عرق آخر من ذى طبقات رقيقة لونه رمادى قاتم قد تحول سطحه من تأثير العوامل الجوية الى لون اسمر مائل للأحمر وهو فى تركيبه عبارة عن أرضية دقيقة الذرات جدا مبعثر فيها بلورات صغيرة شفافة وقد أظهر القطاع الميكروسكوبى تشابهاً كبيراً مع القطعة رقم ١١ السابق وصفها . على أن الفلسبار المكون للأرضية فى هذا الصخر الأخير بلوراته دقيقة لدرجة لا يمكن معها رؤية أشكال هذه البلورات حتى تحت الميكروسكوب كذلك بلورات الايجيرين أصغر وأرق وليست تامة التكوين

هذا الصخر أيضاً يمكن تسميته مؤقتاً فلسيت الايجيرين .

أما جبال العوينات ففى الغالب مكونة من صخور تمثلها القطع رقم ١٧ الى ٢١ والتى أهم عناصرها المعدنية فلسبار قلوى رمادى اللون وربما كان من نوع الارثوكلاز ومعه قليل من الميكروكلين وبها معدن الكوارتز فى بلورات كاملة التكوين ولم ير معدن الميكا بها ولكن هناك بلورات تامة التكوين من الهورنبلند الأخضر القاتم منثورة بكثرة فى جميع أجزاء الصخر

ولما كانت جميع هذه النماذج مأخوذة من سطح الصخور فقد انتابها التحلل من فعل العوامل الجوية بحيث أصبحت سريعة التهشم لدرجة لا تسمح لفعل قطاعات رقيقة للميكروسكوب على ان الصخر يمكن اعتباره نوعا كثيف التبلور من جرانيت الهورنبلند

القطعة رقم ١٨ هى من نوع آخر من الصخور التى تكون الجزء الاكبر من جبال العوينات ويمكن تسميته بالجرانيت الأحمر القريب من فصيله الا بليت مع قلة نسبة الميكا الظاهرة فيه لان هذا المعدن سريع التحلل عادة فينتج منه أوكسيدات الحديد التى كانت السبب فى اكتساب الصخر لونه الأحمر الغامق أما الكوارتز والفلسبار فيكونان الجزء الأكبر من الصخر .

وفى جبال العوينات كما هو الحال فى جبال اركنو ترى الصخور الجرانيتية الأصلية تخترقها عروق من صخور نارية أخرى تمثلها النماذج رقم ١٦ و ١٩ و ٢٢

أما القطعة رقم ١٦ فهى من عرق الفلسيت الارجوانى مكون من أرضية فلسيتية منتشرة بها بلورات من الفلسبار محتفظة بشكلها البلورى تماماً .

والقطعة رقم ١٩ من عرق من الكوارتز (المرو) ناصع البياض

موجود فى كهف فى أسفل جبال العوينات وربما كان هذا العرق لسهولة تأكله السبب في تكوين ذلك الكهف

والقطعة رقم ٢٢ التى التقطت عند جارة شزّو من الكوارتزيت وربما كان هذا الصخر أيضا من العروق التى تخترق الجرانيت فى تلك الجهة . وهناك غير ذلك قطعتان التقطتا داخل الكهف فى واحة العوينات ولهما أهمية خاصة وهما المرقومتين برقم ٢٠ و ٢١

أما الاولى فهى من التراقرتين ذي الطبقات الرقيقة ولاشك فى أنه ناشيء من فعل المياه الجارية تدلنا على ذلك التموجات الظاهرة على سطحه ويظهر من المذكرات التى كتبها الرحالة وقت زيارته لذلك الكهف أن هناك كميات كبيرة من هذا الصخر مبعثرة فوق أرضه . وقد أظهر الفحص الميكروسكوبى أن هذه التعاريج السطحية تنطبق مع تراكيب كروية فى داخل الصخر وأن فى المادة الجيرية الكلسيتية المكونة للأرضية قطع صغيرة من الكوارتز والفلسبار وهذه لاشك يرجع أصلها الى تفتت الصخور الجرانيتية . ولم يوجد به أثر لمواد عضوية

أما القطعة الثانية رقم ٢١ فهى من جرانيت الهورنبلند الذى تتكون منه جبال العوينات ومنه أيضا سقف الكهف ويرى على

احدى جوانب هذه القطعة قشرة رقيقة من اوكسيدات الحديد والمنغنيز تشبه القشرة التي تعلو سطح الصخور الجرانيتية فى شلالات أصوان بنهر النيل

وربما كانت هذه المنطقة العظيمة من الصخور النارية التي تحتوي الجبال والواحات المكتشفة حديثا باركنو والعوينات محددة كما بينا بوجه التقريب على الخريطة المرفقة وتحيط بها طبقات التكوين الرملى النوبى كما هو الحال فى مناطق كثيرة مماثلة ومبينة على الخريطة الجيولوجية للقطر المصرى

وقد علمتنا الخبرة فى مناطق اخرى مماثلة حيث توجد الصخور النارية محاطة بالحجر الرملى النوبى أن هذه الطبقات الاخيرة قد تكونت فى أول الامر على سطوح الصخور الناريه القديمة التى ارتفعت بعد ذلك من جراء الحركات الارضية الداخلية بعد انثناء الطبقات الرملية التى فوقها والمحيطة بها . على أنه فى الحالة التى نبحثها الآن يظهر أن هذا الانثناء لم يكن لدرجة كبيرة اذ أننا لانرى فى الصور الفوتوغرافية ما يدل على أن الطبقات الرملية مائلة ميلا ظاهرا .

ولما ترك الرحالة جبال العوينات واتجه جنوبا ترك وراءه الصخور النارية وقد بينا على الخريطة نقطة انتهاء تلك الصخور

وابتداء طبقة التكوين الرملى النوبى ثانيا بحرف "D" على بعد ٢٠ كيلومتر جنوب العوينات وهنا تعود المناظر الطبيعية فتتغير مرة اخرى من جبال وعرة قاتمة اللون الى هضاب مستطيلة من الصخور الرملية ذات الالوان الساطعة ويبلغ ارتفاع هذه الهضبات نحو ١٠٠٠ متر فوق سطح البحر بين انباه وكتم ومن ثم ينحدر متوسط منسوب سطح الارض تدريجيا حتى الفاشر حيث يبلغ ارتفاع الارض نحو ٧٠٠ أو ٨٠٠ متر فوق سطح البحر

الخلاصة

مما تقدم يمكن تلخيص الظواهر الجيولوجية التى بينتها لنا هذه الرحلة الاستكشافية فى النقط الآتية :—

(١) تمتد طبقات العصر الميوسينى جنوبا حتى الخط ° ٢٧ شمال تقريبا . فتكون نتوءاً عظيماً تحيط بها صخور تابعة لعصور جيولوجية أقدم منها .

(٢) إن الطبقات الميوسينية التى تلى مباشرة طبقات التكوين الرملى النوبى تتبع هنا نفس القوانين التي قدرها الدكتور هيوم لاول مرة فيما يختص بمنطقة خليج السويس والتى بمقتضاها تتبع هذه الطبقات الميوسينية طبقات متزايدة فى القدم من الشمال الى الجنوب التى يمكن تفسيرها بأنه قبيل العصر الميوسينى تعرضت هذه المناطق

لعوامل التعرية التى كانت أشد فى الجنوب من الشمال لارتفاع الأجزاء الجنوبية من جراء حركات أرضية سابقة .

(٣) إن هناك منطقة هائلة قبلى الخط ٢٧° شمال تغطيها طبقات من الحجر الرملى النوبى التابعة للعصر الكريتاسى .

(٤) اكتشاف جبال من صخور نارية فى اركنو والعوينات داخل الحدود المصرية . وهى اما من محافظة جميع نواحيها بطبقات الحجر الرملى النوبى أو متصلة بلسان من الصخور الجرانيتية الى سلسلة جرانيتية كبرى واقعة الى الجنوب

(٥) لم يصادف الرحالة طبقات كريتاسيه أحدث من التكوين الرملى النوبى مع أن هذه الطبقات معروفة فى الشمال الشرقى من هذه المنطقة كما هو مبين على الخريطة الجيولوجية للقطر المصرى وربما كان سبب عدم ظهورها هنا أنها مغطاة بطبقة حديثة التكوين من الرمل والحصى .

بيان العينات الجيولوجية

التى جمعها حسنين بك

فى رحلته من السلوم الى دارفور

نمرة مسلسله	التاريخ سنة ٩٢٣	الجهة حسب البطاقات المقدمة	العينات
١	ـ	واحة سيوه	ثلاث قطع من بلورات السلينيت ومحارة واحدة من البكتن (Pecten) ومحارتين من الاوستريا (Ostrea) وربما كانت من طبقات ميوسينية
٢	ـ	الجغبوب	محارة بكتن (Pecten) في حجر جيرى مكون من بقايا المحارات ومن المحتمل أن تكون هذه أيضا من الميوسين
٣	ـ	الصخور السطحية فى الطريق بين الجغبوب وجالو	قطعة من الخشب المتحجر وثلاث حصوات سيليسية وعقدتين حجريتين مستطيلتين (concretions) من الحجر الرملى الجيرى وألياف بلورية من الملح طولها ٥ بوصات ومقوسة

نمرة مسلسلة	التاريخ سنة ٩٢٣	الجهة حسب البطاقات المقدمة	العينات
٤	٢٠ مارس	مبعثرة فى رقع صغيرة بالوادي	حصاتين من الحجر الرملى الجيرى ومعهما حبيبات من الكوارتز
٥	٢٤ مارس	قرب بئر الحرش (الظيفن) رقع من هذا الصخر منتشرة قبل الوصول الى الحطب	قطعة من الحجر الرملى النوبى
٦	٢٨ مارس	على مسيرة يوم من الحرش (الظيفن) فى طريق الكفره	خمسة قطع من الطبقات الحديدية الصلبة فى الحجر الرملى النوبى
٧	٢٩ مارس	جارة الشريف	ثلاث قطع من الحجر الرملى النوبى
٨	—	جبل النارى . الجارات الغربية من الهوارى	ثلاث قطع من طبقات حديدية ارجوانية اللون فى الحجر الرملى النوبى وقطعة كروية سوداء تشبه القنبلة
٩	—	جبال الكفره (التاج)	ثلاث قطع من الحجر الرملى النوبى
١٠	٢٢ ابريل	بين الكفرة والعوينات من سلسلة من الجبال اخترقت ذلك اليوم	قطعة من الحجر الرملى النوبى وقطعتين من طبقات حديدية في الحجر الرملى النوبى

نمرة مسلسلة	التاريخ سنة ٩٢٣	الجهة حسب البطاقات المقدمة	العينات
١١	٢٤ ابريل	جبال اركنو	حجر نارى (فلسيت الايجيرين)
١٢	٢٤ ابريل	من نقطة فى جبال اركنو وهناك تلال فى اطراف الجبل كلها من هذا الصخر	حجر نارى سيانيت متحلل من فعل العوامل الجوية
١٣	٢٤ ابريل	من رفع كبيرة شمال جبال اركنو	حجر ناري (عرق من الكوارتزيت)
١٤	٢٥ ابريل	من نفس جبل اركنو	حجر نارى (سيانيت رمادى)
١٥	٢٥ ابريل	جلاميد كبيرة مدفونة في وادى اركنو على حافة جبل اركنو	حجر نارى (فلسيت الايجيرين)
١٦	—	عينة من تكاوين ذات طبقات في وادي العوينات الكبير	حجر نارى (فلسيت)
١٧	—	جبال العوينات اغلبها من هذا الصخر	حجر نارى (جرانيت الهورنبلند) متحلل من تأثير العوامل الجوية
١٨	—	الصخر التى تتكون منه اغلب العوينات	حجر نارى (جرانيت) متحلل من تأثير العوامل الجوية

نمرة مسلسلة	التاريخ سنة ٩٢٣	الجهة حسب البطاقات المقدمة	العينات
١٩	–	التقطت داخل كهف الماء فى العوينات قرب منسوب الماء وتوجد رقع كثيرة منه	حجر ناري (عرق الكوارتز أو المرو)
٢٠	–	التقطت داخل كهف المياه بالعوينات	رواسب جيريه من المياه الجارية (ترافرتين)
٢١	–	من سقف كهف الماء بالعوينات اغلب الصخور المكونة للكهف وللجبل من هذا النوع	حجر نارى (جرانيت الهورنبلند) متحلل بفعل المؤثرات الجوية ومغطى بقشرة حديدية لامعة ربما كانت من تأثير المياه
٢٢	٨ مايو	من جارة شزو قرب العوينات	حجر نارى (كوارتزيت) دقيق التركيب
٢٣	١٠ مايو	بين العوينات واردى	قطعة من الحجر الرملى النوبى
٢٤	١٣ مايو	موجود منثور فوق الرمل الاحمر قرب اردى لايوجد سوى الرمل الاحمر وهذا الصخر	قطعة من طبقة حديدية تحتوى على الهيماتيت (اوكسيد الحديد) من الحجر الرملى النوبى

نمرة مسلسلة	التاريخ سنة ٩٢٣	حسب الجهة البطاقات المقدمة		العينات
٢٥	١٦ مايو	تلال اردى		طين احمر غامق وبه نسبة صغيرة من الرمل (ويطحن الى مسحوق طوبى غامق)
٢٦	١٦ مايو	صخور اردى	تلال	طين احمر طوبى وبه نسبة صغيرة من الرمل (ويطحن بسهولة الى مسحوق احمر طوبى ساطع)
٢٧	١٩ مايو	تلال اجاه		رمل ميكائى رفيع ناعم يختلف لونه بين الاحمر والاصفر وبه نسبة صغيرة من الجير .

عن جريدة السياسة عدد يوم الثلاثاء ٢٨ أغسطس سنة ١٩٢٣

قصيدة أمير الشعراء

تحية للرحالة المصرى المقدام

احمد محمد حسنين

جادت عبقرية شوقى بك بهذه الآية التي حيا بها رحالة مصر الكبير فاضاف الى شعره الأخلاقى الوصفى الخالد درة يتلألأ سناها وتسحر الأفئدة وان من البيان لسحرا

وقد ألقيت فى حفلة التكريم التي أقيمت للرحالة المصرى بكازينو سان استفانو بالاسكندرية مساء الأمس تحت رعاية حضرة صاحب الجلالة الملك

أقدم فليس على الأقدام ممتنع
واصنع به المجد فهو البارع الصنع

للناس فى كل يوم من عجائبه
ما لم يكن لامرىء فى خاطر يقع

هل كان فى الوهم أن الطير يخلفها

على السماء لطيف الصنع مخترع

وان أدراجها فى الجو يسلكها

لإنس جنود سليمان لها تبع

أعيا العقاب مداهم فى السماء وما

راموا من القبة الكبرى وما قرعوا

قل للشباب بمصر عصركم بطل

بكل غاية إقدام له ولع

أس الممالك فيه همة وحجى

لا الترهات لها أس ولا الخدع

يعطى الشعوب على مقدار ما نبغوا

وليس يبخسهم شيئاً اذا برعوا

ماذا تعدون بعد البرلمان له

اذا صغاركمو بالدولة اضطلعوا

البر ليس لكم فى طوله لجم

والبحر ليس لكم فى عرضه شرع

هل تنهضون عساكم تلحقون به

فليس يلحق أهل السير مضطجع

لا يعجبنكمو ساع بتفرقة
ان المقص خفيف حين يقتطع
قد أشهدوكم من الماضى وما نبشت
منه الضغائن ما لم تشهد الضبع
ما للشباب وللماضى تمر بهم
فيه على الجيف الاحزاب والشيع
ان الشباب غد فليهدهم لغد
وللمسالك فيه الناصح الورع
لا يمنعنكمو بر الابوة أن
يكون صنعكمُ غير الذى صنعوا
لا يعجبنكم الجاه الذى بلغوا
من الولاية والمال الذى جمعوا
ما الجاه والمال فى الدنيا وان حسنا
الا عوارى حظ ثم ترتجع
عليكم بخيال المجد فائتلفوا
حياله وعلى تمثاله اجتمعوا
وأجملوا الصبر فى جد وفى عمل
فالصبر ينفع ما لا ينفع الجزع

وان نبغتم ففى علم وفى أدب
وفي صناعات عصر ناسه صنع
وكل بنيان قوم لا يقوم على
دعائم العصر من ركنيه منصرع
شريف مكة حر فى ممالكه
فهل ترى القوم بالحرية انتفعوا

* * *

كم فى الحياة من الصحراء من شبه
كلتاهما فى مفاجاة الفتى شرع
وراء كل سبيل فيهما قدر
لا تعلم النفس ما يأتى وما يدع
فلست تدرى وان كنت الحريص متى
تهب ريحاهما أو يطلع السبع
ولست تأمن عند الصحو فاجئة
من العواصف فيها الخوف والهلع
ولست تدرى وان قدرت مجتهداً
متى تحط رحالا أو متى تضع

ولست تملك من أمر الدليل سوى

ان الدليل وان ارداك متبع

وما الحياة اذا أظمت وان خدعت

الا سراب على صحراء يلتمع

اكبرت من (حسنين) همة طمحت

تروم مالا يروم الفتية القنع

وما البطولة الا النفس تدفعها

فيما يبلغها حمدا فتندفع

ولا يبالى لها أهل اذا وصلوا

طاحوا على جنبات الحمد أم رجعوا

رجالة الشرق ان البيد قد علمت

بأنك الليث لم يخلق له الفزع

ماذا لقيت من الدو السحيق ومن

قفر يضيق على السارى ويتسع

وهل مررت بأقوام كفطرتهم

من عهد آدم لا خبث ولا طبع

ومن عجيب لغير الله ما سجدوا

على الفلا ولغير الله ما ركعوا

كيف اهتدي لهم الاسلام وانتقلت
اليهم الصلوات الخمس والجمع
أجزت مصر ثناء أنت موضعه
فلا تذب من حياء حين تستمع
ولو جزتك الصحاري جئتنا ملكا
من الملوك عليك الريش والودع
شوقي

كلمة شكر

لم أكن لأوفق التوفيق الذى نلته فى رحلتى أو أتمكن من اتمامها بالنجاح الذى كتبه لى الله لو لم آنس برأى أصدقائى المخلصين وأنل مساعدة الذين تفضلوا بمد يد المساعدة الىّ حيث كنت فى حاجة إليها . ولا أقل من أن أسجل لهم جميعاً تقديرى لليد التى أسدوها والنصائح التى أبدوها وأثبت هذا فى كتابي الذى أقدمه لأبناء وطنى وملء نفسي الأمل أن أكون قد قمت ببعض ما يفرضه علىّ الاخلاص فى خدمته .

أتقدم بالشكر للدكتور جون بول مدير مصلحة مساحة الصحراء المصرية فقد تفضل بتلخيص النتائج العلمية لرحلتى فى الذيل الاول من هذا الكتاب وساعدنى كثيراً بارشاداته فى استعمال الاجهزة التى صحبتها فى رحلتى

وأسجل شكرى مرة اخرى للدكتور بول وللمستر براون وغيرهم من أعضاء مصلحة المساحة المصرية لقيامهم بتحضير خرائط رحلتى التى أثبتّ احداها فى هذا الكتاب

وأثنى الثناء العَطِر على الدكتور هيوم وعلى المرحوم المستر مون الموظفين بمصلحة المساحة الجيولوجية لمساعدتهما بتقسيم

النماذج الجيولوجية التى أحضرتها معى وعمل التقرير الذي وضعته فى الذيل الثانى لهذا الكتاب وانى مدين لحضرة حسن بك عبادى لتفضله بترجمة تقرير الدكتور بول ولحضرة حسن بك صادق المفتش بالقسم الجيولوجى بمصلحة المساحة الذى تفضل أيضاً بترجمة تقريرى الدكتور هيوم والمرحوم المستر مون الى اللغة العربية .

وقد تفضل اللواء سبنكس باشا ومشملانى بك بوزارة الحربية فتعهدا جزءاً كبيراً من أدوات الرحلة من حقائب وجعب وأوانى فأدت وظيفتها على مايرام وانى لأشكرهما على العناية والارشادات التى بذلاها فى تحضيرها .

وقد تكرم صديقاى المخلصان السيد عبد العال الادريسى وولده السيد ميرغنى الادريسى فقدما لى النصح الخالص والمساعدة العظيمة فلهما منى مزيد الشكر والامتنان .

وقد قام بمساعدتى مساعدة نافعة فى الجزء الأول من الرحلة الكولونل هنتر باشا المدير السابق لمصلحة الحدود والكولونيل مكدونيل حاكم الصحراء الغربية والماجور دى هلبرت والكابتن هتون والكابتن هاريسون من ضباط مصلحة أقسام الحدود وعبد العزيز فهمى افندى مأمور السلوم واحمد كامل افندى مأمور سيوه والملازم لولو قومندان سيوه وانى لأقدم لهم جميعاً مزيد شكرى

وعند وصولى السودان مهد لى الطريق بعناية المرحوم السر لي ستاك باشا سردار الجيش المصري وحاكم السودان سابقاً فأتقدم بالشكر الى السيدة قرينته اللادي ستاك

ولا تفوتنى هذه المناسبة بدون أن اقدم خالص امتنانى لجميع اخوانى السودانيين وكذلك موظفى السودان الذين قاموا بمساعدتى عند انتهاء الرحلة وخصوصاً سعادة مدونتر باشا القائم بمنصب حاكم السودان العام واللواء هدلستون باشا القائم بأعمال السردار والاميرالاى حافظ بك قائد فرق الخرطوم (الآن اللواء حافظ باشا) والمستر ماك ميكل السكرتير الملكى المساعد والكابتن فيلبس وصمويل عطيه بك واحمد السيد الرفاعي افندى والمستر شارل ديبوى القائم بأعمال حاكم دارفور والصاغ احمد حلمى أركان حرب الفاشر والمستر كريج حاكم كردفان والبكباشى احمد خليل أركان حرب الابيض (والآن ياور حضرة صاحب الجلالة الملك)

هذا وأسجل شكري الخالص لحضرة صاحب العزة احمد بك لطفى السيد على تفضله بكتابة المقدمة الشيقة التى صدرت بها الكتاب ولحضرة صاحب العزة احمد بك شوقى شاعر الشرق على أبياته الرقيقة التى تكرم بنظمها عند عودتى من الرحلة وعلى بيتيه العامرين اللذين زينت بهما غلاف الكتاب

وأختم كلمتي باسداء مزيد شكري لأحمد افندي رامي ولجميع من تفضل من اخواني بتصفح هذا الكتاب وتكرم بابداء ملاحظته وارشاداته في تقديمه للقراء ؟

احمد محمد حسنين

فهرست المجلد الثانى

صحيفة

تابع الفهرس

فهرست

بما اشتمل عليه المجلد الثانى من الصور

تابع فهرست الصور